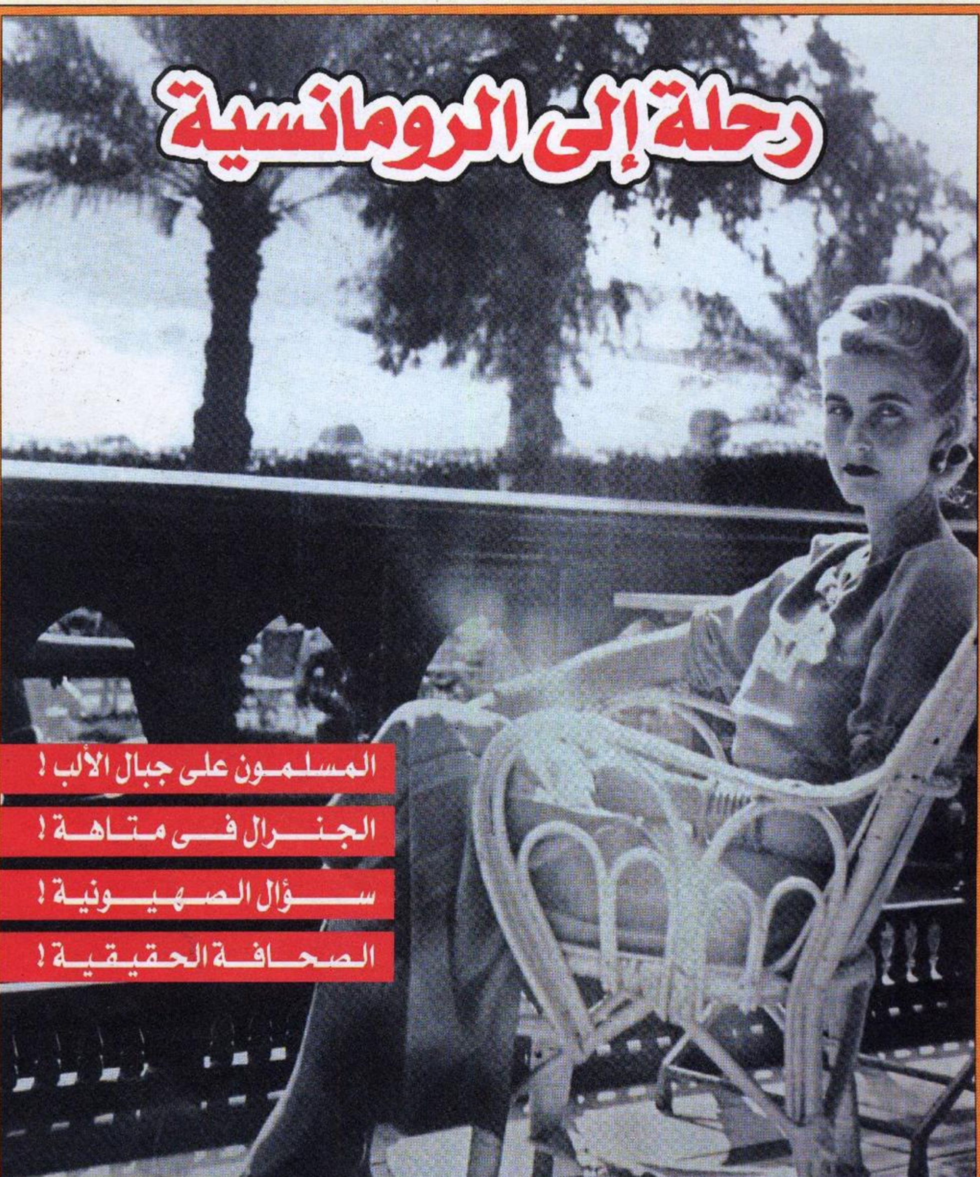
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 97 - February 2007

مجلة شهرية . العدد السابع والتسعون . السنة التاسعة . فبراير ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات



السنة التاسعة
العدد السابع والتسعون
فبراير ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد :

كتاب العدد :

- آلان بلوتيه.. روائي فرنسي مهتم بالتاريخ المصري القديم.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- حلمي محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- حمدي عزام .. دبلوماسي مصري سابق.
- طارق علي.. روائي وكاتب بريطاني من أصل باكستاني.
- عبد الوهاب المسيري.. أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة.
- علاء الدين وحيد... كاتب.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمي فلسطيني.
- محمد السماك .. كاتب لبناني.
- محمد علي شمس الدين.. شاعر وكاتب لبناني
- معتز خورشيد.. مدير المجلس العربي للدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة القاهرة
- وليم هـ ماكنيل.. استاذ التاريخ بجامعة شيكاغو

رسوم العدد للفنانين

محمد حجي - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابي مسبق من الناشر.

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٩٢٠٤٩٠ / ٢٩٢٠٤٩٢ / ٢٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٢٨٥٢٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهمًا - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

الجنرال في المتاهة!

طارق علي



برويز مشرف

إذا كانت هناك فكرة وحيدة سائدة في مذكرات برويز مشرف فهي الاعتقاد المألوف بأن الباكستان أفضل حالا تحت حكم العسكر منها تحت حكم السياسيين. كان أول رهط من الجنرالات هم أبناء السلطة الكولونيالية المنقضية. كانوا قد نشأوا على إطاعة الأوامر واحترام هيكل القيادة في الجيش مهما كان الثمن والتمسك بتقاليد الجيش الهندي البريطاني. كان الموظفون الذين حكموا باكستان في أيامها الأولى نتاج عملية اختيار إمبريالي يهدف إلى تعيين موظفين مدنيين يتمتعون بالنزاهة ويرتدون قناع الموضوعية. ومازالت سلسلة القيادة العسكرية تحظى بالاحترام ولكن الخدمة المدنية تتكون الآن في معظمها من موظفين فاسدين إلى أقصى الحدود. كانوا فيما سبق موالين للحكومة الإمبريالية وقد تحول ولاؤهم اليوم إلى الجيش.

كان أول حاكم عسكري لباكستان هو الجنرال أيوب خان ضابط كولونيالي تدرب في كلية ساندهرست، واستولى على السلطة في أكتوبر ١٩٥٨ بتشجيع قوى من واشنطن ولندن اللتين كانتا تخشيان أن تأتي الانتخابات العامة الأولى بتحالف قد يجرف الباكستان خارج معاهدات الأمن إلى منظمة جنوب شرق آسيا SEATO أو باتجاه سياسة عدم الانحياز. وقد حظر أيوب كل الأحزاب السياسية وصادر صحف المعارضة وقال في الاجتماع الأول لوزارته «فيما يتعلق الأمر بكم فإن هناك سفارة واحدة لها أهمية في هذه البلاد: السفارة الأمريكية» وفي بث إذاعي إلى الأمة قال أيوب خان لمواطنيه المذهولين: «إننا يجب أن نفهم أن الديمقراطية لا يمكن أن تعمل في المناخ الحار. فالديمقراطية تحتاج إلى مناخ بارد كما في بريطانيا».

ربما يكون هذا النوع من الملاحظات وراء ازدياد شعبيته في الغرب. فقد أصبح الوجه المفضل في صحف بريطانيا والولايات المتحدة. وقد سحر مظهره الخارجي الودود كريستين كيلر (التي قفز معها إلى حوض سباحة في كليفدن أثناء مؤتمر رؤساء وزارات الكومنويلث) كما دفع المبجل كنجسلي مارتن من صحيفة نيو ستيتمان إلى نشر حوار متواضع معه. وفي هذه

In the of Fire.. A Memoir

على خط النار.. مذكرات

Pervez Musharraf

Free Press. $ 18.48. 2006

بترتيب مع مجلة:

London Review of Books

ترجمة: بثينة الناصري

الأثناء أخرست أصوات المعارضة وعذب السجناء السياسيون. وقد مات حسن ناصر وهو شيوعي نتيجة لذلك. في عام ١٩٦٢ - بعد أن رقى نفسه إلى فيلد مارشال (المشير) قرر أيوب أن الوقت حان لتوسيع قاعدة جاذبيته. خلع زيه العسكري وارتدى الزي الوطني وخاطب اجتماعا جماهيريا (وهو اجتماع لفلاحين من ملاك الأراضي جمعهم بالإكراه) وفيه أعلن أنه ستجرى قريبا انتخابات رئاسية مناشدا الشعب أن يدعمه. وقد رتبت الحكومة حزبا سياسيا باسم «رابطة المسلمين» وهرع المتسلقون إلى الانضمام إليه. أجريت الانتخابات في ١٩٦٥ وزيفت الأصوات من أجل ضمان نصر الفيلد مارشال. وكانت منافسته فاطمة جنة (شقيقة مؤسس الدولة) قد جاهدت في حملة انتخابية ناجحة ولكن بلا طائل. أما القليل من الموظفين الذين رفضوا المساعدة في تزييف الانتخابات فقد أحيلوا إلى تقاعد مبكر.

والآن بعد أن أصبح انتخابه رسميا، فقد صار الرأي أن نشر مذكراته سوف يمنحه المزيد من الشرعية. وكانت مذكراته المعنونة (أصدقاء لا أسياد: سيرة حياة سياسية) قد ظهرت من مطبعة أكسفورد في ١٩٦٧ ولاقت ترحيبا عظيما في الصحافة الغربية وهيستريا منافقة في الإعلام الباكستاني الذي تسيطر عليه الدولة. وكان وزير الإعلام في حكومته ألطاف جوهار وهو رجل بلاط ماكر وخبيث هو الكاتب الخفي لكتاب بالغ الشناعة: كان أسلوبه جامدا وهابطا و فضفاضا وحافلا بأنصاف الحقائق. وهكذا فقد جاء بعكس التأثير المطلوب في الباكستان وكان الطلاب في رحاب الجامعات يسخرون منه بكتابات سرية يتداولونها بينهم. وكان أيوب قد دعا الباكستانيين «لدراسة هذا الكتاب وفهمه والعمل بموجبه.. إن مضمونه لخير الشعب» وكان أكثر من ٧٠٪ من السكان أميين ومن البقية لا يقرأ الإنجليزية إلا صفوة صغيرة. في أكتوبر ١٩٦٨ وخلال احتفالات باذخة في الذكرى العاشرة للدكتاتورية باعتبارها «عقداً من التطور» طالب الطلاب في راولبندي بإعادة الديمقراطية، وانتشرت لجان العمل الطلابية في أنحاء البلاد. واستجابت الدولة بقسوتها المعهودة بشكل اعتقالات جماعية وأوامر لقتل «المشاغبين» وقتل العديد من الطلاب خلال الأسابيع القليلة الأولى. وفي الشهرين التاليين اشترك في الاحتجاجات العمال والمحامون وأصحاب المحلات والموظفون وحتى العاهرات. وأصبحت الكلاب الضالة المكتوب بالأصباغ على ظهرها كلمة (أيوب) هدفاً خاصاً للشرطة المسلحة.

في بث إذاعي إلى الأمة قال أيوب خان لمواطنيه المذهولين: «إننا يجب أن نفهم أن الديمقراطية لا يمكن أن تعمل في المناخ الحار. فالديمقراطية تحتاج إلى مناخ بارد كما في بريطانيا»





وفي مارس ١٩٦٩، تنازل أيوب عن الحكم إلى الجنرال السكير يحيى خان.

وعد يحيى بانتخابات حرة خلال سنة ووفى بوعده. وكانت نتيجة انتخابات ١٩٧٠ (وهي الأولى في تاريخ الباكستان) نصراً كبيراً لرابطة عوامي وهم قوميون بنغاليون من باكستان الشرقية (بنجلاديش الآن). وكان البنغاليون يشعرون بالمرارة لسبب وجيه: فباكستان الشرقية حيث يعيش أغلبية السكان كانت تعامل كأنها مستعمرة وكان البنغاليون يريدون حكومة فيدرالية. في حين أن الصفوة العسكرية السياسية الاقتصادية تأتي من باكستان الغربية ولهذا كانت ترى في نصر رابطة عوامي تهديدا لمصالحها.

وكان ينبغي على ذو الفقار علي بوتو قائد حزب الشعب الباكستاني الذي فاز في الجزء الغربي من البلاد، أن يتفاوض على تسوية مع المنتصرين. بدلا من ذلك، غضب وطلب من حزبه مقاطعة اجتماع للجمعية العامة في دكا، عاصمة باكستان الشرقية. وهكذا قدم للجيش مساحة للاستعداد لهجوم عسكري. وقد منع يحيى زعيم رابطة عوامي مجيب الرحمن من تشكيل الحكومة وفي مارس ١٩٧١ أرسل قواته لاحتلال باكستان الشرقية. وحينها أعلن بوتو «الحمد لله لقد تم إنقاذ باكستان» مصطفا مع ماسيجيء. واعتقل رحمن وقتل عدة مئات من القوميين والمفكرين اليساريين والناشطين والطلاب في مجازر منظمة. وقد أعدت قوائم الضحايا بالتعاون مع إصلاحيين إسلاميين كان حزبهم (الجماعة الإسلامية) قد خسر خسارة كبيرة في الانتخابات. وتبعت المذابح حملة من الاغتصابات الجماعية. حيث كان يقال للجنود إن البنغاليين تحولوا إلى الإسلام حديثا فهم لم يكونوا إذن (مسلمين أصلاء) وعلى هذا يجب تحسين جيناتهم.

وقد دفعت الفظائع إلى نشوء مقاومة مسلحة وكانت هناك مناشدات للمساعدة العسكرية من نيو دلهي حيث أسست رابطة عوامي حكومة منفى. وقد انتهز الهنود هذه الفرصة، خشية من أن يتسبب اللاجئون البنغاليون في ضعضعة استقرار بنغال الغربية التابعة للهند، فأرسلت جيشها الذي رحب به البنغاليون كجيش تحرير. وفي خلال أسبوعين حوصرت القوات الباكستانية واختار قائدهم الجنرال نيازي الملقب بالنمر الاستسلام بدلا من الشهادة مما أوغر صدور رفاقه الذين كانوا على بعد ألف ميل من ميدان المعركة. في ديسمبر ١٩٧١ أصبحت باكستان الشرقية دولة بنجلاديش وانتهى ٩٠ ألفا من جنود باكستان الغربية في معسكرات أسرى الحرب الهندية. وكان نيكسون وكيسنجر وماو جميعا قد (وضعوا ثقلهم وراء باكستان) ولكن بدون جدوى. كانت كارثة شاملة للجيش الباكستاني: لقد أدت أول مرحلة من الحكم العسكري إلى تقسيم البلاد وخسارة أغلبية السكان.

وجد بوتو نفسه حينها مع جيش مهزوم ودولة مجدوعة. وكان قد انتخب حسب برنامجه الاجتماعي الديمقراطي الذي تعهد فيه بتوفير الغذاء والملابس والتعليم والسكن للجميع، إضافة إلى وعود بإصلاحات كبيرة في الأراضي والتأميم. وكان الزعيم السياسي الوحيد الباكستاني الذي يملك السلطة والدعم الشعبي لتغيير البلاد ومؤسساتها بضمنها الجيش تغييرا جذريا. ولكنه فشل على كل الجبهات. التأميم لم ينتج سوى عن إحلال الموالين الفاسدين والموظفين الخانعين محل رجال الأعمال الجشعين. وحين هرع ملاك الأراضي للانضمام إلى حزبه، وضعت في الأدراج كل الإصلاحات الزراعية الجذرية التي وعد بها. وكان الفقراء يشعرون بالفطرة أن بوتو إلى جانبهم (حيث إن الصفوة لم تغفر له أبدا) ولكنه لم يتخذ سوى إجراءات هزيلة لتبرير ثقتهم هذه. وكان أسلوب حكومته شموليا وكان ميله للانتقام ماحقا.

حاول بوتو أن يحارب المعارضة الدينية بارتداء ملابسهم: حظر بيع الكحول وجعل الجمعة عطلة رسمية وأعلن تكفير طائفة الأحمدية (وهو مطلب قديم للجماعة الإسلامية لم يلتفت إليه أحد من قبل) ولكن هذه الإجراءات لم تساعده بل دمرت البلاد بتشريع السياسة الدينية. ورغم مخاوفه من المعارضة الإسلامية فإن بوتو كان سيفوز بانتخابات ١٩٧٧ بدون تدخل الدولة وإن يكن الفوز بفارق صغير. ولكن التدخل كان سافراً إلى درجة أدى بالمعارضة إلى الخروج إلى الشوارع ولم ينفعه لا قدرته على التحكم ولا ألمعيته في هذه الأزمة.

ولأنه كان دائما لا يحسن الحكم على الأشخاص فقد جعل من جنرال مغمور ومتحمس صغير العقل هو ضياء الحق رئيس هيئة

أركان الجيش. وبصفته رئيس البعثة التدريبية الباكستانية في الأردن، قاد البريجادير ضياء هجوماً (أيلول الأسود) على الفلسطينيين عام ١٩٧٠ .

في يوليو ١٩٧٧ ولاستباق اتفاق بين بوتو وأحزاب المعارضة كانت تتضمن انتخابات جديدة، ضرب ضياء ضربته، فاعتقل بوتو لعدة أسابيع وتعهد ضياء الحق بانتخابات جديدة خلال ستة أشهر بعدها يعود الجيش إلى ثكناته. بعد سنة أعيد اعتقال بوتو الذى مازال محبوبا من الجماهير التى كانت تحتشد لتحيته أينما ذهب، وفي هذه المرة وجهت إليه تهمة القتل وحوكم وشنق في ابريل ١٩٧٩.

وعلى مدى السنوات العشر التالية، توحشت الثقافة السياسية في الباكستان، حيث أصبح الجلد والشنق العلنى (للصحفيين المعارضين من بين آخرين) ممارسة مالوفة، وقد تحول ضياء نفسه إلى بطل الحرب الباردة بفضل الأحداث في أفغانستان. ولم تجد الرابطة الدينية لتقليل عداء القادة الأفغان لجيرانهم. والسبب الرئيسى كان خط دوراند الذى فرض على الأفغان عام ١٨٩٣ لترسيم الحدود بين الهند البريطانية وأفغانستان والتى قسمت السكان البشتون في المنطقة. بعد مائة عام (على طراز هونج كونج) سوف يعود إلى أفغانستان كل ما أصبح يسمى المحافظة الحدودية الشمالية الغربية للهند البريطانية، ولكن كل حكومات كابول رفضت خط دوراند بنفس مقدار رفضها السلطة البريطانية ثم فيما بعد الباكستانية على المنطقة.

في ١٩٧٧ حين جاء ضياء إلى السلطة كان ٩٠٪ من رجال أفغانستان و٨٩٪ من نسائها أميين وكان ٥٪ من ملاك الأراضي يملكون ٤٥٪ من الأراضي المزروعة وكانت البلاد صاحبة أدنى دخل قومي في آسيا. في نفس السنة سحب شيوعيو بارشام الذين ساندوا الانقلاب العسكرى في ١٩٧٣ الذى قام به الأمير داود حيث أعلنت الجمهورية بعد ذلك، دعمهم لداود وانضموا مرة أخرى إلى الجماعات الشيوعية الأخرى لتشكيل حزب الشعب الديمقراطي في أفغانستان وبداوا يدعون إلى حكومة جديدة. وتدخلت الأنظمة في الدول المجاورة، وكان شاه إيران الذى يقوم بدور قناة اتصال مع واشنطن قد نصح بإجراء حاسم - توسيع نطاق الاعتقالات والإعدامات والتعذيب - ووضع وحدات من أجهزة التعذيب لديه تحت تصرف داود. كما قال الشاه لداود إنه إذا اعترف بخط دوراند كحدود دائمة فإن الشاه سوف يعطى أفغانستان ٣ بلايين دولار وأن باكستان سوف تتوقف عن الأعمال العدائية. وفي هذه الأثناء كانت أجهزة الاستخبارات الباكستانية تسلح المنفيين الأفغان وتشجع الانتفاضات العشائرية الهادفة لإحياء الملكية. وكان داود ميالا لقبول عرض الشاه ولكن الشيوعيين نظموا انقلابا استباقيا واستولوا على السلطة في ابريل ١٩٧٨. وفي واشنطن حدث ذعر ازداد عشرات الأضعاف حين أصبح واضحا أن الشاه أيضا كان على وشك أن يفقد عرشه أيضا. وهكذا أصبحت دكتاتورية ضياء الحق أداة الاستراتيجية الامريكية في المنطقة ولهذا السبب أعطت واشنطن الضوء الأخضر لإعدام بوتو وأغمضت عينها عن البرنامج النووى لباكستان. كانت الولايات المتحدة تبحث عن باكستان مستقرة بأى ثمن.

وكما نعلم الآن فإن الخطط (أو كما يسميها مستشار الأمن القومى سبجنيو بيرجنسكى «فخ الدب») قد وضعت لخلخلة استقرار حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني على أمل استدراج حماته السوفييت. والخطط من هذا النوع تفشل دائما ولكنها نجحت في أفغانستان والسبب الرئيسى هو ضعف الشيوعيين الأفغان أنفسهم: لقد جاءوا إلى السلطة من خلال انقلاب عسكرى لم يشتمل على أى تحريك خارج كابول ومع هذا فقد تظاهروا بأن هذه كانت ثورة وطنية، وكان تشكيلهم السياسى الستالينى يجعلهم حساسين لأى نوع من المساءلة ولم تخطر على بالهم أية أفكار مثل كتابة ميثاق حقوق ديمقراطية أو إجراء انتخابات حرة لجمعية دستورية. وقادت الصراعات العنيفة بين الفصائل في سبتمبر ١٩٧٩ إلى إطلاق نار في القصر الجمهورى بكابول على طراز عصابات المافيا حيث قتل خلالها رئيس الوزراء حافظ الله أمين الرئيس تاراكى. وكان أمين وهو ستالينى متشدد يزعم أن ٩٨٪ من السكان يدعمون إصلاحاته ولكن ينبغى تصفية الـ ٢٪ المعارضين. ونتيجة لذلك حدث تمرد في الجيش وانتفاضات في المدن وفي هذا الوقت كان كل ذلك لا علاقة له بالأمريكان أو الجنرال ضياء.

أخيرا بعد قرارين من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ضد التدخل، غير الاتحاد السوفيتى رأيه قائلا: إن لديه «وثيقة جديدة». مازالت هذه سرية ولكن لن يدهشنى أبدا إذا كان الدليل عبارة عن وثائق مزيفة تزعم أن أمين عميل لوكالة المخابرات المركزية. وعلى أية حال قررت اللجنة المركزية باستثناء يورى اندروبوف الذى صوت ضد القرار، إرسال قوات إلى أفغانستان. بهدف التخلص من نظام غير مرغوب فيه واستبداله بنظام أقل تنفيرا بشيء بسيط. هل يذكركم هذا بشيء؟

توحشت الثقافة السياسية في الباكستان، حيث أصبح الجلد والشنق العلنى (للصحفيين المعارضين من بين آخرين) ممارسة مألوفة، وقد تحول ضياء نفسه إلى بطل الحرب الباردة بفضل الأحداث في أفغانستان

من ١٩٧٩ إلى ١٩٨٨ كانت أفغانستان بؤرة الحرب الباردة. وقد عبر ملايين من اللاجئين خط دوراند واستقروا في معسكرات ومدن في شمال غرب حدود الباكستان.

وكانت الأسلحة والأموال إضافة إلى الجهاديين تتدفق من السعودية والجزائر ومصر إلى الباكستان. وكانت ثمة مكاتب لكل وكالات الاستخبارات الغربية الرئيسية (بضمنها الإسرائيلية) في بيشاور قرب الحدود. كانت أسعار الدولار واحدة في السوق السوداء والسوق الرسمية. وكانت الأسلحة بضمنها صواريخ ستنجر تباع للمجاهدين بواسطة الضباط الباكستانيين الذين كانوا يسعون للثراء، وازدهرت تجارة الهيروين وازداد عدد المدمنين المسجلين في الباكستان من بضع مئات في ١٩٧٧ إلى بضعة ملايين في ١٩٨٧. (أحد البنوك التى كانت مافيا الهيروين تغسل نقودها فيه هو بنك BCCI الذى كان أحد أهم مسئولى العلاقات العامة فيه في الخارج موظفا مدنيا متقاعدا اسمه الطاف جوهار).

أما بالنسبة لباكستان وشعبها فقد كانا يعيشان معاناة شديدة. خلال فترة حكم ضياء، كانت الدولة ترعى الجماعة الإسلامية التى لم تكن تستطيع الحصول على ٥٪ من أصوات الناخبين في أى مكان في البلاد. وكان قادتها يرسلون للقتال في أفغانستان وكان جناحها الطلابى يشجع لإرهاب الجامعات باسم الإسلام، وكانت أيديولوجيتهم حاضرة أبدا في التليفزيون المحلى. كما شجعت أجهزة الاستخبارات الداخلية أيضا تشكيل جماعات جهادية متطرفة أخرى كانت تنفذ أعمالا إرهابية في الوطن وفي خارجه وتقيم المدارس الإسلامية في كل أنحاء المحافظات الحدودية. وفجأة احتاج ضياء أن يؤسس حزبه السياسى الخاص به وكان له ما آراد: الرابطة الإسلامية.

ومع تصعيد ميخائيل جورباتشوف في مارس ١٩٨٥ أصبح واضحا أن الاتحاد السوفيتى سوف يقبل الهزيمة في أفغانستان ويسحب قواته. كان يريد

بعض الضمانات للأفغان الذين يتركهم وراءه. وكانت الولايات المتحدة وقد أنهت مهمتها بنجاح -على استعداد لأن تلعب هذا الدور. ولكن الجنرال ضياء على أية حال لم يكن بنفس الاستعداد. فقد صعدت الحرب الأفغانية إلى رأسه (كما حدث مع أسامة بن لادن ورفاقه) وأراد أن ينصب جماعاته هناك. وحين اقترب انسحاب السوفييت، كان ضياء والاستخبارات العسكرية يخططون لما بعد التسوية.

ثم اختفى ضياء. في ١٧ أغسطس ١٩٨٨ أخذ معه خمسة جنرالات إلى حضور تجريب دبابة أمريكية نوع ابرامز M١-A/١٠-١ في ميدان اختبار قرب باهاوالبور. كان حاضرا أيضا جنرال أمريكي والسفير الأمريكي أرنولد رافايل. لم تكن التجربة ناجحة وكان الكل منزعجا. عرض ضياء على الأمريكيين نقلهم في طائرته الخاصة نوع سي ١٣٠ وفيها كابينة محصنة لحمايته من الاغتيال. بعد عدة دقائق من انطلاق الطائرة فقد الملاحون سيطرتهم عليها وتحطمت في الصحراء. وقد قتل جميع الركاب. وكل ما تخلف عن ضياء كان عظم الفك الذي دفن فيما بعد في إسلام أباد (الطريق غير المباشر القريب من المقبرة أصبح يعرف في أوساط سائقي التاكسي هناك باسم «طريق عظم الفك»). ظل سبب تحطم الطائرة سرا. ويحوي الأرشيف القومي الأمريكي ٢٥٠ صفحة من الوثائق ولكنها جميعا سرية. وقد أخبرني خبراء استخبارات باكستانية بشكل غير رسمي بأن هذا من عمل الروس الذين ثأروا لأنفسهم.. ولكن معظم الباكستانيين يضعون اللوم على وكالة المخابرات المركزية كالعادة. أما ابن ضياء وأرملته فقد كانا يهمسان بأن الفاعلين هم «من داخل جيشنا».

باغتيال ضياء انتهت المرحلة الثانية من حكم العسكر في باكستان. ما تبعها كان تمهيدا مدنيا مطولا يسبق حكم مشرف. فعلى امتداد عشر سنوات كان أعضاء من السلالتين السياسيتين: آل بوتو وآل شريف يحكمون البلاد بالتبادل. وكان وزير الداخلية في







حكومة بنازير بوتو الجنرال نصير الله بابار هو الذي وضع - بالتعاون مع الاستخبارات العسكرية خطة لإنشاء طالبان كقوة سياسية عسكرية يمكن أن تخترق أفغانستان، وهو تحرك ساندته السفارة الأمريكية بغير حماس. كانت واشنطن قد فقدت اهتمامها بأفغانستان وباكستان حالما انسحب السوفييت. وكان الطالبان (الطلبة) من أطفال اللاجئين الأفغان وعائلات باثان الفقيرة وقد تعلموا في المدارس الإسلامية في الثمانينيات: كانوا يشكلون نواة القوات ولكن يقودهم مجموعة من المجاهدين ذوي الخبرة أمثال ملا عمر وبدون مساعدة باكستان لم يكونوا يستطيعون السيطرة على كابول: مع أن الملا عمر كان يفضل أن ينسى هذا. كان فصيل عمر هو المسيطر ولكن الاستخبارات العسكرية الباكستانية لم تفقد السيطرة كليا على المنظمة. احتفظت إسلام أباد بهدوئها حتى حين أراد أنصار عمر أن يؤكدوا استقلاليتهم بمهاجمة السفارة الباكستانية في كابول وقاطعت شرطته الدينية مباراة كرة قدم بين البلدين لأن اللاعبين الباكستانيين كانوا بشعور طويلة وشورتات قصيرة، وقد ضربوا اللاعبين بالعصي أمام الجمهور المصعوق وطردوهم إلى بيوتهم.

بعد سقوط بنازير: عاد الأخوان شريف إلى السلطة، ومرة أخرى قبل شاهباز وهو الشقيق الأصغر والأكثر ذكاء قرار العائلة وأصبح نواز رئيسا للوزراء. في ١٩٩٨ قرر شريف أن يجعل برويز مشرف رئيس أركان الجيش مفضلا إياه على الجنرال الأكبر رتبة علي كولي خان (الذي كان معي في الكلية في لاهور). وربما كانت أسباب شريف أن مشرف وهو من خلفية لاجئين من الطبقة المتوسطة مثله، سيكون طوع يمينه أكثر من علي كولي الذي ينحدر من عائلة إقطاعية من باثان على الحدود الشمالية الغربية للباكستان. ومهما كانت الأسباب فقد اتضح أنها كانت خاطئة.

بناء على حث بيل كلينتون، دفع شريف باتجاه تحسين العلاقات مع الهند. تم التفاوض على اتفاقيات سفر وتجارة وفتحت الحدود البرية واستؤنف الطيران ولكن قبل الوصول إلى المرحلة الثانية: ابتدأ الجيش الباكستاني بالاحتشاد في سفوح الهيمالايا. ادعت الاستخبارات العسكرية الباكستانية أن الهنود احتلوا نهر جليد سياخين في كشمير احتلالا غير شرعي والهنود ادعوا العكس. وبعد المعركة التي اشتعلت بين الطرفين لم يستطع أحدهما ادعاء النصر ولكن الإصابات كانت مرتفعة خاصة في الجانب الهندي (وقد ضخم مشرف من نصر باكستان) وتم الاتفاق على وقف إطلاق النار وعاد كل جيش إلى داخل حدوده.

لماذا نشبت الحرب في المقام الأول؟ في المجالس الخاصة كان الأخوان شريف يبلغون حلفاءهما بأن الجيش كان يعارض سياسة الصداقة مع الهند وكان مصرا على تخريب العملية: لقد تصرف الجيش بدون إذن الحكومة. وفي مذكراته يصر مشرف على أن الجيش كان يطلع رئيس الوزراء في تقارير شهر يناير وفبراير ١٩٩٩. مهما كانت الحقيقة فإن شريف أبلغ واشنطن بأنه حُشر في حرب لم يسع إليها، وبعد الحرب بوقت قصير قررت عائلة شريف التخلص من مشرف. حسب الدستور يملك رئيس الوزراء سلطة طرد رئيس أركان الجيش وتعيين بديل له كما فعل ذو الفقار علي بوتو في السبعينيات حين عين ضياء. ولكن الجيش حينذاك كان ضعيفا ومنقسما ومهزوما، وهذا لم يكن بالتأكيد الوضع في عام ١٩٩٩م.

كان مرشح شريف لخلافة مشرف الجنرال ضياء الدين بوت رئيس الاستخبارات العسكرية الذي كان معروفا بفساده وعدم كفاءته. وقد أسرع بإرساله إلى واشنطن لفحصه وبيان قدرته، وبينما هو هناك يقال إنه تعهد بتقديم رأس بن لادن على طبق. لو كان شريف قد طرد مشرف كان سيجد فرصة أفضل للنجاح ولكن ما كان يفتقده من حكمة كان أخوه يصلحه بالحيلة. هل كان الأخوان شريف من الغباء حقا إلى حد الظن بأن الجيش لم يكن على دراية بخططهما، أم فقدا البوصلة بسبب إيمانهما الأعمى بأن أمريكا هي القوة الوحيدة في الكون؟ وقد حذر كلينتون الجيش بأن واشنطن لن تقبل بانقلاب عسكري في الباكستان وأتذكر أني فكرت في وقتها أن هذه سابقة في العلاقات الأمريكية الباكستانية. كان شريف يعتمد اعتمادا كليا على تحذير كلينتون.

ماحدث بعد ذلك كان مأساة ملهاة وصفت وصفا معبرا في كتاب مشرف. كان هو وزوجته يعودان بطائرة ركاب عادية من سريلانكا حين تسلم الطيار تعليمات بعدم الهبوط. وفيما كانت الطائرة تحوم فوق كراتشي، استدعى نواز شريف الجنرال بوت وأمام طاقم تليفزيوني حلفه باعتباره رئيسا جديدا للأركان. في هذه الأثناء كان هناك ذعر في طائرة مشرف والوقود على وشك النفاد. استطاع أن يتصل بقائد حامية كراتشي: وهكذا سيطر الجيش على المطار وهبطت الطائرة بسلام. وفي نفس الوقت أحاطت وحدات عسكرية بمنزل رئيس الوزراء في إسلام أباد واعتقلت نواز شريف. لقد أغتيل ضياء في طائرة عسكرية ومشرف استولى على السلطة في طائرة مدنية.

هكذا بدأت المرحلة الثالثة الممتدة من حكم العسكر في باكستان والتي هلل لها كل







معارضي نواز شريف السياسيين والكثير عن رفاقه. في (خط النار) يسرد القصة الرسمية لما كان يحدث في باكستان خلال السنوات الست الماضية وهو موجه للقارئ الغربي. وبينما حشر ألطاف جوهار هراء من كل نوع في مذكرات أيوب، قام ابنه همايون جوهار الذي صحح هذا الكتاب بتجنب الفخاخ الأكثر وضوحا. على سبيل المثال، تم تقليل أثر أسلوب حياة الجنرال الخليعة ولكن ظلت هناك تلميحات في الكتاب تبين أنه كان رجلا لا تردعه عن غيه التزامات دينية أو اجتماعية.

كان شرحه لطرق تسوية الثارات مع أعدائه فظا ولهذا السبب تسبب الكتاب بضجة في باكستان. وثارت في وسائل الإعلام مجادلات ساخنة وهو شيء لم يكن ليحدث خلال الفترات السابقة من حكم العسكر. وقد صدر نقد شديد من جنرالات سابقين (نشرت معظم الصحف رد علي كولي خان) وسياسيين معارضين وشخصيات من كل نوع. في الواقع أن تدخل الدولة في الإعلام خلال حكم نواز شريف كان أكبر مما هو تحت حكم مشرف ومستوى الجدل كان أكثر مما في الهند حيث يستحوذ على الطبقة المتوسطة هوس التسوق ومتابعة المشهورين من النجوم وقد أدى كل ذلك إلى تركيز التليفزيون ومعظم الإعلام المطبوع على التافه والهامشي من الأمور.

حين استولى مشرف على السلطة في ١٩٩٩، رفض أن يغير سكنه مفضلا منزله المبني على الطراز الكولونيالي في راوالبندي، على الرفاهية المريحة في دار الرئاسة في إسلام أباد. بأثاثها المذهب وديكورها الشنيع الذي يذكر ببذخ دولة خليجية أكثر منه بالتراث المحلي. والمدينتان قريبتان من بعضهما البعض ولكنهما مختلفتان تماما. إسلام أباد المصممة مثل شبكة مربعات تحيطها سفوح الهيمالايا، بناها الجنرال أيوب في الستينيات. كان يريد عاصمة جديدة بعيدة عن الازدحام المخيف ولكن قريبة من مركز الحكومة في راولبندي التي بناها البريطانيون كمدينة حامية. بعد الانفصال، أصبحت المكان الملائم لتكون مقرا للجيش في باكستان الجديدة.

كانت خطة إحدى الحملات الاستعمارية البريطانية في القرن التاسع عشر لغزو أفغانستان (وكلها انتهت بكوارث) قد رسمت في راولبندي. ومن هناك أيضا، بعد قرن ونصف، انطلق الجهاد بمباركة أمريكية ضد الشيوعيين الأفغان. وهناك أيضا نوقشت مطالب الولايات المتحدة باستخدام باكستان كقاعدة لعملياتها في أفغانستان وتمت الموافقة في سبتمبر ٢٠٠١. كان هذا قرارا حاسما لقادة الجيش لأنه يعني تفكيك نصرهم الخارجي الوحيد: إيصال طالبان إلى السلطة في كابول.

ازدحام المرور يجعل من الأميال العشرة من إسلام أباد إلى راولبندي رحلة عذاب. إلا إذا كنت الرئيس فيخلى لك الطريق لتأمين مرورك. وحتى عندئذ كما يكشف الكتاب ببعض التفاصيل، يمكن أن تربك محاولات الاغتيال جدول الرئيس. أولاها حدثت في ١٤ ديسمبر ٢٠٠٣. بعد لحظات من مرور موكب الجنرال على جسر، انفجرت قنبلة قوية وأحدثت أضرارا كبيرة بالجسر، ولكن لا إصابات بشرية. وقد أنقذت حياة مشرف السيارة الليموزين المجهزة برادار ومضادات للقنابل، وكانت هدية من البنتاجون. وكان ثباته في ذلك الوقت قد أدهش المراقبين. حيث ظل هادئا ومرحا ينقى تلميحات هازلة حول العيش في زمن خطر. ولا عجب كانت استعدادات الأمن عالية.. مواكب زائفة وتغيير الطرق في آخر لحظة.. إلخ - ولكن هذا لم يمنع محاولة أخرى بعد أسبوع في يوم الكريسماس. هذه المرة كاد رجلان يقودان سيارتين محملتين بالمتفجرات أن ينجحا. أصيبت سيارة الرئيس بأضرار وقتل الحرس المرافقون له ولكن مشرف لم يصب بأذى. وبما أن طريقه المحدد وتوقيت مغادرته إسلام أباد كانت أمورا بالغة السرية فلابد أن الإرهابيين كانت لديهم معلومات من الداخل. إذا كانت أجهزة حمايتك تضم إسلاميين غاضبين يرونك خائنا ويريدون تفجيرك، إذن، كما يقول الجنرال في مذكراته، لن يحميك إلا الله. وكان الله به رحيما.

تم التعرف على الجناة وعذبوا حتى كشفوا تفاصيل المؤامرة التي تورط فيها بعض ضباط الجيش الصغار. وقد حوكم هؤلاء في السر وأعدموا. والرأس المدبر المفترض كان متطرفا جهاديا اسمه أمجد فاروقي وقد قتلته قوات الأمن.

ولكن ظل سؤالان يدوران في أذهان المعنيين في واشنطن ورفاق مشرف: كم من المتورطين لم يكتشفوا بعد وهل سينجو هيكل القيادة العسكرية إذا نجح إرهابي في المرة القادمة؟ لا يبدو مشرف قلقا، بل يتبنى نبرة واثقة وحتى مكابرة. قبل ٩/١١ كان يعامل في الخارج كأنه منبوذ وفي الداخل كان مخنوقا بالمشاكل. كيف يمكن تقوية إرادة قيادة عليا يضعفها التقي والفساد؟ كيف يمكن التعامل مع الفساد والاختلاسات التي أصبحت معلما من معالم حكومتي شريف وبوتو؟ كانت بنازير بوتو قد اختارت منفى في دبي واعتقل الأخوان شريف. وقبل توجيه الاتهام إليهما رتبت واشنطن عرضا للجوء إلى السعودية.

كان الدعم اللامحدود الذي وفره مشرف للولايات المتحدة بعد ٩/١١ سببا في أن يطلق عليه الساخرون من الباكستانيين اسم «بوشرف» بدلا من مشرف (إشارة إلى علاقته بالرئيس «بوش»). (في مارس ٢٠٠٥ وصفت كونداليزا رايس العلاقة الأمريكية الباكستانية منذ ٩/١١ بأنها «عريضة وعميقة»). ألم يسع إلى إحباط نصر باكستان العسكري الوحيد من أجل إرضاء واشنطن؟ كان الجنرال محمود أحمد الذي يرأس جهاز الاستخبارات العسكرية ضيفا على البنتاجون، ساعيا إلى إقناع وكالة الاستخبارات العسكرية بأن ملا عمر كان شخصا طيبا ويمكن إقناعه بنبذ أسامة، بعد حدوث هجمات ١١ سبتمبر. ولا يدهشنا أن المستمعين إليه أصيبوا بالصدمة. ويخبرنا مشرف بأنه وافق أن يتعاون مع واشنطن لأن نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج هدد بقصف باكستان وإعادتها إلى العصور الحجرية إذا لم يفعل ذلك. ولكن ما كان يقلق إسلام أباد حقا هو تهديد لم يذكره مشرف، كان مفاده أنه إذا رفضت باكستان التعاون فستلجأ الولايات المتحدة إلى استخدام القواعد الهندية.

مشرف كان في الأساس محبوبا في باكستان ولو كان قد قام بالإصلاحات الهادفة إلى توفير التعليم (على أن تكون الإنجليزية لغة ثانية إلزامية) لكل الأطفال، وتشريع إصلاح الأراضي كان سوف ينهي سيطرة الإقطاعيين على أراض شاسعة في الريف. ولو كان قد عالج الفساد في القوات المسلحة وفي كل مكان آخر وأنهى حروب الجهاديين

معظم الباكستانيين يضعون اللوم على وكالة المخابرات المركزية كالعادة. أما ابن ضياء وأرملته فقد كانا يهمسان بأن الفاعلين هم «من داخل جيشنا»

فى كشمير وباكستان كمقدمة لصفقة طويلة المدى مع الهند، إذن لاستطاع أن يترك علامة على البلاد. بدلا من ذلك قلد أسلافه العسكريين. فعلى شاكلتهم، خلع زيه العسكرى وبدأ يحضر اجتماعات منظمة فى السند ودخل السياسة. حزبه؟ الرابطة الإسلامية الحاضرة دائما وأبدا. أنصاره؟ تتف من نفس القطاعات الفاسدة القديمة التى حاربها بضراوة والتى طارد قادتها. رئيس وزرائه؟ شوكت عزيز الملقب بـ «اختصار الطريق» (اللعب على كلمتى شوكت وشورتكت (Shortcut) ـ المترجمة)، وكان سابقا مديرا لسيتى بنك وله صلات حميمة مع ثامن أغنى رجل فى العالم الأمير السعودى الوليد بن طلال. وفيما أصبح واضحا أن لا شىء فى طريقه للتغيير غلفت البلاد غمامة من الشكوك واليأس.

يعتبر مشرف أفضل من ضياء وأيوب فى عدة جوانب، ولكن جماعات حقوق الإنسان لاحظت ارتفاعا حادا فى عدد حالات «اختفاء» الناشطين السياسيين: أربعمائة فقط فى هذه السنة يضمنهم القوميون السنديون وإجمالى ١٢٠٠ فى محافظة بلوشستان حيث يضع الجيش يده على الزناد فى كل مناسبة. لقد وفرت الحرب على الإرهاب الفرصة للكثير من القادة للتخلص من معارضيهم ولكن هذا لم يساعد على تحسين الأوضاع.

فى كتابه يعبر مشرف عن نفوره من المتطرفين المتدينين ويندم على جريمة قتل دانيال بيرل. ويشير إلى أن أحد المسئولين عن ذلك وهو الطالب السابق فى كلية لندن للاقتصاد عمر سعيد شيخ، كان عميلا لجهاز المخابرات البريطانى MI6 وقد أرسل لقتال الصرب فى البوسنة. كما أرسل مقاتلى القاعدة إلى هناك أيضا (مع موافقة أمريكية) وقد أقام شيخ صلات معهم وأصبح عميلا مزدوجا. الآن يجلس شيخ بانتظار الإعدام فى سجن باكستانى ويتحدث بود مع حراسه ويراسل بالبريد الالكترونى رؤساء الصحف فى باكستان مهددا أنه إذا أعدم سيتم نشر أوراق تركها خلفه لفضح تواطؤ الآخرين. قد تكون هذه خدعة أو ربما يكون عميلا مثلثا يعمل مع جهاز الاستخبارات الباكستانى أيضا.

فى العام القادم ستجرى انتخابات وهناك شائعات تقول إن مشرف سوف يعرض على حزب الشعب الذى ترأسه بنازير بوتو صفقة تستثنيها. قبل عدة سنوات شوهدت فى فوجى بوتوم تنتظر وحيدة فى مكتب جنوب آسيا للالتقاء بموظف صغير فى وزارة الخارجية لمناشدته الدعم الأمريكى. كلما كانت تريده هو منصب وزارى فى حكومة مشرف حتى تظل حاضرة فى المشهد السياسى. مشرف أضعف الآن وقد تقرر بنازير أن تلعب معه فى هذا الوقت انتظارا لشىء أفضل.

ثم هناك أفغانستان، فرغم التفاؤل المزيف الذى يبديه بلير وزملاؤه فى الناتو فالكل يعلم أن هناك فوضى شاملة. لقد انبعثت طالبان مرة أخرى وهى تكتسب شعبية بمقاومة الاحتلال ومروحيات الناتو وجنوده يقتلون المئات من المدنيين زاعمين أنهم «مقاتلو طالبان». حميد كرزاى الرجل الذى يرتدى التيلان الجميلة، ينظر إليه كعميل بلا حول أو قوة يعتمد اعتمادا كليا على قوات الناتو. وقد استعدى كلا من البشتون الذين يتحركون باتجاه طالبان مرة أخرى بأعداد كبيرة، وأمراء الحرب من التحالف الشمالى الذين يرفضونه علنا ويطالبون بأن الوقت قد حان لإعادته إلى الولايات المتحدة. فى أفغانستان الغربية ساعد التأثير الإيرانى فى الحفاظ على درجة من الاستقرار. إذا دُفع أحمدى نجاد لسحب دعمه فإن كرزاى لن يستمر أكثر من أسبوع. إسلام آباد تنتظر وتراقب. والاستراتيجيون العسكريون على قناعة بأن الولايات المتحدة فقدت اهتمامها وأن الناتو سيغادر قريبا. إذا حدث ذلك فلن تسمح الباكستان لتحالف الشمال أن يستولى على كابول. سيتحرك جيشها للتدخل مرة أخرى. لقد قال لى عسكرى باكستانى سابق اشترك فى حروب الأفغان هازلا: «آخر مرة أرسلنا اللحى، ولكن الزمن تغير. هذه المرة إن شاء الله سوف نلبسهم جميعا بدلات ماركة ارمانى تناسب الظهور على شاشات التليفزيون، ويظل الضباب يغلف المنطقة. كانت نهاية أول قائد عسكرى باكستانى بانتفاضة شعبية والثانى بالاغتيال فكيف تكون نهاية مشرف؟ ■

كتاب الزاوية

حياة الرافعى

محمد سعيد العريان

تلاميذه ومحبوه يقولون عنه إنه من أكبر الأدباء العرب فى كل العصور وهو من أكبر الشخصيات الأدبية العربية فى القرن العشرين. إنه مصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) الكاتب والشاعر والأديب والمؤرخ الذى استطاع خلال فترة حياته الأدبية التى تربو على خمس وثلاثين سنة إنتاج مجموعة كبيرة ومهمة من دواوين الشعر والكتب التى أصبحت علامات فى تاريخ الأدب العربى. وقد كان الرافعى شاعراً مطبوعًا بدأ قرض الشعر وهو فى العشرين. ومن أشهر دواوينه النظرات ومن كتبه: «تحت راية القرآن»، «وحى القلم»، «تاريخ الأدب العربى»، «تاريخ آداب العرب»، «حديث القمر»، «رسائل الأحزان»، «السحاب الأحمر».

وقد دخل الرافعى فى معارك أدبية شهيرة بدأها بالمنفلوطى، ثم مع طه حسين والعقاد وزكى مبارك. وكانت المعركة مع العقاد هى أشهر وأقسى ما فى العربية من معارك. وللرافعى فيها كتاب «على السفود» الشهير.

وقد ألف كتاب حياة الرافعى تلميذه وصديقه الحميم محمد سعيد العريان «١٩٠٥ ـ ١٩٦٤» وقدم له العلامة محمود محمد شاكر. وأعادت الهيئة العامة لقصور الثقافة نشره ضمن سلسلة «ذاكرة الكتابة» عام ٢٠٠٤.

إيران بين الترويكا والدويكا!

مازن النجار

لا شك أن الثورة الإيرانية حدث متميز في تاريخ القرن الماضي. فقد أطاحت بنظام الشاه الذي كان رمزا عتيدا للقوة الإقليمية؛ بيد أنها لم تكتف باستبدال نظام جمهوري به فحسب، بل أقامت مكانه فكرة أو نظرية سياسية، ما زالت تهيمن بقوة وتفرض حضورها بفاعلية على المشهد الإيراني.

ورغم قلة الأفكار التي تتمكن من الوصول إلى السلطة أو الاستمرار فيها بدون الاضطرار إلى تحولات هامة لصالح توجهات أو شعارات أخرى، فقد صمدت نظرية «ولاية الفقيه» في وجه التحديات والمتغيرات واستمرت مهيمنة لأكثر من ربع قرن، منذ نهاية السبعينيات الماضية وحتى وقتنا الحاضر. خلال هذه الحقبة الطويلة، تغيرت صورة العالم الإسلامي من طنجة إلى جاكرتا: انقلبت أنظمة واختفت حكومات: فقد أعلنت الولايات المتحدة حربا عالمية ثالثة على «الإرهاب» عقب أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١؛ اختفى على أثرها نظام البعث في العراق ونظام طالبان في أفغانستان بفعل الغزو الأمريكي للقطرين، وأعادت معظم الأنظمة العربية النظر في أولوياتها وتحالفاتها واصطفافاتها. ولكن إيران تحت نظام «ولاية الفقيه» لم تنقلب رغم أنها هدف معلن لذلك من قبل واشنطن. وأنجزت تسعة انتخابات لرئاسة الجمهورية الإسلامية منذ قيامها. ولم تنكفئ طهران على ذاتها إقليميا، بل يزداد حضورها فاعلية ووزنا في المنطقة باعتبارها طرفا أساسيا فيها. تطرح هذه الدراسة لخلفيات وسيرورة وصيرورة نظرية «ولاية الفقيه» كما تتمثل في نظام الجمهورية الإسلامية، عددا من الأسئلة الرئيسة.

ما هي نظرية «ولاية الفقيه»؟ ما هو أساسها العقدي والفكري؟ كيف وصلت إلى الحكم؟ كيف استطاعت هذه النظرية تنحية أو تحييد الاتجاهات السياسية الإيرانية الأخرى كالليبرالية والقومية والماركسية؟ كيف أمكن انتقال قيادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية من مؤسسها، روح الله الخميني، إلى السيد علي خامنئي؟ ما هي الأسس الفكرية لخطاب الرئيس السابق السيد محمد خاتمي؟ ما حجم التأثير الذي تركه التيار الإصلاحي على البنى والتوازنات السياسية والاجتماعية في إيران؟ هل يمكن جسر التناقضات البنيوية في مفهوم ونظام «الجمهورية الإسلامية»؟ وماذا يخبئ المستقبل لإيران من تحديات؟

حدائق الأحزان: إيران وولاية الفقيه
مصطفى اللباد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٣١٩ ص



الخميني

تفرض هذه الأسئلة وغيرها نفسها على القارئ العربي رغم مرور عقود على تأسيس «الجمهورية الإسلامية الإيرانية» على أساس نظرية «ولاية الفقيه»، وحضور السياسة أو الموقف الإيراني في المنطقة بشكل يومي ومتداخل. وما زالت هذه النظرية بجوانبها التاريخية والعقدية والسياسية، تمثل لغزا لدى كثيرين في العالم العربي والإسلامي.

يشبه الكاتب البناء الفكري والعقدي لنظرية «ولاية الفقيه» بهندسة المنازل الإيرانية التقليدية؛ إذ يبدو كلاهما منغلقا على نفسه، ولكنه عمليا يقوم بدور المصفاة. ففي حين يستعصي النفاذ إلى واقع إيران السياسي دون الإلمام بمختلف جوانب «ولاية الفقيه»، ينبغي أولا اجتياز تلك الأروقة الطويلة التي تفصل الفضاءات الخارجية للمنزل الإيراني التقليدي عن فضاءاته الداخلية، قبل الولوج أخيرا، بتدرج وسلاسة، إلى مركز المنزل العابق بالأسرار والحرمات.

يحاول الكتاب الخروج من ثنائية «مع» أو «ضد» الطاغية على أغلب الكتابات السياسية، خاصة فيما يتعلق بإيران، لأن هذا النمط من الكتابات يصادر المطلوب منه سلفا، فضلا عن اختزال المعرفة في نطاق ضيق. لكن الكتاب يقدم أيضا أفكاره ورؤاه حول نظرية «ولاية الفقيه»، ويبذل جهدا للتعريف بأبرز الآراء حول الموضوع رغم أنها قد تصب في سياق «مع» أو «ضد». ويحاول المؤلف أن لا يخفي موقفه من نظرية «ولاية الفقيه» بوصفها أحد مفاتيح واقع إيران الحالي، وأساس نظامها وحجر زاويته. وفي وجه آخر، تعتبر نظرية «ولاية الفقيه» قضية فلسفية تتناول حياة الإنسان وعلاقته بالدولة والمجتمع.

اختار المؤلف «حدائق الأحزان» عنوانا لكتابه، نظرا لما تمثله حدائق إيران بتصميمها الفريد وعمارتها الخلابة، ولما يتركه حزن الإيرانيين الدائم في النفس من أثر عميق، ويبدو هذا الحزن ركنا أساسيا في وجدان المسلمين الشيعة عموما، والإيرانيين خصوصا. ولا تقتصر وظيفة الحدائق في إيران على إمتاع النفوس والأبصار، فهي في التراث الإيراني الشعبي أو ممارسات الإيرانيين الاعتيادية جزء من الحياة اليومية، فيها يستريحون ويتنزهون ويتناولون العشاء بليالي الصيف.

يتكون الكتاب من خمسة فصول تعالج مختلف مناحي نظرية «ولاية الفقيه». يتناول الفصل الأول الخلفيات التاريخية للتشيع مرورا بعلاقة الفقهاء بالدولة الإيرانية؛ بينما يهتم الفصل الثاني بمباني ومعاني «ولاية الفقيه»، وولادة النظرية ودور الإمام الخميني في تطوير مفهومها وبنيتها

**نظرية «ولاية الفقيه» بوصفها أحد مفاتيح واقع إيران الحالى، وأساس نظامها وحجر زاويته.
وفى وجه آخر، تعتبر نظرية «ولاية الفقيه» قضية فلسفية
تتناول حياة الإنسان وعلاقته بالدولة والمجتمع**

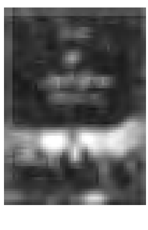
الفكرية. يتوقف الفصل الثالث عند مرحلة الوصول إلى السلطة والتطورات التى آلت إلى استبعاد التيارات الأخرى عن العملية السياسية وانفراد «ولاية الفقيه» بالسلطة فى إيران؛ فى حين يلقى الفصل الرابع الضوء على عملية انتقال السلطة بعد وفاة الإمام الخمينى إلى السيد على خامنئى وانعكاساتها على النظرية ذاتها وواقع إيران السياسى. ويتناول الفصل الخامس دور الرئيس السابق السيد محمد خاتمى فى تطوير الخطاب الدينى بإيران، وتغيير التوازنات السياسية هناك، مرورا بمفهوم «الجمهورية الإسلامية»، ثم أخيرا التحديات التى تواجهها.

الفقهاء والدولة فى إيران

منذ بدء الحقبة الصفوية، تداخلت الهوية الإيرانية والإسلامية الشيعية وامتزجتا معا حتى أصبح الوجدان الإيرانى خليطا فريدا من هذين العنصرين، فلا يمكن الحديث عن المسلمين الشيعة دون أن تستدعى صورة إيران إلى الأذهان، كما لا يمكن تناول إيران دون إبراز وجدانها الشيعى. أثرت هذه الحقيقة بشدة فى المهتمين بإيران من القديم، حتى أن المؤرخ المقريزى كان يعتقد بفارسية التشيع.

يتعرض الفصل الأول لعقائد المسلمين الشيعة، على أرضية موضوعية أساسها انتماء السنة والشيعة معا لحضارة الإسلام، وهو ما يقتضى التعريف بعقائد الشيعة، خاصة مع تعرضها أحيانا للتشويه المتعمد، حيث اختلط الأمر على كثير من المسلمين غير الشيعة. كما أن توحيد كلمة العالم الإسلامى يقتضى أن لا يتجاهل المسلمون السنة شطرا لا يستهان به من الأمة، هم الشيعة. ومن الصعب أن يحاول المرء الإبحار فى واقع إيران أو تاريخها دون التطرق إلى وجدانها الشيعى ومراحل تطوره بعد امتزاج الاثنين - إيران والتشيع- حتى صارا مزيجا متداخلا يصعب فصل مكوناته. وكما كانت الدولة الإيرانية القديمة مرتبطة برجال الدين، كان واقع إيران السياسى طوال تاريخها العريق، كالبحر فى حال مد وجزر بين الدولة ورجال الدين.

اصطلح على تسمية الفترة الواقعة من الغيبة الكبرى عام ٩٤٠/٩٤١ م وحتى عام ١٥٠١ م، حين أعلن الشاه إسماعيل الصفوى تشيع إيران رسميا، بأنها مرحلة الفقه الخاص وعلاقة المرجع بالمقلد دون ربط ذلك بالدولة ومؤسساتها. ومنذ بداية عصر «الغيبة الكبرى»، أصبح فقهاء الشيعة زعماء المذهب وقادة جماهير المؤمنين، واختصرت جماهير الشيعة الدين والدنيا فى الفقهاء، وكانت فتاواهم دستور المؤمنين فى عصر غيبة الإمام الثانى عشر ووكلائه الأربعة. واختص الفقهاء بشئون «المرجعية»، والإفتاء فى أمور الدين والدنيا، خصوصا فى غيبة الأئمة المعصومين، بحسبان الفقهاء وكلاء الأئمة. وعلى هذا الأساس، برز بين الفقهاء من عرفوا بالمراجع، وهم رجال الدين الأعلام الذين يرجع إليهم فى كل الأمور، ويقلدهم المؤمنون باعتبار أنهم وارثو أسرار وعلم الأئمة من آل البيت. فى عهد لاحق، أضيف إلى مستودع الوجدان الشيعى عبارة «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية»، وبذلك استطاع الفقهاء ترسيخ سلطتهم أكثر فأكثر لدى جماهير المؤمنين، بوصفهم سبيل معرفة إمام الزمان.



وكانت نسبة الخمس التى تقتطع من أرباح المؤمن الشيعى والمخصصة للفقهاء بمثابة الأساس المادى لنفوذ واستقلال الفقهاء. ومن الأخماس يوزع الفقهاء هذه الموارد على مستحقيها، ويصرفونها فى مصارفها الشرعية. وهكذا حفظ الخمس مكانة الفقهاء، وعززت استقلالهم عن السلطة الحاكمة، بل ومناهضة توجهاتها السياسية والاجتماعية إن لزم الأمر. ويلاحظ الرئيس السابق محمد خاتمى أنه «مازال الملتزمون دينيا حتى اليوم يدققون حساباتهم نهاية العام ويقصدون رجل الدين، فيقبلون يده ويقدمون له بطيب خاطر خمس أرباحهم، ولكن صاحب الحانوت نفسه الذى تنازل عن خمس ماله يحاول التهرب من دفع الضرائب الحكومية، ونعم ما فعل. فلم تكن الضرائب توظف لصالح الشعب. لقد كانت إتاوات يأخذها الأقوياء من الشعب».

صار المرجع، بفضل الخمس، رمزا للمذهب ومركزا لوحدة المنتمين إليه على اختلاف مطارح عيشهم. وتنوعت اهتمامات «دولة المؤسسة الدينية» بين الإفتاء فى أمور العبادات والمعاملات وتلقى الأخماس وإنفاقها فى مصارفها الشرعية، والإشراف على مؤسساتها الاجتماعية والرعوية، لتثبيت ولاء المؤمنين بصيغة «مرجع التقليد» الذى يحتكم المقلدون إليه فى أدق التفاصيل، لدرجة أن يقول الإمام الخمينى: «يبطل عمل العامى فى غير الضروريات، إذا صدر من غير تقليد».

جاء إعلان المذهب الشيعى الاثنى عشرى مذهبا رسميا للدولة الإيرانية فى القرن السادس عشر مواتيا للمؤسسة الدينية التى يقودها الفقهاء، فانتقلت نقلة نوعية كبيرة وأولى فى تاريخ التشيع. فقفزت مكانة المؤسسة الدينية نوعيا من «دولة متخيلة» أو «موازية» إلى دولة داخل الدولة بعد إعلان تشيع إيران على يد الصفويين.

لم يستطع الحاكم الصفوى أو القاجارى الاستقرار بدون مشروعية المؤسسة الدينية أو مباركة وتأييد الفقهاء. ورغم هذا التأييد، حرص الفقهاء وجماهير الشيعة على استقلالية جهازهم الاقتصادى- الاجتماعى عن تبعية الدولة، سواء الصفوية التى حالفوها أو القاجارية التى ناصبوها العداء. واستطاع الفقهاء تثبيت دورهم داخل الدولة الإيرانية على اختلاف الأسر الحاكمة. وبتعاظم المظالم والضغوط على المجتمع الإيرانى فى العهد القاجارى، دخل الفقهاء حلبة السياسة من باب الفتوى الدينية، لتكرس التحالف الوثيق الناشئ بين الفقهاء ورجال البازار، وكانت فتوى مرجع التقليد الأكبر آية الله الشيرازى بتحريم استعمال التبغ موجهة ضد المصالح الأجنبية المحتكرة لتبغ إيران، وبالتالى ضد مصالح الأسرة القاجارية الحاكمة، ومنحازة لرجال البازار الذين عانوا من أعباء الضرائب ومنافسة السلع الأجنبية نتيجة لخفض الجمارك عليها آنذاك.

شارك الفقهاء بدور رئيس فى الثورة الدستورية عام ١٩٠٦، والمعروفة بثورة «المشروطية» أى الدستور، وهدفت إلى تعيين حدود لصلاحيات الحكام وشرائطها وإقرار حقوق المواطنين القانونية. وتعد هذه الثورة هى النقلة النوعية الثالثة فى تاريخ علاقة الفقهاء بالدولة. تحققت النقلة الأولى بالخمس الذى يتلقاه المراجع من المقلدين واستقلال الفقهاء عن جهاز الدولة. وتحققت النقلة الثانية بتحالف الفقهاء مع الدولة الصفوية على قاعدة منحها مشروعية الحكم، وأنجزت النقلة الثالثة بنجاح الثورة الدستورية وتثبيت مكاسب الفقهاء فى الدستور الجديد.

عكست علاقة الفقهاء بالدولة الإيرانية فى عصر رضا شاه الأزمة العميقة التى عاشتها المؤسسة الدينية كنتيجة لعملية تحديث الدولة الإيرانية التى اعتمدها رضا شاه، والتى فككت إلى حد كبير التحالف بين الفقهاء والبازار، بطرق مختلفة منها استقطاب عدد كبير من الشرائح العليا والمتوسطة فى أجهزة الدولة. ومثل اتساع دور الدولة فى المجتمع وانخراطها فى حياة المواطنين خصما من الرصيد الاجتماعى لمؤسسة الفقهاء، التى لم تعد تمثل سندا اجتماعيا واقتصاديا هاما للجماهير، نظرا لقيام الدولة بذلك الدور. كما اصطفت الأحزاب السياسية إلى جانب رضا شاه بسبب توجهاته التحديثية ومحاولة الأحزاب الانخراط فيها مجاراة لنموذج الدولة العلمانية العصرية فى تركيا المجاورة.

فى عهد محمد رضا بهلوى، استمر الحضور الخافت نسبيا لرجال الدين، مقارنة بدورهم فى الثورة الدستورية، وانحصرت الحركة السياسية فى التيارات التحديثية والليبرالية واليسارية. وبرزت آنذاك حركة «فدائيان إسلام» بزعامة نواب صفوى، والتى اعتمدت العنف المسلح واغتيال رموز الدولة وسيلة للتغيير. ولا دليل واضحا على أن هذه الحركة كانت ذراعا للمؤسسة الدينية، بل ربما كان ظهورها مؤشرا على انزواء رجال الدين من الحياة السياسية وتضاؤل نفوذهم، رغم رعاية المرجع آية الله الكاشانى لصفوى ورفاقه عقب اغتيالهم رئيس الوزراء.

كان الدكتور محمد مصدق على رأس الجبهة الوطنية التى تكونت أواخر الأربعينيات من المثقفين والوطنيين الليبراليين. وأدت مطالبتها بتأميم النفط لاستقطاب الشارع الإيرانى، وانضم إليه الكاشانى، أحد أبرز رموز المؤسسة الدينية، تعبيرا عن احتجاجها على تهميش دورها فى المجتمع الإيرانى وقتذاك. لكنها كانت فى خلفية الحركة السياسية عندما تولى مصدق رئاسة عام ١٩٥١، وليس فى طليعتها كما كانت فى الثورة الدستورية عام ١٩٠٦.

تصاعدت المواجهة بين مصدق والشاه، وأفتت مجموعة كبيرة من رجال الدين بأن مصدق معاد للإسلام والشريعة، وانسحب الكاشانى

من تحالفه مع مصدق، وأعلن معارضته له، لوقوف كتلة مصدق البرلمانية ضد تولي الكاشاني لرئاسة البرلمان. وانسحب الفقهاء مؤقتا من العمل السياسي بعد انفراط تحالف مصدق مع الكاشاني، وساعد على الانسحاب موقف المرجع الأوحد آنذاك، آية الله البروجردي، المناهض لاشتغال الفقهاء بالسياسة. ونجح انقلاب دبرته المخابرات الأمريكية في صيف ١٩٥٣ في الإطاحة بحكومة مصدق، وعوقب بالسجن والنفي إلى قرية أحمد أباد بشمالي إيران، حيث قضى بقية حياته حزينا في «حديقة الأحزان» بمنزله هناك، حتى وفاته عام ١٩٦٧ .

في الستينيات، تصدى رجال الدين لثورة الشاه البيضاء متخذين عدة لافتات للمعارضة. وكان على رأس المحتجين الإمام الخميني، الذي حرض الشعب على الاحتجاج والتظاهر فيما يعرف بـ «ثورة ١٥ خرداد» التي صادفت ذكرى استشهاد الإمام الحسين بكربلاء. فتصاعدت التظاهرات وقتل فيها الآلاف. وأودع الخميني السجن. اجتمع عندئذ كبار مراجع الشيعة، وأعلنوا ترقية الخميني لدرجة آية الله العظمى؛ فاكتسب بذلك الحصانة التي تمنع سجن كبار المراجع احتراما لمقاماتهم الدينية. وتصاعد قمع جهاز السافاك للمعارضة، واستشهد تحت التعذيب في السجون آية الله سعيدي وآية الله غفري؛ لمعارضتهما النفوذ الأمريكي والإسرائيلي المتزايد في إيران آنذاك.

ومع تصاعد الرفض الشعبي والمواجهات بين الشعب وقوات الشاه كان صوت الخميني هو الأكثر راديكالية في معارضة الشاه، إذ كان رافضا لبرنامجه الاجتماعي الاقتصادي، وتبعيته للولايات المتحدة، وعلاقاته المستفزة بإسرائيل. استقطبت راديكالية الخميني شعبية متنامية بين الجماهير. وكان استدعاء الوجدان الشيعي في مواجهة الشاه أمضى أسلحة التيار الديني في الثورة. وأثبت تلاحق الأحداث ونجاح الثورة الشعبية التي أطاحت بالشاه أهمية الوجدان والثقافة في حياة الشعوب وخطأ تهميشهما لصالح السياسة أو الاقتصاد، رغم ارتباط مقدمات الثورة بالمصالح الاجتماعية لشرائحها الثائرة، وبالأجواء السياسية السائدة قبل الثورة.

نظرية «ولاية الفقيه»

هي نتاج لتطور الفقه الشيعي منذ اختفاء الأئمة المعصومين وحتى ظهور النظرية، ولم يبعثها الإمام الخميني من فراغ، بل سبقه علماء أصلوا لها واشتهروا بها. فقد انبرى فقهاء الشيعة منذ غيبة الإمام المهدي لتحليل النص الشرعي وسبر أغواره، وتطوير البحث الفقهي بما يبلور إطارا معرفيا للمذهب وترتيبا لأصوله وتفصيلا لفروعه. وابتكر فقهاء الشيعة مقولة النيابة عن الإمام، على الأقل، في تحصيل الخمس من المؤمنين، وغيرها. ولكن استمرت حالة التيه السياسي حتى ولدت فكرة «ولاية الفقيه».

فظهرت إرهاصات الفكرة في جبل عامل بلبنان، على يد محمد بن مكي الجزيني العاملي (ت ٨٧٦ هـ ١٤٧١/١٤٧٢م)، حيث وسع نطاق عمل الفقهاء وتأثيرهم في حياة المؤمنين. استند الجزيني على ما أسماه «نيابة الفقهاء العامة» عن الإمام المهدي المنتظر، وتشمل القضاء والحدود وإقامة صلاة الجمعة. وقدر الجزيني في كتابه «اللمعة الدمشقية» أن الفقيه هو «نائب الإمام»، وأصبح كتابه من أشهر الكتب، لدى المسلمين الشيعة، بعد اكتشاف أنه أساس نظرية «ولاية الفقيه». ورغم ذلك، لم يقترب الجزيني من فكرة الحكومة الإسلامية بقيادة الولي الفقيه، بل قصد تحسين أوضاع عصر الانتظار حتى عودة الإمام المهدي المنتظر. وأورد الكتاب لأول مرة تعبير «نائب الإمام» الذي أطلق على الخميني لدى عودته من المنفى وانتصار الثورة.

وبعد الجزيني بأربعة قرون، جاء الشيخ أحمد بن محمد مهدي نراقي كاشاني، وقبيل وفاته عام ١٢٤٨هـ، أخرج كتابه «عوائد الأيام في بيان قواعد الأحكام»، حيث طور أفكار الجزيني باتجاه توسيع صلاحيات الفقهاء، واستخدم مصطلح ولاية الفقيه لأول مرة في تاريخ الشيعة رافضا «التقية» و«عصر الانتظار». ودعا الشيخ نراقي لقيام الفقهاء بتولي زمام أمور الإدارة والحكم لجماهير الشيعة، رافضا نطاق صلاحيات الفقهاء الضيق. تبنى دعوة نراقي على الأساس الذي أرساه الجزيني قبل أربعة قرون، مع توسع في صلاحيات الفقهاء يتجاوز اجتهاد الجزيني.

ذهب نراقي في كتابه مدى أبعد، فقلد الفقهاء الإمامة الكبرى، وقال: «كل ما كان للرسول والإمام يؤول إلى الفقيه أيضا، إلا ما أخرجه الدليل من إجماع أو نص». تتلخص أطروحة نراقي في أمرين: أولهما أن للفقيه، في عصر الغيبة، حق الولاية في جميع الأمور التي كان النبي والأئمة يملكون ولايتها والتصرف بها إلا ما استثناه الدليل الشرعي؛ وثانيهما: حق الولاية للفقهاء في كل ما له ارتباط بدين ودنيا العباد. وتعرض نراقي لعشرة موارد في شؤون ولاية الفقهاء منها: الإفتاء وإقامة الحدود، والحسبة على أموال الأيتام والمجانين والغائبين، والتصرف في أموال المعصوم (الخمس). ثم بدأ الشيخ الأنصاري، تلميذ نراقي، من حيث انتهى شيخه، فأفتى ببطلان «عبادة تارك طريقة التقليد والاجتهاد»؛ مما يوجب على الشيعة تقليد المرجع الديني أو الفقيه في كل الأمور الحياتية والمذهبية. فتكرست عندئذ مرجعية الفقهاء ودورهم كنواب للإمام الغائب.

ثم جاء الإمام الخميني ليحمل راية فكرة «ولاية الفقيه» في الحوزة العلمية بمدينة قم، التي انتقل إليها مركز الثقل



صار المرجع، بفضل الخمس، رمزا للمذهب ومركزا لوحدة المنتمين إليه على اختلاف مطارح عيشهم. وتنوعت اهتمامات «دولة المؤسسة الدينية» بين الإفتاء في أمور العبادات والمعاملات

الفقهي في إيران من حوزة أصفهان قبل ذلك بنحو قرن تقريبا. وبعد نفي الخميني لخارج إيران، استقر الإمام في النجف الأشرف بالعراق، وهناك وجد الفرصة ليصوغ أفكاره حول «الحكومة الإسلامية»، والتي ستطيح بسلطة الشاه الدنيوية، وتقيم «الجمهورية الإسلامية» على أساس نظرية «ولاية الفقيه»؛ فتغير وجه هذه المنطقة من العالم.

ويمكن تقسيم اجتهادات أعلام الفقه الشيعي حول علاقة الدولة بالولاية إلى قسمين أساسيين تبعا لمصدر المشروعية. فهناك اجتهادات تنطلق من قاعدة المشروعية المباشرة من الله، ويقابلها اجتهادات ترتكز على مشروعية الأمة في حدود تعاليم الشرع الإسلامي.

تندرج تحت المشروعية الأولى أربعة اجتهادات. أولا: «ولاية الفقيه» في ظل حكم ملكي لحاكم مسلم، وأبرز من نادى بها العلامة المجلسي (ت ١٦٩٨م) في أواخر حكم الصفويين الذين سماهم «سلاطين الشيعة». ثانيا: الولاية العامة لجميع الفقهاء، وأبرز أعلامها الملا أحمد نراقي كاشاني، وآية الله بروجردي (ت ١٩٦١م)، وآية الله كلبايكاني (ت ١٩٩٣م)، ويذهبون إلى اختصاص الفقهاء عموما بالولاية، وليس فقيها واحدا فقط، أو حتى مجموعة محددة منهم، وينتمي لهذا الاجتهاد أغلب المراجع الشيعة في إيران وخارجها. ثالثا: ولاية مجلس المراجع أو شورى الفقهاء، ومن أبرز المنظرين لها آية الله السيد محمد الشيرازي (ت ٢٠٠١م). وتقتضي قيام مجموعة من المراجع الأكثر شعبية بمهام الولاية على أمور الناس الدينية دون استئثار فقيه واحد بالولاية على الأمة. رابعا: «ولاية الفقيه المطلقة»، ونادى بها الخميني، وحصرها في فقيه واحد حائز لشرائط معلومة.

وتندرج تحت المشروعية الثانية خمسة اجتهادات. أولا: «ولاية الفقيه» المقيدة بالانتخاب الشعبي، وعلم هذا الاتجاه آية الله حسين علي منتظري، وهو محاولة للحد من رقابة الولي الفقيه، وتقليص بعض صلاحياته التنفيذية. ثانيا: دولة مؤسسية تحت إشراف الفقهاء، وأبرز منظريها العلامة ميرزا حسين نائيني (ت ١٩٣٦م) الذي كان معارضا لانحياز بعض رجال الدين للاستبداد، ومؤيدا للثورة الدستورية. ثالثا: خلافة شعبية تحت رقابة المرجعية الدينية أو المرجعية الرشيدة، ومنظرها السيد محمد باقر الصدر (١٩٣٣-١٩٨٠م). وفيها حقوق الشعب السياسية مستقلة عن الفقهاء، بشرط ممارسة الأمة لخلافتها بالاستناد إلى الشورى وولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم على بعض. رابعا: دولة إسلامية منتخبة شعبيا، وهو اجتهاد لبناني المنبت أبرز رموزه الشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٩٧٩م)

والشيخ محمد مهدى شمس الدين (ت ٢٠٠١م) صاحب نظرية «ولاية الأمة على نفسها»، ويوفق بين ثوابت الشريعة ومفهوم الدولة بالمعنى القانوني الحديث. خامسا: الولاية المشتركة بالتفويض، ومنظرها الدكتور مهدى حائرى يزدى وهو ابن مرجع التقليد الأكبر الراحل آية الله عبدالكريم حائرى يزدى وصهر الإمام الخمينى، ويعتقد الدكتور حائرى يزدى أن «ولاية الفقيه المطلقة» لا أساس لها فى الفكر الشيعى، ويقدم رؤية لولاية الناس بعضهم على بعض، قائمة على أساس وكالة الناس للحاكم.

«ولاية الفقيه» عند الخمينى

ترتكز نظرية «ولاية الفقيه» للإمام الخمينى على كتابه «الحكومة الإسلامية»، وهو محاضرات ألقاها على طلاب الحوزة العلمية فى النجف الأشرف. يتكون الكتاب من قسمين: الأول «أدلة لزوم إقامة الحكومة» ويؤكد على ضرورة وجود المؤسسات التنفيذية إذ أن وجود القانون المدون وحده لا يكفى لإصلاح المجتمع بل يحتاج الأمر لسلطة تنفيذية؛ والثانى «حقيقة قوانين الإسلام وكيفيتها»، حيث ترتقى مرتبة «ولاية الفقيه» إلى مقام الفروض، وأن ولاية الأئمة هى ذاتها ولاية الفقيه العادل من حيث العموم والشمول، وأن وظيفتهما واحدة بالسلطة والولاية، رغم سمو منزلة الإمام «المعصوم» على منزلة الفقيه العادل.

تتلخص الفكرة الرئيسة فى الكتاب فى أن وظيفة السلطة التشريعية وهيئات سن القوانين هى مجرد التخطيط للوزارات والتشكيلات الحكومية المختلفة من خلال الأحكام الإسلامية، التى يكون الفقيه قيما ووصيا عليها وعلى تطبيقها. ورأى أن شروط الحاكمية التى وجدت فى صدر الإسلام إلى زمان الغيبة الكبرى للإمام المهدى قد جعلها الله لفترة الغيبة أيضا. وهى شرائط العلم بالشرع والعدالة، إضافة لخصال مطلوبة فى الحكام العادلين، على أن تكون ولاية الفقيه لكافة الأمور الدينية والدنيوية انعكاسا لأوامر إلهية. ويفرق الكتاب بين الولاية التشريعية للرسول والأئمة وبين الولاية التكوينية أو الاعتبارية للولى الفقيه، مسلما بأن الأخيرة لا نص عليها ولا عصمة لها.

لذلك، يمكن فهم أن النظرية باستدلالاتها وروحها لا يمكن تطبيقها إلا فى مجتمع غالبيته من الشيعة أولا، وأن تقبل هذه الغالبية بتفسير الشريعة الإلهية وفقا لمنظور الولى الفقيه ثانيا. وهذا يرجع مثلا أن مسألة تصدير الثورة غير ممكنة إلا إلى مجتمعات شيعية أو ذات غالبية شيعية، بسبب خصوصية العلاقة بين نظرية ولاية الفقيه والمذهب أو الفقه الشيعى ومراحل تطوره.

تستند نظرية «ولاية الفقيه المطلقة» فى حق الفقيه فى الحكم إلى تأويل البراهين الشرعية كالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية أو روايات الأئمة، أما أدلة «ولاية الفقيه المطلقة» فتقسم إلى نوعين: أدلة عقلية وأدلة نقلية. وهى تستند إلى أربعة أركان: أولها، طبيعة ونطاق الولاية فهى شاملة وضرورية ودائمة وعامة؛ وثانيها: النصابة، أى تنصيب الولى الفقيه معقود للفقهاء ولا يتم ذلك بواسطة الشعب مباشرة، وتستمد شرعيتها من الولاية التشريعية؛ وثالثها: الإطلاق، أى أن سلطة الولى الفقيه تمتد لكافة شئون الحكم، فلا سيادة أو صلاحية تخرج عن إطارها، وهو مصدر شرعية الدولة، لأن صلاحيات الولى الفقيه فى الحكم هى ذات صلاحيات الرسول والأئمة من بعده؛ ورابعها: الفقاهة، وهى أهم الشروط الواجبة فى الولى الفقيه لإدارة المجتمع، فالنظرية تفترض للفقه دورا أساسيا فى تشكيل المجتمع، ويمتلك الفقيه القدرة على إرشاد وقيادة المجتمعات.

يلاحظ المؤلف أن الاجتهادات الأخرى حول ولاية الفقيه كتقييدها بالانتخاب أو بالدستور أو الرقابة عليها أو جعلها جماعية، هى تنويعات أو استجابات لقضايا عملية وإشكاليات نظرية ناجمة عن طبيعة وأركان النظرية الأصلية. فقد اجتهد الفقهاء الشيعة للتوفيق بين السيادة الشعبية وأركان النظرية الأربعة.

لدى وصول طائرة الإمام الخمينى مطار طهران مطلع فبراير/شباط ١٩٧٩، جسد نزوله إلى أرض وطنه عائدا من المنفى، مع المجموعة المرافقة، مركز ثقل الطبقة السياسية الإيرانية لحظة انتصار الثورة. فالتيارات السياسية الإيرانية، من اليمين إلى اليسار، شاركت بقدر متفاوت فى الثورة. لكن شكل السلطة عقب سقوط الشاه تناغم مع التحالف الجديد بين الخمينى ورجاله والتيار القومى الليبرالى من جهة أخرى.

بعد أيام، دعا الإمام لمؤتمر صحفى بمصر إقامته، أكد فيه على اختيار الشعب زعيما له، وأعلن عن تشكيل حكومة مؤقتة بدلا من حكومة شهبور بختيار، وحدد مهامها بالإشراف على انتخابات مجلس تأسيسى ثم انتخاب برلمان وتنظيم استفتاء على قيام «الجمهورية الإسلامية»، واعتبر معارضة الحكومة الجديدة معارضة لحكم الإله. وفى اليوم نفسه، بعث بخطاب تكليف بتشكيل الحكومة إلى مهدى بازركان، متوخيا إنهاء الفوضى العامة الناجمة عن وجود حكومة شهبور بختيار فى السلطة. كان اختيار الخمينى لبازركان بسبب ماضى بازركان النضالى الإسلامى والوطنى وليس لانتمائه الحزبى فى الجبهة الوطنية. وباعتبار الخمينى أعلى سلطة فى البلاد بعد انتصار الثورة، فهو من يعين الحكومة ومن يحدد وظيفتها التى ستتوج بإعلان «الجمهورية الإسلامية».

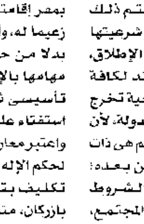
لم يكن الصراع على السلطة فى إيران بين أنصار ومعارضى ولاية الفقيه مقتصرا على السياسيين، بل كان أيضا داخل طبقة رجال الدين أنفسهم، وفى قمة هذه الطبقة أيضا داخل إيران وخارجها، فأحدث شرخا طوليا فى بناء المؤسسة الدينية، من مراجع التقليد وحتى طلبة الحوزات العلمية. فبعد عودة الإمام الخمينى منتصرا، أيد المراجع فى قم قيادته للثورة كدور سياسى، لكنهم - باستثناء آية الله منتظرى - عارضوا ولايته المطلقة كفقيه أو كمرجع تقليد أوحد. واستندوا فى معارضتهم لمبدأ «ولاية الفقيه المطلقة» إلى رؤيتهم العقدية القائلة بأن هذه الولاية جديرة بالإمام الغائب وحده. كما عارضوا الدستور الجديد، ورأى الأبرز فى المعارضة -آيات الله شريعتمدارى ومرعشى وكلبايكانى- أن إشراف الفقهاء على القضاء، على غرار تحالف الفقهاء والحركة الوطنية أبان «الثورة الدستورية» عام ١٩٠٦ كان لوصول الثورة إلى غاياتها.

على السطح، بدت معارضة مراجع التقليد للدستور المقترح كاختلاف طبيعى فى الاجتهاد التقليدى، لكن المعارضة تأسست فى العمق على مقاومة المراجع لتقليص صلاحياتهم إذا أصبح الإمام الخمينى قائدا للأمة الإيرانية دينيا وسياسيا، أو أن يصبح مرجعا أوحد مما يهمش حضورهم. وانتشرت معارضة مبدأ «ولاية الفقيه المطلقة» داخل الطبقة الدينية فى حياة الخمينى وتعددت مستوياتها داخل الحوزة؛ بل ذهب بعضهم، كالخوئى ومهدى حائرى يزدى، للقول بأن «ولاية الفقيه المطلقة لا أساس لها فى الفكر الشيعى».

وشأن كل الثورات، ظهر الصراع فى إيران الثورة بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة» فى مجال تسيير أمور الدولة. وبعد أسابيع من انتصار الثورة، ظهر مصطلح «الثورة الثقافية». وعلى نحو ما، كانت حكومة بازركان تمثل «أهل الخبرة» فى مواجهة «أهل الثقة» من رجال الإمام، مما رسخ المواجهة بينهما. وكانت هناك مواجهة أخرى بين رجال الدين ورجال السياسة للسيطرة على الدولة، ومواجهة ثالثة بين أنصار الدولة الدينية وبين أهل الكفاءة التكنوقراط.

فى ٢ أبريل/نيسان ١٩٧٩، أطل الإمام بطلعته المهيبة على الجماهير الإيرانية عبر التلفزة، وأعلن نتيجة الاستفتاء على «الجمهورية الإسلامية» وتأييد الإيرانيين لها بنسبة ٩٨ بالمائة، مدشنا قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وبذلك، قطعت نظرية «ولاية الفقيه» شوطا طويلا على طريق التنفيذ، ولم يتبق إلا التمكين لها، وإفساح المجال لتشكلها وظهورها.

كان مهدى بازركان مثقفا متدينا يؤمن بدور الدين فى رسم الأهداف الكبرى للسياسة، ولكن دون انخراطه فيها نهائيا، ويقول فى ذلك:



جاء الخمينى ليحمل راية فكرة «ولاية الفقيه» فى قم، وبعد نفيه لخارج إيران، استقر الإمام فى النجف الأشرف بالعراق، وهناك وجد الفرصة ليصوغ أفكاره حول «الحكومة الإسلامية»

ان الدين يحدد اصول السياسة ومبادئ وأهداف الحكم، لكنه لا يتدخل فى التفاصيل والجزئيات». فى الرابع من نوفمبر/تشرين الثانى، احتلت مجموعة من الطلبة الإيرانيين السفارة الأمريكية بطهران واتخذت العاملين فيها رهائن حتى تعيد واشنطن الشاه الهارب إلى إيران لمحاكمته وتعيد أموال البلاد التى هربها للخارج. استقالت حكومة بازركان لينتهى دورها فى دراما الثورة.

بعد أن أودت تفجيرات المنظمات المناوئة لنظام «ولاية الفقيه» بحياة بعض أهم الرموز المؤيدة للإمام، مثل مطهرى ومنتظرى الابن وباهنر ورجائى، أصبحت النواة الصلبة للنظام ولمؤيدى الإمام تتكون من: آية الله حسين على منتظرى وحجج الإسلام السيد على خامنئى (ثالث رؤساء الجمهورية) والشيخ هاشمى رفسنجانى (رئيس البرلمان) والسيد أحمد الخمينى (مساعد الإمام). وكان الصف الثانى يضم حجج الإسلام على مشكينى (رئيس مجلس الخبراء) وموسوى أردبيلى (رئيس القضاء) ومحمدى ريشهرى (وزير الأمن). لم يعد رجال الدين يتحكمون بالدولة عن بعد فحسب، بل شغلوا قمتها بأنفسهم.

وهكذا أحكمت نظرية «ولاية الفقيه» قبضتها على الدولة ومراكز القرار بإيران لأول مرة فى تاريخها، بعد تحييد المعارضين، ورغم تغييب بعض أهم الرموز المؤيدة للإمام.

خلافة الإمام

فى خضم الاحداث والأخطار، لم تفت الإمام والمؤيدين لنظرية «ولاية الفقيه» ضرورة تعيين خليفة للإمام، مما يرسخ النظرية واستمرار قيادة النظام على أساسها. لم تتوافر فى الحلقة المحيطة بالإمام شخصية تصلح لشغل منصب خليفة القائد سوى آية الله منتظرى، فهو آية الله الوحيد بينهم. بيد أن الخلافات التى لم تظهر حول قيادة الخمينى نظرا لوزنه السياسى ودوره التاريخى فى انتصار الثورة، ظهرت للعلن مع اختيار منتظرى لخلافة الإمام فى قيادة الجمهورية. فعمد المعارضون فى قم لخلافته لترويج فكرة القيادة الجماعية المنصوص عليها بدستور الجمهورية قبل تعديله، باعتبارها حلا وسطا بين تيارات متعارضة.

لكن رجال الإمام رأوا أن التهديد الخارجى لإيران لا يسمح بقيادة جماعية، بل قيادة فردية متأهل لها منتظرى الأقرب إلى فكر الإمام ونظرية «ولاية الفقيه». بدوره، رأى منتظرى الاحتكام للجماهير فى النزاع حول المرجعية قائلا: «ولاية أمر المسلمين يجب أن تكون بالانتخاب الشعبى». وهذا الرأى يعنى، رغم وجاهته، محاولة لحشد السياسة ورموزها فى طهران لحسم معارك فقهية تدور فى الحوزة العلمية بقم. لكن الأمور استقرت وقتها على توتر وحذر، مع بقاء منتظرى فى منصب خليفة الإمام.

استدعى قبول الإمام بقرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ القاضى بوقف إطلاق النار بين العراق وإيران بعد ثمانى سنوات من الحرب، اصطفافات جديدة على الجبهة الداخلية؛ فكان سكوت المدافع فاتحة لإعادة ترتيب المشهد الإيرانى من الداخل وعلاقات التوازن السياسى فى مرحلة ما بعد الحرب. لكن استمر تقسيم العمل بين رجال الإمام بعد نهاية الحرب. فآية الله منتظرى يرابط فى الحوزة للذود عن أفكار النظام، بينما يقوم حجتا الإسلام خامنئى ورفسنجانى بأدوارهما التنفيذية والتشريعية.

اختلفت أدوات وجبهات العمل لدى كل من ممثل خط الإمام فى قم ورجال الإمام فى طهران؛ وتضاربت بالتالى المصالح والأفكار. وقبل وفاة الإمام بشهرين، أطيح بمنتظرى من منصبه لأسباب عائلية محضة. فقد استخدم خصومه تحفظات على شخص السيد مهدى هاشمى، شقيق السيد محمد هاشمى، صهر منتظرى. وقدم مهدى هاشمى للمحاكمة بتهمة العمالة وأعدم إثر محاكمة سريعة. واستخدم ذلك لاحقا للنيل من مكانة منتظرى: وبالتالى تبرير ابعاده عن السلطة، باعتبار أن بطانته لم تعد فوق الشبهات.

وجاء إعفاء منتظرى من خلافة الإمام ليغير مسار تطور الدولة الإيرانية سياسيا ومذهبيا: فقد كان الإمام يملك المرجعية الدينية والثورية معا، وكان آية الله منتظرى أقرب رجاله لهذا التوصيف. فقد حاز كلاهما صلاحية الفتوى الدينية، أى صلاحية المرجع الدينى. وبعطف المرجعية السياسية على المرجعية الدينية، يكون موقع منتظرى هو الأقرب إلى مكانة الإمام الخمينى وشرائط الولى الفقيه. وبعزل منتظرى، بدأت مرحلة الفصل بين المرجعية السياسية والمرجعية الدينية، مما يضعف موقع خليفة الخمينى، خاصة فى الجانب الفقهى؛ لأن القائد السياسى القادم للجمهورية لن يكون هو المرجع الدينى، كما كان الخمينى.

أدى ذلك التغيير إلى أن يكون الإمام الخمينى هو أول وآخر مرشد للثورة يجمع، بلا منازع، بين المرجعيتين، وأن يرجح العامل السياسى على المذهبى بوضوح فى بنية وهياكل الدولة الإيرانية.

بعد رحيل الإمام، انعقد مجلس الخبراء لاختيار خليفة له. وكانت الأراء تتجه إلى تفكيك صلاحيات الولى الفقيه بعزل درجة مرجع التقليد (آيات الله العظام) عن ولاية أمر الجمهورية، أى فصل الولاية الروحية على المؤمنين عن الولاية السياسية على الجمهورية. وكان الإمام قبل وفاته بأسابيع قد أعلن أنه يكفى أن يكون المرشد مجتهدا، ذلك أنه منتخب من قبل الخبراء الذين انتخبهم الشعب أيضا، أى أن انتخاب الخبراء للمرشد نافذ لأنهم منتخبون من الشعب، وينوبون عنه فى اختيار المرشد.



شـأن كل الثورات، ظهر الصراع فى إيران الثورة بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة» فى مجال تسيير أمور الدولة. وبعد أسابيع من انتصار الثورة، ظهر مصطلح «الثورة الثقافية»

باختصار، استند مجلس الخبراء فى اختيار السيد على خامنئى إلى خمس ركائز: الفصل بين القيادة السياسية والمرجعية الدينية؛ تزكية الإمام لاختيار السيد خامنئى كما شهد رفسنجانى وأحمد الخمينى؛ مشروعيته الثورية وتاريخه النضالى؛ توافر شروط الدستور بعد تعديله قبل وفاة الإمام؛ والبيعة (العقد بين الأمة والحاكم). كذلك، يؤول البعض صحة اختيار السيد خامنئى بأن الولاية فى إطار نظرية «ولاية الفقيه» لا تنحصر بفقيه معين، ولكن إذا أجمع أهل الحل والعقد الذين ترتضيهم الأمة على فقيه دون غيره، يصبح هذا الفقيه الجامع لشرائط ولاية الأمر واجب الطاعة. وتكون بيعته واجبة بالتعيين أيضا على كل المسلمين لدى طلبها، وهى منعقدة له حال انتخاب مجلس الحل والعقد له.

قاد الثنائى (الدويكا) خامنئى ورفسنجانى إيران بعد رحيل الإمام، فأعادا بناء الاقتصاد بعد حرب مع العراق دامت ثمانى سنوات، وحافظا على موقع طهران كطرف رئيس فى المنطقة؛ وراوغا الضغوط الأمريكية، ونجحت تحالفاتهما الإقليمية والدولية فى إفراغ سياسة الاحتواء المزدوج الأمريكية من محتواها. جسد الثنائى مصالح ومواقع ضمن النظام الذى لم يجد صعوبة فى إعادة إنتاج السياسات ذاتها، لكن الصعوبة كانت فى تجديد نفسه. فنشأت فجوة بين جماهير الشباب التواقة للانفتاح والإصلاح وبين رموز النظام، مما جعل سد هذه الفجوة ضرورة مصيرية. وبحلول منتصف التسعينيات، كان جيل الشباب الذى لم يعاصر الثورة يمثل تحديا كبيرا للنظام نظرا لتفاوت منظومة القيم بين الأجيال إضافة إلى تطلعاتهم نحو الانفتاح، مما أوجد حاجة إلى رمز إصلاحى جديد. على هذه الخلفية، كانت الأرضية مهيأة لظهور رمز إصلاحى تلتقى حوله التيارات الإصلاحية والمعارضة، لتنفيس الاحتقان وإبقاء هذه التيارات فى مربع الجمهورية الإسلامية. وكان أن أجاز النظام ترشيح السيد محمد خاتمى لرئاسة الجمهورية.

فى ١٩٩٧، شهدت إيران الانتخابات الرئاسية السابعة التى جاءت بالسيد خاتمى إلى رئاسة الجمهورية، حيث أطلقت سياساته رياح القوى الإصلاحية، فعرت تلك القوى مكامن ضعف المجتمع وجددت حيويته أيضا. ويعود فوز خاتمى لبرنامجه الفضفاض، المرتكز داخليا على مفاهيم متطورة وجديدة، كالمجتمع المدنى ودولة المؤسسات وسيادة القانون؛ وخارجيا بالانفتاح على دول الجوار والعالم وحوار الحضارات. استقطب تحالف خاتمى الإصلاحى أصوات الشباب والمتشوقين لهذه القيم، وضم مختلف الألوان السياسية من القوى الليبرالية إلى يسار

الوسط، ومن تكنوقراط جهاز الدولة إلى التيار الديني المستنير، إضافة لقوى اليسار بأطيافه المتعددة. وتناغم كل ذلك مع مرجعية الثورة الإيرانية.

واجهت رئاسة خاتمي صعوبات مؤسسية متعددة. ورغم ذلك، أحرز النظام الإيراني نجاحات كبيرة إقليميا ودوليا، استنادا إلى التعددية والانفتاح اللذين مثلهما. وبرهنت رئاسته الأولى والتأييد الشعبي الجارف في النصف الأول من الرئاسة الثانية على أن موقع رئيس الجمهورية يمكن أن يتناغم مع وتيرة العمل السياسي، ويتضافر مع تيارات سياسية متباينة، لياخذ فعالية مجتمعية وسياسية تتخطى الإمكانات الدستورية المخولة لهذا المنصب. بيد أن مكمن القوة الأساسي يتمثل في خطاب خاتمي المتميز عن الخطاب الديني السائد قبله، بحيث يمكن القول -ببعض الاطمئنان- أن الخطاب الديني لخاتمي هو التجديد الأبرز في تاريخ الجمهورية الإسلامية.

وهكذا، شهدت إيران في فترة رئاسة خاتمي ثلاثي حكم (ترويكا)، يتكون من المرشد السيد خامنئي ورئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام الشيخ رفسنجاني ورئيس الجمهورية السيد خاتمي. وكان الأساس الموضوعي لدخول رئيس الجمهورية إلى الترويكا، هو تمثيله السياسي للتيارات الشعبية، ولكن دون أن يمثل مصالح اقتصادية بعينها أو شرائح اجتماعية محددة كحال شريكيه في الحكم. بل إن عدم وضوح التوجه الاقتصادي للإصلاحيين أفقدهم التأييد الجذري لشرائح اجتماعية بعينها، وجعلهم منبرا لمعارضة طوباوية أحيانا وتجمعا للناقمين على النظام أحيانا أخرى.

بدوره، وقف الرئيس خاتمي على أرضية الثورة الإسلامية، واستمد شرعيته منها، فهو السيد حجة الإسلام، والمحارب القديم دفاعا عن الثورة. ورغم أن التظاهرات والاحتجاجات كشفت عن فجوة بين إمكانات خاتمي الدستورية المحدودة وتطلعات المتظاهرين، كان خاتمي (الابن الشرعي للثورة) هو الفرصة الأخيرة للنظام السياسي الإيراني للانتقال بمنظومته القيمية من شرعية الثورة إلى شرعية الدولة.

انحدرت الأغلبية الإصلاحية في البرلمان إلى أقلية صغيرة منذ انتخابات ٢٠٠٤ النيابية، مقابل استفراد التيار المحافظ بالأغلبية. وتبدلت صورة المشهد السياسي أكثر في ضوء انتخابات ٢٠٠٥ الرئاسية، من أجنحة مختلفة داخل النظام إلى أحادية سياسية (يونيكا) محافظة تحت عباءة مرشد الجمهورية. اكتسب انتخاب محمود أحمدي نجاد لرئاسة الجمهورية أبعادا خاصة بسبب الانقلاب الذي أحدثه في التوازنات السياسية بين جناحي النظام الإيراني، المحافظين والإصلاحيين. فشهد النظام السياسي منذ الانتخابات الرئاسية انقلابا على توازناته، يتمثل في هيمنة تيار واحد على السياسة في إيران.

يلاحظ المؤلف أن توصيفات «المحافظين» و«الإصلاحيين» لا تنطبق دائما -بالضرورة- على تيارات إيران السياسية، لأنها تفتقر للدقة، ولا تتطابق باستمرار مع الواقع الموضوعي. وينطوي حصر التصنيف في معسكرين على تبسيط يتجاهل بروز تيارات أخرى، كالتيار القومي المتوزع بين المعسكرين؛ اللذين يموجان بتنوع داخلي مدهش، ولا يمثلان كيانا مصمتا سياسيا وأيديولوجيا. يضم معسكر المحافظين قسمين كبيرين: المحافظون التقليديون بزعامة المرشد السيد خامنئي، والمحافظون البراغماتيون بزعامة الشيخ رفسنجاني. وبين الكتلتين دارت المنافسة ليس في انتخابات الرئاسة فحسب، بل في تقاسم النفوذ والأدوار بمؤسسات الدولة.

ذهبت انتخابات ٢٠٠٤ البرلمانية بترويكا (خامنئي-رفسنجاني-خاتمي) لصالح دويكا (خامنئي، رفسنجاني)؛ ثم جاء فوز أحمدي نجاد بالرئاسة ليطيح بالدويكا لصالح يونيكا المرشد، لأن مجمع تشخيص مصلحة النظام الذي يترأسه رفسنجاني يختص بالفصل في المنازعات بين رئاسة الجمهورية والبرلمان. وبما أن الرئاسة والبرلمان أصبحتا في قبضة تيار المرشد، فالأرجح أن لا يجد رفسنجاني دورا هاما داخل المؤسسات الدستورية بعد الانتخابات.

تحديات المستقبل

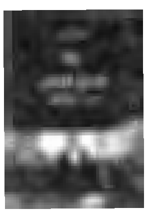
تواجه إيران أربعة تحديات رئيسة، تتوزع بين ضبط عمليات الحراك السياسي الداخلي؛ وتجديد النخبة الإيرانية وعلاقتها بتوازنات النظام السياسي؛ والتعامل مع مسألة القوميات؛ وأخيرا إثبات الحضور الإقليمي ومواجهة الأخطار الخارجية. ويتوقف مستقبل النظام على قدرته على التعامل مع هذه التحديات.

شهدت الجمهورية الإسلامية منذ قيامها تسعة انتخابات رئاسية وسبعة انتخابات برلمانية؛ أي أن الطابع الشعبي ركن أساسي لمشروعية نظام «ولاية الفقيه». وهي انتخابات تتمتع بنزاهة غير معتادة إقليميا. ويشهد الحراك السياسي الذي ساد خلال رئاستي خاتمي على حيوية المجتمع الإيراني. وربما كانت تجربة خاتمي الإصلاحية محصلة شروط خارجية وداخلية معقدة بمرحلة تاريخية معينة من عمر النظام، مما يدفع للاعتقاد بصعوبة تكرارها. وفي ظل سيطرة تحالف محافظ على مقاليد الحكم، لا يتوقع توسيع صلاحيات رئاسة الجمهورية مقابل صلاحيات الولي الفقيه لإحداث توازن بين المؤسسات، وهو توسيع يمثل شرطا أساسيا لتجذير النظام الإيراني ورفده بالقبول الشعبي الواسع.

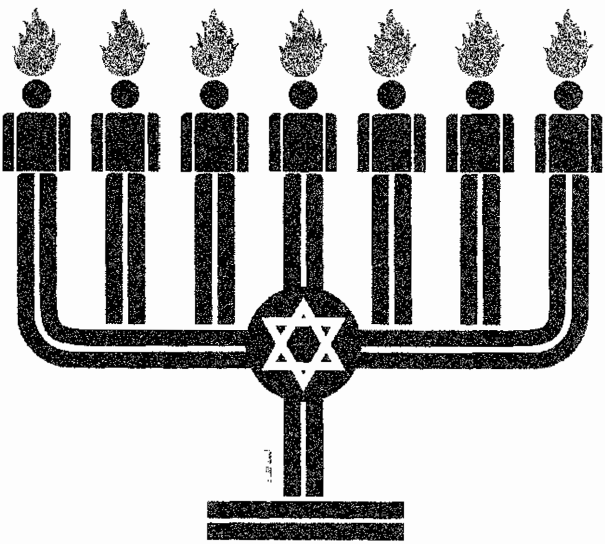
تميز النظام السياسي الإيراني بالوحدانية والتنوع معا. وبفضل وجود الأجنحة في قلب النظام، يراعي صنع القرار مصالح مختلفة ومتعددة؛ بما يجعله نقطة لتوازنات القوى، ويسبغ عليه طابعا جماعيا وشعبيا. وأضفى وجود الأجنحة حيوية على المشهد الإيراني، وحقق إعجابا خارج إيران بنظامها السياسي. وساد التنوع منذ انتصار الثورة، واستمر بوجود تيارات متباينة تحت عباءة الثورة، فأصبح قرينا للنظام الثوري الإيراني. ويمكن توقع تغيرات في توازنات النظام تؤدي لاختفاء «يونيكا» المرشد لصالح «دويكا» جديدة بين التيار المحافظ بقيادة المرشد والتيار الأصولي الذي يمثله أحمدي نجاد المتحالف مع قسم هام من رجال الدين بقيادة آية الله جنتي. والتحدي هنا ليس في قدرة النظام السياسي على تجديد نخبته، فقد أثبت قدرات معتبرة بهذا الصعيد، وإنما في قدرة النخبة الجديدة على تغيير التوازنات السياسية داخل النظام، بما لا يعرضه للاهتزاز أو يكشفه أمام الخارج.

المركزية قدر إيران منذ القديم، إذ كانت مهمة حفظ الأقاليم المختلفة جغرافيا والمتنوعة قوميا المهمة الأساس للدولة عبر العصور. وقد استغرقت دولة «ولاية الفقيه» في المركزية حتى فاقت سابقاتها، مما ساهم في بقاء أقاليم الدولة موحدة. والحقيقة أن للقوميات المكونة للشعب الإيراني حقوقا ثقافية وسياسية ما زالت تطالب بها، ولكن الدول المركزية متعددة الأعراق يسكنها أيضا هاجس التفتت مما يجعلها تتشدد في مسألة القوميات. بيد أن مفهوم «الهيمنة الفارسية» على إيران ليس صحيحا على إطلاقه. ويتوقع أن يزداد إلحاح مسألة القوميات الإيرانية، بدخول المصالح الأمريكية على الخط وسعيها لرسم خرائط «جديدة» لشرق أوسط «جديد». وقد يكتسب هذا التحدي أبعادا جديدة مع استخدام أمريكا لورقة القوميات لزعزعة النظام لدى عدم الوصول لتفاهمات إقليمية معه.

كرس الطابع الأيديولوجي للدولة الإيرانية، والمرتكز على «ولاية الفقيه»، حضور طهران إقليميا عبر خطابها السياسي والديني، كما لم تتنازل الجمهورية الإسلامية عن أي طموح إقليمي للدولة الإيرانية الحديثة، وغدت مرجعية سياسية للشيعة في العالم. ويمثل النظام الإيراني إحدى قوى الممانعة الأساسية أمام التصورات الأمريكية لإعادة رسم الشرق الأوسط. ومع إحاطة قوات واشنطن بإيران في ظل عدم وجود تفاهمات بينهما، يتوقع اندفاع الأمور نحو تصعيد أكثر. ويكمن التحدي الأهم في قدرة إيران على تحقيق تفاهمات -حول دورها الإقليمي- مع واشنطن مع حماية دولتها وأيديولوجيتها. ※



اكتسب انتخاب نجاد لرئاسة الجمهورية أبعادا خاصة بسبب الانقلاب الذي أحدثه في التوازنات السياسية بين جناحي النظام الإيراني، المحافظين والإصلاحيين



هل الصهيونية

عبد الوهاب المسيري

يؤمن كثير من مؤرخي الأفكار بأن الفكر الأوروبي الحديث، رغم ثورته على الرومانسية، هو في صميمه فكر رومانسي

أصبحت كلمة «موضوعية» مصطلحاً أساسياً في خطابنا التحليلي، العلمي واليومي، وأصبحت عبارة «فلتكن موضوعياً» من أكثر العبارات شيوعاً. وهي تعني أن على المرء أن يتحلى بالحياد والتجرد من الذاتية ومن قيمه المعرفية والأخلاقية وانتماءاته القومية والأيديولوجية حين يقوم بدراسة ظاهرة ما، فلا يقحم رغباته أو أهواءه أو انتماءاته أو القومية، وهذه أمور ولا شك إيجابية. ولكن أصبحت الموضوعية تعني عند البعض تلقي المعلومات بشكل سلبي ورصدها رصداً تراكمياً وتنوينها دون أن يرى علاقاتها بعضها بالبعض («ويرص كلاماً / فوق كلام / تحت كلام» على حد قول صلاح الدين عبد الصبور)؛ وكأن المعرفة الحقة هي حشد المعلومات، وكأنه لا يوجد فرق بين الرؤية ونشرة الأخبار وبين التفسير والتدوين. إن الموضوعية في تصور هؤلاء هي التجرد من الذاكرة والهوية والقيم والعواطف والأحاسيس، وهذا أمر بطبيعة الحال مستحيل، فهل يمكن للإنسان أن يرصد سقوط حجر من عل مثلما يرصد سقوط طفل؟ وهل يمكن أن ندرس سلوك أسرة من الدجاج مثلما ندرس سلوك أسرة من البشر؟ وهل يمكن أن نرصد مذبحة تقع في فلسطين أو حادثة سقوط طائرة تحمل مائتي راكب في المحيط مثلما نرصد زلزالاً وقع في جزيرة غير مأهولة بالسكان؟

النموذج الإدراكي والتحليلي

لكل هذا أذهب إلى أنه من الضروري أن نميز بين الموضوعية المتلقية السلبية من جهة، والموضوعية الاجتهادية الإيجابية من جهة أخرى. والموضوعية المتلقية هي التلقي المادي السلبي للمعلومات الذي يؤدي إلى تراكم المعلومات الصماء، المعلومة فوق الأخرى. ولكن المعلومة في حد ذاتها لا تقول شيئاً، بل إنها قد تخبئ كثيراً من الرؤى والتضمينات الفلسفية والمعرفية المتحيزة. ولكن هل هذا يعني أن نلجأ للذاتية المحضة؟ بالطبع لا، فالمعرفة النابعة من ذات الباحث وحدها دون العودة للواقع الموضوعي لا تفيد كثيراً بل إنها قد تضلله. كيف يمكن إذاً فك هذه العقدة التي يواجهها الباحث في كل العلوم الإنسانية، بل وأحياناً في العلوم التطبيقية؟ أذهب إلى أن ما أسميه التفسيرية قد يساعدنا على حل هذه الإشكالية عن طريق المزج بين القطبين (الذات والموضوع). فالتفسيرية ترفض كلاً من الموضوعية المادية المتلقية والذاتية المغلقة على نفسها، فهي تنطلق من تقبل ثنائية الإنسان والطبيعة/المادة وبالتالي ثنائية الذات والموضوع ولا تحاول إلغاءهما، وإنما تحاول الوصول إلى المنطقة التي تلتقي فيها الذات بالموضوع، فهي تستعيد الفاعل الإنساني في كل تركيبيته ككائن يعيش في عالم الطبيعة والمادة رغم أنه متجاوز لهما. إن المنهج التفسيري لا يهدف إلى حشد أكبر قدر ممكن من المعلومات ورصدها في حد ذاتها بطريقة موضوعية سلبية متلقية (فالحاسوب يقوم بهذا على أكمل وجه). كما أنها ترفض أن يحلق الباحث في فضائه الأيديولوجي أو الأخلاقي (الذاتي) الخاص. تذهب التفسيرية إلى أن الحقائق غير الحقيقة. فالحقائق بطبيعة الحال هي نقطة البدء في أي بحث ولكنها مجرد معطى مادي ومادة أرشيفية. أما الحقيقة فهي ثمرة عملية إبداعية يقوم بها العقل الإنساني فيقوم بالربط بين المعلومات واستخلاص أنماط متكررة منها من خلال عملية تجريد إبداعية. إن التفسيرية تنطلق من إدراك أن ما يرصده الباحث بشكل مباشر هو مجرد مادة خام أولية، وبالتالي فالأرقام والإحصائيات والمعلومات والحقائق ليست نهائية. ولذا فالمنهج التفسيري يحاول تجاوز المضمون الواضح المباشر والمعلومات المتراكمة ويهدف إلى تصنيف المعلومات وتنظيمها وتحديد الجوهري والهامشي منها ثم وضعها داخل نمط متكرر، وأن يرصد العوامل المكونة للظاهرة الإنسانية في تفاعلها. كل هذا يتم بهدف اكتشاف العلاقات المتشابكة التي تكون الظاهرة حتى يمكن تفسيرها (وهذا ما لا يمكن للحاسوب أن يقوم به)، وصولاً إلى بنية الفكر أو الظاهرة وأبعادهما المعرفية والعلاقات الكامنة التي تشكل هويتهما ومنحناهما الخاص. إن هدف العملية البحثية من منظور المنهج التفسيري ليس حشد المعلومات وإنما تفسيرها، أي أن مركز العملية البحثية ينتقل من عالم الأشياء والمعلومات إلى العقل الإنساني الفعال، بما فطره الله فيه من مقدرات وأفكار أولية.

حركة رومانسية؟

والمنهج التفسيري -كما أسلفنا- يهدف إلى وضع الحقائق داخل نمط متكرر، وهو ما نشير إليه بأنه النموذج. وأعرِّف النموذج بأنه بنية تصورية يجردها الباحث من كمٍّ هائل من العلاقات والتفاصيل والوقائع والأحداث، فيستبعد بعضها لعدم دلالتها (من وجهة نظر صاحب النموذج) ويستبقي البعض الآخر، ثم يرتبها ترتيباً خاصاً وينسقها تنسيقاً خاصاً بحيث تصبح (من وجهة نظره) مترابطة بشكل يماثل العلاقات الموجودة بالفعل بين عناصر الواقع. حينئذ تتكون صورة في ذهنه يمكن أن نسميها خريطة إدراكية أو نموذجا إدراكيا. والنموذج ليس له وجود إمبريقي محسوس فهو كامن في كل تفاصيل الظاهرة أو النص وفي أجزائهما، وهو بلا شك يتجاوزهما، ولكنه في الوقت ذاته يمنح النص أو الظاهرة وحدتهما الأساسية ويربط بين عناصرهما المختلفة.

ومن يستخدم النموذج كأداة تحليلية لا يتلقى الحقائق في سلبية وإنما سيقوم برصدها في دقة بالغة ثم يقوم بعد ذلك بتفكيكها والربط بينها وتجريدها وتركيبها ووضعها داخل إطار ينتظم الظواهر المتشابهة (فإن كان الرصد عملاً موضوعياً، فالتجريد والتركيب عمل ذاتي اجتهادي توليدي). ومن خلال الأنماط المتكررة يمكن إدراك المعلومات لا كذرات متناثرة وإنما كشبكة علاقات ذات دلالة.

والنموذج لابد أن يكون له بُعد معرفي، ونحن نتحدث عن «النموذج المعرفي» أي النموذج الذي يحاول أن يصل إلى الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنساني (وكلمة «كلي» تفيد الشمول والعموم، بينما تعني «نهاية الشيء» غايته وآخره وأقصى ما يمكن أن يبلغه الشيء). وتدور النماذج المعرفية حول ثلاثة عناصر أساسية: الإله - الطبيعة - الإنسان. ونحن نركز على الإنسان (الموضوع الأساسي للعلوم الإنسانية)، ولكن من خلال دراسته يمكن أن نحدد موقف النموذج من العنصرين الآخرين (الإله والطبيعة).

وبعد تجريد النموذج الإدراكي المعرفي يمكن تحويله إلى نموذج تفسيري تحليلي: يستخدمه الباحث في قراءة النصوص والظواهر المختلفة قراءة تحليلية نقدية.

ولذا ففي الإطار التفسيري بوسعنا أن نسقط كلمتي «موضوعي» و«ذاتي»، ولن يكون معيارنا الدقة أو كم المعلومات أو مدى مطابقة معلوماتنا للواقع وإنما المقدرة التفسيرية للمصطلح أو الأطروحة. فإن كان المصطلح أو الأطروحة قادراً على تفسير عناصر وأوجه كثيرة في الواقع فهو «أكثر تفسيرية» (وهي عبارة تحل محل مصطلح «موضوعي»)، وإن أثبت المصطلح قصوره التفسيري فهو «أقل تفسيرية» (وهي عبارة تحل محل مصطلح «ذاتي»). والمصطلحان اللذان اقترحهما أكثر انفتاحاً وعملية وتواضعاً من مصطلح «موضوعي وذاتي». فحينما أقول «إن ما أطرحه هو أكثر تفسيرية» فأنا أقول في واقع الأمر «أن تفسيري أنا للوقائع وللظاهرة»: أي أنني أحذر القارئ من العنصر الذاتي، وأدعو لاختيار أطروحتي على محك الواقع. أما إن قلت «أن هذا رأي موضوعي» فمعنى ذلك أنه ليس رأيي أنا، وإنما هو الحقيقة الموضوعية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وإن قلت «أن هذا هو رأيي الذاتي الذي توصلت له من خلال عبقريتي وعلمي الغزير» فعلى الجميع إذن قبوله دون مناقشة، فهم ليسوا عباقرة، أو علماء مثلي!

وإذا كنا قد بدأنا في العالم الموضوعي فنحن ننتهي فيه، إذ يمكن اختبار مقدرة النموذج التحليلي التفسيرية للنموذج التحليلي على محك الواقع، كما يمكن إثراؤه وزيادة تركيبيته ومقدرته التفسيرية من خلال اختباره على عدة حالات مماثلة، وبالتالي لا يوجد خوف من ذاتية التجريد والتفكيك والتركيب.

وصياغة النموذج التفسيري التحليلي عملية مركبة وإبداعية تتضمن عمليات عقلية عديدة متنوعة. فالنموذج لا يوجد من العدم أو من أعماق الذات وثناياها وحدها (كما قد يتراءى للبعض)، وإنما هو كما أسلفنا - ثمرة فترة طويلة من ملاحظة الواقع والاستجابة له ومعايشته والتفاعل معه ودراسته والتأمل فيه وتجريده. وحين يحاول الباحث أن يصوغ النموذج لا يستبعد خياله أو حدسه أو قيمه أو تحيزاته، فهو يحاول أن يستجيب بكل كيانه للظاهرة أو النص موضع الدراسة. إن النموذج كأداة تحليلية يربط بين الذاتي والموضوعي، ولذا يمكن القول بأن عملية صياغة النموذج تجمع بين الملاحظة الإمبريقية واللحظة الحدسية، وبين التراكم المعرفي والقفزة المعرفية، وبين الملاحظة الصارمة والتخيل الرحب، وبين الفهم الحدسي للكل والدراسة التجريبية للأجزاء والتفاصيل، وبين الحياد والتعاطف، والانفصال والاتصال، وهو ينتج مجال البحث العلمي من خلال الخيال الإنساني ومقدرته على التركيب وعلى اكتشاف العناصر والعلاقات الكامنة، ولكنه في الوقت نفسه يكبح جماح هذا الخيال بأن يجعل النتائج خاضعة للاختبار، وهي مسألة تقع خارج ذاتية من صاغ النموذج. وذلك كفيل بأن يضع حلاً للمشكلة التي تواجه العلوم الإنسانية، أي الإفراط في تصديق الحدس الذاتي المنفصل عن أي واقع، أو العكس، أي الإفراط في الاهتمام بالتفاصيل والجزئيات المنعزلة عن أي مفهوم للكل (وهذا تبدٍ متطرف لإشكالية الذاتية والموضوعية). إن ذاتية الحدس ليست كافية، تماماً مثل موضوعية التجريبية، إذ لابد أن يكون هناك تفاعل بين الذات والموضوع وبين الكل والجزء وبين الحدس المباشر من جهة، ومن جهة أخرى التحليل العقلي والرصد الموضوعي الصارم. وبدون كل هذه العمليات المركبة، يحل محل النموذج التحليلي المركب فرضية اختزالية شائعة (أي نموذجا اختزاليا شائعا)، وتصبح الملاحظة عملية اختزال للواقع ويصبح البحث عملية توثيق أفقية مملة، هي في جوهرها تأييد للأطروحات السائدة في حقل ما. وهذا مع الأسف هو ما يحدث في كثير من الدراسات التي يقال لها «علمية» التي تقوم في جامعاتنا، والتي تسمى نفسها «بحوثاً»، وهي أبعد ما تكون عن «البحث»، فهي في غالب الأمر عملية توثيق لبعض البديهيات أو لبعض الأطروحات الشائعة.

ولنحاول تطبيق بعض هذه الأفكار على موضوعين هما الرومانسية والصهيونية قد يبدوان لأول وهلة وكأنهما لا يمكن أن توجد أي نقط تشابه أو تماثل بين الواحد والآخر. وأنا هنا لا أتحدث عن «أثر» الرومانسية على الصهيونية وإنما أتحدث عن التماثل أو التشابه البنيوي بينهما. والتماثل أو التشابه البنيوي يعني أن نقط التماثل والتشابه لا توجد في المضمون المباشر أو الموضوع الظاهر وإنما توجد على مستوى أعمق، مستوى النموذج الكامن والعلاقات المختلفة بين كل التفاصيل، وهو مستوى لا يمكننا التوصل إليه إلا من خلال استخدام النماذج التحليلية. فالنموذج التحليلي يجعل بوسعنا أن ننتقل بقدر من السهولة من حقل معرفي إلى آخر، ومن عالم الاقتصاد على سبيل المثال إلى عالم الأفكار. ومن خلال مقارنتنا بين الرومانسية والصهيونية هذه سنحاول أن نبين المقدرة التصنيفية والتفسيرية للنماذج التحليلية.

وتعريف الرومانسية تعريفا جامعا مانعا أمر في غاية الصعوبة، نظراً لأنه مصطلح فضفاض وخلافي يشير إلى عدد كبير من الاتجاهات والتيارات تتباين في دعاتها وأزمنتها وأمكنتها. ولذا فلنحاول أن نقدم هذا المفهوم الفكري (والسياسي والاجتماعي والتاريخي) عن طريق حصر بعض السمات الرئيسية التي تهمنا في المقارنة التي سنعقدها. ومن أهم هذه السمات أن الرومانسية كانت ثورة ضد النفعية وكل الاتجاهات الآلية التي تحاول أن تختزل الظاهرة الإنسانية إلى عنصر مادي واحد: الاقتصاد، أو الجنس أو هذا العنصر المادي أو ذاك. كما أن الماديين يرون أن العالم في حالة صيرورة دائمة، فهو لا ثبات فيه لأي شيء. ولهذا حاول الرومانسيون أن يبحثوا عن حقيقة جوهرية كامنة وراء الأشياء، حقيقة ثابتة وراء التغير، حقيقة عميقة تتجاوز السطح. ومن هنا لم يعد العالم المادي بالنسبة إليهم شيئاً ميتاً، خاضعا لقوانين المادة والآلة، وإنما شيء حي ينبض بالحياة، تسري فيه الروح، يصلح كعلامة وكشاهد على وجود المطلق الذي كان يقرنه بعض الرومانسيين بالإله (وهذه هي خلفية البعث الديني الذي حدث في القرن التاسع عشر).

وباكتشافهم لهذا المطلق تصور الرومانسيون أنهم أعادوا الحياة للعالم بعد أن قتلته الثورة الصناعية والفلسفة النفعية المادية. فالمطلق هنا لم يكن أداة لتأكيد الذات وإنما وسيلة لتأكيد إنسانية الإنسان وانفصاله عن عالم الأشياء عن طريق ربطه بما هو متجاوز للعالم المادي. ومن هنا يفهم حديث بعض مؤرخي الأفكار عن «الثورة الرومانسية». (ومع هذا يجب التحفظ بالقول أنه لا الرومانسية تؤدي إلى التدين ولا العقلانية تؤدي إلى العلمانية والمادية، فهناك ماديون رومانسيون مثل النازيين وبعض الماركسيين، وهناك متدينون عقلانيون مثل المعتزلة، وهناك كثير من المفكرين الغربيين المسيحيين العقلانيين في القرن الثامن عشر، فالعلاقة بين الرومانسية والتدين ليست علاقة سببية صلبة وإنما علاقة ترابط اختياري أو علاقة قربى بينهما).

ولكن كيف يتأتى لنا أن نصل إلى هذا المطلق الثابت، المتجاوز لعالم المادة والمحسوس؟ إن عالم الحواس مغلق، ولابد من طريقة جديدة للإدراك. ومن هنا كانت أهمية الخيال. فالخيال وحده هو الذي يمكِّن الإنسان من تجاوز عالم المادة ليصل إلى الأعماق وإلى جوهر الأشياء، بل وإلى المطلق الثابت الذي لا يتحول. إن الخيال لا يبتدع صورا خرافية، لا علاقة لها بالواقع، وإنما يساعد على تخطي المعطيات الحسية بأن ينحت صورا مجازية دالة، تجسد هذا الواقع وعلاقاته، وتسهل إدراك جوهر الواقع المعيش.

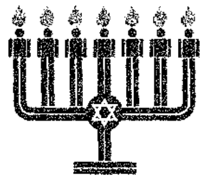
ولكن كيف يمكن للخيال أن يلعب دوره هذا؟ يجيب الرومانسيون بأن العاطفة هي التي يمكنها أن تفعل ذلك، فالإنسان في حالته العادية وفي حياته اليومية، لا يستخدم سوى حواسه وعقله (بالمعنى الضيق والمباشر للكلمة). أما إذا جاشت عواطفه، فإنها ترهف حواسه وتعمق إدراكه بحيث يتجاوز السطح ليصل إلى الأعماق والمطلق وإلى جوهر الأشياء. إن العاطفة تهدم حدود الحواس والأشياء، ولذا فالصور الشعرية الخيالية تتسم بوحدة داخلية عضوية مختلفة تمام الاختلاف عن الوحدة الخارجية (المنطقية) التي تتسم بها الأشياء العادية. فالأولى مستقاة من منطق الروح الحي والثانية مستقاة من منطق الأشياء الميتة.

والإنسان الرومانسي الذي يتجاوز السطح ويصل إلى الجوهر عن طريق الخيال الذي تشحذه العاطفة، إنسان فردي متفرد - فردي لأن العاطفة -على عكس العقل- لا تخضع لقانون، ولذا فمن يعبر عن عاطفته إنما يعبر عن ذاته، ومن يعبر عن ذاته، فهو يعبر عن فرادته التي لا يشاركه فيها أحد سواه.

لكل ما تقدم نادى الرومانتيكيون بالعودة إلى «الطبيعة»، والطبيعة هنا ليست مجرد أشجار وأنهار وجبال وتلال، وإنما هي حيز فسيح يتسم بالبساطة وغياب التفاصيل يمكن للمفكر أو الأديب الرومانسي أن يذهب إليه، بعيداً عن ضوضاء المدينة وتلوثها وتفاصيلها العديدة، ليتأمل ذاته دون عوائق ولتفيض عواطفه وينطلق خياله فيطور أفكاره الأصيلة التي تعبر عن هويته وشخصيته ورؤيته الفريدة الفذة وعن إنسانيته.

ويرتبط موضوع «العودة للطبيعة» بموضوع آخر وهو الحنين أو العودة للماضي والاهتمام بالأماكن والحضارات البعيدة the fare away and the long ago. وكما أن العودة للطبيعة هي شكل من أشكال التمرد على المجتمع الصناعي المادي، فكذلك كانت العودة للماضي والاهتمام بالأماكن والحضارات البعيدة. فالأديب الرومانسي الذي كان يعود للعصور الوسطى أو للأماكن والحضارات البعيدة كان يستلهم منهما صفات مثل التراحم والترابط الاجتماعي والإيمان الديني التي يتجاوز علاقات التبادل المالي والتجاري. ولذا نجد أن العودة للأماكن أو الحضارات البعيدة أو الماضي لم تجعلهم ينصرفون عن الحاضر أو عن واقعهم، بل كانوا يستمدون منها معايير يمكنهم عن طريقها توجيه النقد لمجتمع أطبق عليه السقف المادي النفعي، لأنه يدور في إطار اقتصاديات السوق.

ويمكن تلخيص الموقف الرومانسي بأنه يرى أن عقل الإنسان (بالمعنى العريض للكلمة) لا يستبعد العاطفة أو الخيال، والذي يعني في واقع الأمر كلية الكيان الإنساني، وأن هذا العقل مبدع قادر على اختراق السطح المادي وصولاً إلى الحقيقة الجوهرية للأشياء. ويمكن



هل الصهيونية حركة

تفسير كل الموضوعات الرومانسية الأخرى في هذا الإطار. فالعودة إلى الطبيعة وإلى الماضي هي عودة لعالم مركب، أعماقه غير خاضعة لقوانين المادة، يمكن للخيال الإنساني أن يحلق فيه، ويمكن للعقل الخلاق أن يطلق لنفسه فيه العنان.

وينتظم كل الموضوعات الرومانسية خيط واحد، وهو التصور العضوي للعالم، أي أنه يشبه الكائن العضوي الحي (النبات أو الحيوان) في تلاحم وتكامل أعضائه. ومن ثم لا يمكن أن تنفصل الأجزاء عن الكل (فالعلاقة بينهم عضوية) وإن فصلت جزءاً أو عضواً عن الكل، فإن العضو يذبل ويموت وكذا الكل، أو على الأقل تتغير هويته تماماً. ويرى الرومانتيكيون أن ثمة وحدة عضوية في العالم تربط الإنسان بالطبيعة والإله. ومصدر هذا الترابط العضوي هو حلول الإله في كل من الإنسان والطبيعة، وهو بحلوله هذا يستعيد للعالم قداسته التي نزعتها عنه الثورة الصناعية وقوضتها النفعية المادية.

ولنتذكر أن الرومانسية كانت هي الرؤية الفلسفية السائدة في أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين. بل يؤمن كثير من مؤرخي الأفكار بأن الفكر الأوروبي الحديث، رغم ثورته على الرومانسية، هو في صميمه فكر رومانسي. وقد ظهرت الصهيونية كفكر سياسي في منتصف القرن التاسع عشر، وتبلورت في العقدين الأخيرين منه، ووصلت أول دفعة من المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين عام ١٨٨٢، أي إنها ظهرت في وقت ساد فيه الفكر الرومانسي في العالم الغربي،

وكانت الرومانسية هي أساس رؤية الإنسان الغربي للكون Zeitgeist في القرن التاسع عشر، أي شبكة من العلاقات بين الأفكار تشكل الإطار العام لذلك العصر وكل آثاره الإنسانية، سياسية كانت أو فلسفية أو جمالية.

إذا درسنا الظاهرة الصهيونية وحاولنا تجريد النموذج المعرفي الكامن وراء كثير من تفاصيلها وأفعالها ونصوصها سنجد أنه يحمل كثيراً من سمات وملامح الرومانسية. ولنأخذ السمة الأولى، أي البحث عن مطلق يتجاوز السطح، سنجد أن الفكر الصهيوني يدور حول مطلقات ثابتة غير خاضعة للتغيير مثل الشعب (اليهودي) المختار وحقوق الشعب اليهودي والأرض اليهودية المقدسة، فهذه كلها مطلقات تتجاوز التاريخ وسطحه وحدوده. ومصدر إطلاقها كلها هي أنها يهودية، أي أن المطلق الذي لا يتغير هو اليهود واليهودية. ولكن اليهود واليهودية يوجدان داخل الزمان، ومن هنا نلاحظ ما أسميه تداخل النسبي والمطلق في كل الظواهر الصهيونية، بحيث تصبح كل الأشياء مطلقة بما في ذلك أتفه التفاصيل: الدولة اليهودية، علم إسرائيل، نجمة داود، بطاقة الهوية الإسرائيلية. ولننظر إلى المصطلح السياسي الصهيوني وإلى موقف الصهاينة من ضم الأراضي، لا يمكن التفريط في هذا الشبر لأن لليهود علاقة خاصة به، ولا يمكن التنازل عن قطعة الأرض تلك لأنها مقدسة، والحدود الآمنة هي في الواقع الحدود المقدسة أو الحدود المطلقة، أي الحدود اليهودية. ويجب أن نشير هنا إلى أن الصهاينة،

الفكر الصهيوني يمجد العاطفة ويرفض الفكر العقلاني الاستناري الذي كان يدعو إلى اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها

نظراً إلى أن معظمهم ملاحدة، يتحول المطلق عندهم إلى أمر ذاتي، فالمطلق هو ما يشاءون. أما بالنسبة إلى الأقلية الصهيونية المتدينة، ففي إطار الحلولية اليهودية ثمة مساواة في وجدانهم بين الله والشعب اليهودي، وهذا هو أساس فلسفة بوبر الحوارية، أي الإيمان به بأنه لا توجد أي مسافة تفصل بين الخالق والمخلوق فيتوحدان حتى يصبحان كياناً واحداً. أو كما قال بن جوريون: «إذا كان الإله قد اختار الشعب (اليهودي)، فإن الشعب (اليهودي) قد اختار الإله»، وبالتالي فالمطلق هو أيضاً ما يشاءون. وهكذا تتحول الذاتية الرومانسية التي كانت تهدف إلى تحرير الإنسان من إسار المادة إلى أداة بطش وطغيان.

وكما أسلفنا من الأفكار الرومانسية الأساسية، فكرة الهرب من عالم فاسد إلى عالم خير، من عالم المدينة والمدنية والصناعة والتلوث والفساد إلى عالم القرية والطبيعة والنقاء والطهر. ويرى المفكر الصهيوني الروسي ميخا جوزيف بيرديشفسكي أن الأيديولوجية الصهيونية دعوة إلى الهرب من عالم الأغيار الفاسد والعودة إلى البساطة اليهودية (أو العبرانية) الأولى: «إن الكون يدل على عظمة الله، والطبيعة تروى صنع يديه، لأن الطبيعة هي أم الحياة ومصدر كل الحياة، إنها منبع كل شيء... هي منبع كل ما يحيا وروحه...» «وبعدئذ غنت إسرائيل أغنية الكون والطبيعة، أغنية السماء والأرض وما عليها، أغنية البحر وما فيه، أغنية التلال والمرتفعات، أغنية الأشجار والأعشاب، أغنية البحار والجداول. وبعد ذلك جلس كل إسرائيلي تحت كرمته أو تينته، ثم نبتت البراعم على التينة، وامتد سحر التلال الخضراء إلى البعيد». هذه هي إسرائيل الأصلية في تصور بيرديشفسكي، ولكن حدث سقوط في التاريخ إذ قام جيل إثر جيل يحتقر الطبيعة ويعتقد أن أعاجيب الله ليست سوى تفاهات نافلة. ولذا، فإن طريق الخلاص واضح جلي «ردوا إلينا شجراتنا الجميلة وعقولنا الجميلة! ردوا إلينا الكون». وهكذا تصبح العودة إلى الطبيعة البسيطة البريئة إلى رغبة في الاستيلاء على فلسطين.

وهذه النزعة نفسها نحو العودة إلى البساطة الأولى تظهر في قصيدة الشاعر الروسي الصهيوني شاؤول تشرنحوفسكي:

فلنكن مثل الأطفال الصغار،

مثل قطرة في الفيضان، أو تنهدات البروج،

لا بحث، لا غاية، ولا قانون، ولا طغيان،

مثلما كنا في الأيام القديمة، قبل أن تتحكم

في الأرض والضياء، قبل أن تصيب الحكمة،

وقبل أن يرهقنا الأنبياء.

إن العودة للطبيعة هنا هي عودة إلى عالم لا حدود له ولا قانون فيه (إلا قانون الغابة)، وعادة ما تتحول جنة روسو

الفردوسية إلى غابة داروين المتوحشة، وهى عودة إلى ما قبل التاريخ اليهودى وقبل إرسال الأنبياء إلى بنى إسرائيل، وما كانوا يحملون من أخلاقيات إنسانية؛

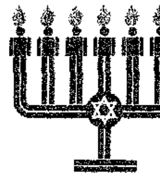
وأسطورة «العودة الرومانسية»، فى سياقها الثورى، هى صورة مجازية لتحطيم الحدود وعودة للأصول الإنسانية التى تضم كل البشر، أى أنها دعوة للمساواة والإخاء. ولكن أسطورة العودة عند الصهاينة تتبنى المفهوم الرومانسى لتبرر تمركز الهوية الصهيونية حول نفسها.

ولعل قصيدة تشرنحوفسكى الشهيرة «أمام تمثال أبولو» تبين المضمون السياسى العنصرى لأسطورة العودة عند الصهاينة. تبدأ القصيدة بالتغنى بأبولو إله الإغريق القدامى، فهو «جميل كالربيع، قهر الشمس، وعرف أسرار الحياة وفنونها الكونية». ويذهب تشرنحوفسكى إليه باعتباره اليهودى الذى سئم تاريخه الطويل فيقول:

أسجد وأنحنى أمام الخير والسمو
لكل ما هو مجيد فى هذا العالم
لكل ما هو رائع بين المخلوقات
لكل ما هو متسام فى ديانات الكون البدائية.

ولكننا نكتشف بعد قليل أن هذا اليهودى المتمرد الذى يعود إلى الطبيعة والبراءة يعود فى واقع الأمر إلى «رب البرية المليئة بالأسرار، رب الرجال الذين غزوا أرض كنعان العاصفة». فى هذا البيت الأخير، لا نسمع حفيف أجنحة الطيور ولا نرى العاصفة تتجمع لتطهر الأرض من الأوراق وإنما نسمع فى الواقع صليل السيوف التى ذبحت الأبرياء فى دير ياسين وقانا وجنين.

وفكرة العمل العبرى، وهى فكرة محورية فى الفكر الصهيونى، فكرة رومانسية حتى النخاع، إذ تحت هذا الشعار يطلب من اليهودى أن يعود إلى أحضان الطبيعة فى بلاده الأصلية، فيعيش ببساطة ويعمل بيديه، وهو حين يعمل بيديه (عملاً عبريا)، فإنه سيعيد صياغة أرضه، وصياغة نفسه، ومن هذه العملية سيولد الإنسان العبرى الجديد (الذى لا يختلف عن الإنسان الطبيعى الذى بشر به الرومانسيون منذ روسو حتى الآن). ولكن ما تغيبه هذه الدعوة الرومانسية الرقيقة أن العمل العبرى يعنى طرد العرب من الأرض التى يفلحونها وإقصاءهم عن أى أرض يمتلكها اليهود. وقد قام المستوطنون من الصهاينة الذين كانوا يسمون أنفسهم «الاشتراكيين» بتنظيم لإضرابات ضد أى مستوطن يهودى يسمح للعرب بالعمل فى مستوطنته. إن صورة العودة الرومانسية المجازية تحولت إلى برنامج لاغتصاب الأرض وطرد سكانها، بعد أن صفيت الصورة من مضمونها الثورى ومن صفتها المجازية وحملت مضموناً حرفياً رجعياً (وهذه سمة أساسية فى الفكر الصهيونى، فكل الصور المجازية «الدينية، مثل فكرة «العودة إلى صهيون» تفسر بشكل حرفى حتى يمكن تحويلها



هل الصهيونية حركة

إلى برنامج سياسى. وبدلاً من حب صهيون الدينى التقليدى الذى لا يختلف فى جوهره عن حب المسلم لمكة أو المدينة، يتحول هذا الحب إلى ارتباط «عرقى» وقومى وحتمى بفلسطين، الأمر الذى يبرر غزوها والاستيلاء عليها، وليس مجرد السكنى فيها بشكل مؤقت للتعبد والتبرك).

والفكر الصهيونى فكر يمجد العاطفة ويرفض الفكر العقلانى الاستنارى الذى كان يدعو إلى اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها، والذى كان ينظر إلى اليهود باعتبارهم أقلية دينية أو إثنية مثل أى أقلية أخرى تعانى من الاضطهاد، ولكنها يمكنها أن تحصل على حقوقها عن طريق الكفاح من أجل تحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية. والمفكر الصهيونى موسى هس يرى أن عودته لشعبه هى عودة للعاطفة وهرب من عالم العقل البارد: «لقد تبين لى أن العاطفة التى ظننت أنى فقدتها عادت إلى الحياة من جديد. هذه العاطفة نصف المخنوقة تتأرجح فى صدرى محاولة التعبير عن نفسها». هذه العاطفة «خير رادع للعقلانية الهدامة» وهى كيان صوفى غامض لا يمكن تصنيفه، إنها «التفكير فى وطنيتى التى ترتبط بتراث أسلافى وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة»، وهكذا تصبح العاطفة أساساً لكل الأفكار الصهيونية التى لا يمكن أن يخضعها المرء للحوار العقلانى الرشيد. فحق اليهود فى العودة إلى فلسطين، على سبيل المثال، هو حق مطلق لا يمكن مناقشته وهو يجب حق الفلسطينيين العودة إلى ديارهم.

والفكر الصهيونى، انطلاقا من لاعقلانيته، يرفض النظر إلى التاريخ المتعين ويفرض أسطورته الخيالية على الواقع. وقد صور برديشفسكى الأمة اليهودية فى نشأتها على أنها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة، أى أنه يلى تاريخ يهود العالم وتاريخ العقيدة اليهودية ويعود بخياله إلى الأيام التى كانت فيها «رايات اليهود مرتفعة، وكانت الأرض عامرة «بالأبطال المحاربين». فى هذا الإطار تصبح فلسطين - بشعبها وتراثها وتاريخها وحضارتها التى امتدت آلاف السنين- أرضاً بلا شعب. أما الجماعات اليهودية المنتشرة فى كل أنحاء العالم، بكل ثرائها وعدم تجانسها وتنوعها، فهى تصبح «شعباً بلا أرض»، أى شعباً بلا تاريخ، يشكل وجوده فى المنفى انحرافاً عن التاريخ اليهودى الحقيقى.

أما موضوع الفرادة والفردية فإنه موضوع أساسى فى الفكر الصهيونى، وهو ولا شك مرتبط بفكرة المطلق. فالمطلق الصهيونى الذاتى، فريد قاصر على الصهاينة. وهم يتحدثون دائما عن التجربة التاريخية اليهودية باعتبارها تجربة فريدة لا يمكن أن يشارك فيها غير اليهود، بل لا يمكن أن يدركها غيرهم. ومن مظاهر فرادة التاريخ اليهودى أنه لا يمكن أن يستمر فى مساره الحقيقى خارج فلسطين، لذا، لابد من العودة إلى هذا المطلق أى الأرض المقدسة. ويفسر بعض الصهاينة معاداة السامية (أى معاداة اليهود واليهودية) على أنها رد فعل لفرادة اليهود (الميتافيزيقية أو الاجتماعية) لأن الكيان اليهودى الفريد يثير حفيظة الآخرين من الأغيار، ولذا يجب أن تكون لليهود دولتهم الفريدة التى يمارسون فيها فرادتهم بشكل فريد.

الفكر الصهيونى تفكير عضوى عنصرى متطرف. فالتصور الصهيونى لعلاقة اليهودى بأرضه تصور عضوى حتمى. فاليهودى تربطه رابطة عضوية حتمية بوطنه القومى، رابطة لا تنفصم عراها

والعقل البشرى المبدع الخلاق يتحول فى رؤية الصهاينة إلى العقل اليهودى الخلاق، القادر على إعادة صياغة الواقع، فالحديث عن الصحراء التى اخضوضرت والمستنقعات التى جففت هو حديث عن هذا العقل (وكأن الفلاحين الفلسطينيين لم يكونوا من أكثر شعوب الأرض إنتاجية وحرصا على أرضهم).

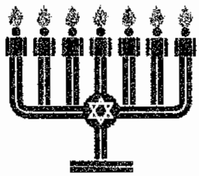
ومن الأفكار الأساسية الأخرى فى الفكر الرومانسى، (وفى الفكر الغربى خاصة منذ أواخر القرن الثامن عشر) فكرة الوحدة العضوية بين كل الأشياء والظواهر، التى أفرزت فكرة «الشعب العضوى» الفولك ein volk على حد قول هرتزل. والشعب العضوى هو الشعب الذى يترابط أعضاؤه ترابط الأجزاء فى الكائن العضوى الواحد والذى تربطه رابطة عضوية حتمية بأرضه وتراثه. ويشار إلى الفكر القومى، الذى يصدر عن مفهوم الشعب باعتباره الفولك أو الكيان العضوى المتماسك، بعبارة «الفكر القومى العضوى». ويقال له أيضا «القومية العضوية». والشعب العضوى مكتف بذاته ومرجعية ذاته، مقدس ومطلق، تنبع قداسته ومطلقيته من داخله، فهو موضوع الحلول والكمون، ورابطته العضوية بأرضه رابطة عضوية حتمية، يخضع لها أعضاء هذا الشعب، شاءوا أم أبوا.

وهذه الفكرة المحورية هى أيضاً فكرة أساسية فى التفكير (المحافظ والرجعى) الغربى. فالفكر الرجعى الغربى يرى أن أفراد المجتمع الواحد لا يدخلون فى علاقات إنسانية مركبة مبنية على التراضى (أو العقد) الاجتماعى، وإنما يدخلون أساساً فى علاقات عضوية تتخطى الإرادات والاختيارات الفردية. وبحسب هذه الرؤية، يصبح مواطنو أى دولة مجرد تعبير عن إرادة هذه الدولة وعن روح القومية التى ينتمون إليها. ومن الواضح أن التفكير العضوى ينكر فكرة التعددية والتدافع وحرية الإرادة أو ينظر لهذه المفاهيم على أنها فكرة هامشية. كما أن هذا التفكير ينحو نحو الإطلاق لأن الكيان العضوى كيان مكتف بذاته، تماماً مثل الزهرة التى لا تشير إلى شىء خارجها. والفكر النازى هو الآخر فكر عضوى يرى الأمة باعتبارها كياناً عضوياً له مجاله الحيوى الذى يحق لها وحدها أن تعيش فيه مستبعدة كل العناصر الأخرى.

والفكر الصهيونى تفكير عضوى عنصرى متطرف. فالتصور الصهيونى لعلاقة اليهودى بأرضه تصور عضوى حتمى. فاليهودى تربطه رابطة عضوية حتمية بوطنه القومى، رابطة لا تنفصم عراها. ولذا فاليهودى الذى يعيش خارج أرض الميعاد يعيش منفياً «منقسماً على نفسه، موزع الولاء، ممزقاً» كما يقول بن جوريون. فحالة الكمال والتكامل العضوية التى تسم الكائن العضوى لا تتم إلا بعد العودة. وقد وصف ج.ل. هاكوهين فيشمان، أول وزير للشئون الدينية فى

إسرائيل، صلة اليهودي بأرضه بأنها صلة «مباشرة، سماوية وأبدية، لا تشبه صلة الأغيار بها؛ فهذه الأخيرة صلة «سياسية وعلمانية وخارجية وعرضية ومؤقتة، (والعلاقة العضوية تتسم دائماً بأنها علاقة داخلية ضرورية وصوفية لأنها تستعصي على الفهم التجريبي العادي). وتبين كلمات الفيلسوف أهارون جوردون أن المصطلح العضوي يختلط بالمصطلح الصوفي داخل عقله الصهيوني حين يقول: «جئت إلى الأرض في منامي، فرأيتها جرداء ومقفرة، وقد أعطيت للغرباء، فحاق بها الدمار وشاع فيها فساد الحكم الأجنبي. والصلة الوحيدة التي تربط روحي بها وتذكرني بأنني ولدها وبأنها أمي، هي أن روحي مقفرة مثل روحها». إن علاقة اليهودي بالأرض مثل علاقة الابن بأمه، ومن هنا التماثل بينهما. وكل هذه الشواهد تشير إلى أن العلاقة بينهما عضوية وأنهما ينتميان إلى الكل اليهودي المطلق نفسه. وهذا ما يسمى في الفكر الغربي «الشعب العضوي».

ويرتبط بهذا المفهوم مفهوم آخر وهو «الشعب العضوي المنبوذ» pariah volk وهو مصطلح تستخدمه لنصف موقف الحضارة الغربية من أعضاء الجماعات اليهودية. فالجماعات اليهودية كانت تشكل في معظم الأحيان جماعة وظيفية متماسكة عضوياً (مكتفية بذاتها) ولكنها فقدت وظيفتها فتم نبذها، فأصبحت شعباً عضوياً منبوذاً. وهذا المفهوم يشكل حجر الزاوية في التفاهم بين الصهاينة وأعداء اليهود، فهم جميعاً يرون أن اليهود شعب عضوي واحد، لا ينتمي إلى الغرب أو إلى أي وطن لأنه يرتبط عضوياً بإرتس يسرائيل. والشعب يجب أن ينقل إليها إما بالقوة (كما يقول العنصريون من أعداء السامية، أي أعداء اليهود واليهودية) أو بطريقة منهجية سلمية (كما يقول الصهاينة). فالاختلاف بينهما ليس في الرؤية وإنما في الاجراءات المطلوبة لتحقيق الرؤية. (ولنلاحظ أن استخدام النموذج التحليلي قد جعلنا نرى العلاقة والتماثل البنيوي بين الصهيونية ومعاداة السامية). ولأن الشعب اليهودي العضوي مرتبط عضوياً بإرتس إسرائيل، فإنه لا يحق للآخر أن يعيش فيها. ولتفسير الشعار الصهيوني «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» في ضوء الصورة المجازية العضوية، يمكننا أن نقول إنه إذا كانت العلاقة بين الشعب اليهودي والأرض علاقة عضوية مطلقة فإن علاقة الأغيار بهذه الأرض علاقة عارضة وتصبح الأرض وكأنها لا شعب عليها: لأن الشعب الوحيد الذي ينتمي لهذه الأرض والذي يرتبط بها برباط عضوي هو الفولك اليهودي أو الشعب العضوي اليهودي. لذا يمكن ترجمة الشعار إلى ما يلي: «أرض (شعب عضوي تربطه علاقة عضوية بها) بلا شعب (لأن السكان الأصليين لا تربطهم أي علاقة عضوية بها)، لشعب (عضوي) بلا أرض (فعلى رغم أنه أعضاء هذا الشعب يعيشون في أوطانهم مثل الولايات المتحدة، إلا أنهم لا تربطهم أي رابطة عضوية بهذا الوطن)». وكما هو واضح، فإن الدائرية اللفظية للشعار هي انعكاس لتماسك الرؤية ودائريتها العضوية.



هل الصهيونية حركة

النيتشويه والصهيونية

من أهم أهم تبديات الفكر الرومانسي الرؤية الداروينيه. فهي رؤية تطالب أيضاً بالعودة للطبيعة وباتخاذها معياراً وحيداً يحكم به الإنسان على كل النظم الأخلاقية والمعرفية. وجوهر المنظومة الداروينية أن العالم في حالة تغير مستمر وتطور إلى الأرقى، وأن آلية التغير هي الصراع، وهو صراع يحسم لصالح الأقوى، ولذا فإن البقاء ليس دائماً للأصلح أخلاقياً وإنما للأقوى مادياً.

والفكر الصهيوني، مثله مثل الفكر النازي، ترجمة للرؤية الداروينية، فالصهاينة قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم اليهودية المطلقة التي تجب حقوق الآخرين، كما أنهم جاءوا إلى فلسطين ممثلين للحضارة الأوربية يحملون عبء الرجل الأبيض وأسلحته المتطورة الفتاكة. وهم، نظراً لقوتهم العسكرية، يملكون مقدرة أعلى على البقاء، أي أنهم جاءوا من الغرب مسلحين بمدفعية أيديولوجية وعسكرية داروينية علمانية ثقيلة، وقاموا بتسوية الأمور من خلال الموقع الدارويني فذبحوا الفلسطينيين وهدموا قراهم واستولوا على أراضيهم، وهي أمور شرعية تماماً من منظور دارويني علماني، بل وواجبة.

والنيتشوية هي الأخرى أحد التبديات المتطرفة والمتبلورة للرؤية الرومانسية، أو فلنقل إنها رومانسية عصر الإمبريالية والعنصرية، وهي الفلسفة الفردية والعدمية الغربية التي تعبر خير تعبير عن الأوضاع الحضارية والاقتصادية للمجتمع الغربي في ذروة الثورة الرأسمالية والتوسع الإمبريالي. ويمكن أن نرى خطاً مستمراً من ميكافللي وهوبز والفلاسفة الماديين والنفعيين إلى أن نصل إلى نيتشه الذي عزف معزوفة العدمية على اعتبارها النتيجة الحتمية للفلسفة المادية. ويمكن القول إن النيتشوية هي التعبير الفلسفي عن الرؤية الداروينية. ولذا فإننا بدلاً من التعامل مع الداروينية والصهيونية سنكتفي بالحديث عن النيتشوية والصهيونية.

وقد تأثر كثير من المفكرين الصهاينة بفكر نيتشه بشكل مباشر كما هو الحال مع برديشفسكي ومارتن بوبر وآحاد هعام، كما تأثر العديد منهم بهذا الفكر بشكل غير مباشر عن طريق تشرب الموضوعات الرومانتيكية النيتشوية المختلفة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من نظرة الإنسان الغربي للكون في هذه الفترة.

ويمكن أن نوجز نقاط التماثل أو التشابه البنيوي بين النيتشويه والصهيونية فيما يلي:

١- النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، ديانة علمانية ملحدة أو حلولية بدون إله، تعلن موت الإله («نعم لقد مات الإله وماتت الآلهة جميعاً»)، هي وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمني واحد هو إرادة القوة، وتتبدى إرادة القوة هذه عند نيتشه في الإنسان الأعلى (السوبرمان)، أما في الإطار الصهيوني فهي إرادة القوة اليهودية فهي وحدها التي تحقق بقاء الشعب اليهودي.

٢- النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، تعبير عن توثن الذات حينما يحل المطلق في الإنسان ويصبح كامناً فيه، فيعبد الإنسان ذاته أو يعبد أسلافه، أي الذات القومية المقدسة، باعتبارها تجسيداً لذاته. وإذا كانت الحلولية عند الرومانتيكيين محاولة لتجاوز السطح المادي واستعادة القداسة للعالم وللإنسان، فهي في الإطار الصهيوني تخلع القداسة عن الشعب اليهودي والأرض اليهودية.

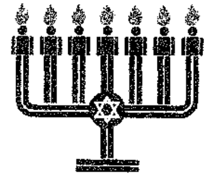
٣. النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، ديانة داروينية تسبغ نوعاً من الروحية والقداسة على قانون التطور وعلى حيوية الطبيعة، وتجعل من القوة الأساس الوحيد لأي نسق أخلاقي («القوة إذن هي الفضيلة السامية، والضعف هو النقيض في الشر. الخير هو الذي يستطيع أن يحيا ويظفر، أما الشر فهو ما يخور ويهوى، هذه هي النتيجة اللازمة لمبدأ تفاني البقاء») وهو ما يطلق عليه في المصطلح السياسي الإسرائيلي والغربي «فرض سياسة الأمر الواقع» و«خلق حقائق جديدة». كما أن فكرة الطبيعة التي تمور بالحياة، والحياة التي تتسم بالدينامية فكرة أساسية في الكتابات الصهيونية.

٤. الحياة، بالنسبة للنيتشوية، توسع ونمو واستيلاء على الآخر وهزيمة له، وتمجيد لأخلاق السادة الأقوياء، وهذا هو جوهر الصهيونية التي لا يمكنها أن تعيش إلا على التوسع وعلى إلغاء الآخر، والآخر هو، أولاً، الفلسطينيون الذين يجب أن يختفوا من على وجه الأرض، ثم يهود الدياسبورا الذين يعملون بالأعمال الفكرية ويؤمنون بأخلاق الضعفاء والعبيد.

٥. وإذا كان نيتشه قد دعا الإنسان إلى أن يعود لحالة الحيوية والطبيعة المقدسة والتلقائية، ويكون كالحيوان المفترس الأشقر، وينبذ العقائد الدينية وأخلاق الضعفاء، فقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها الأيديولوجية التي ستحول يهود المنفى الطفيليين الهامشيين المترهلين الذين يؤمنون بأخلاق الضعفاء إلى وحوش مفتولة العضلات تؤمن بأخلاق القوة وتحسم كل القضايا بالعنف اللاعقلاني المنفصل عن القيمة.

وهذه التلقائية والعودة إلى الفعل المطلق الذي لا تحده أي حدود إنسانية عقلانية أخلاقية يتضح في محاولة الصهاينة إحياء تقاليد العنف الجسدي بين اليهود بعد أن أضعفته -في تصورهم- سنوات طويلة من النفي. وقد رفض بيرديتشفسكي التاريخ اليهودي الذي يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر.

الفكر الصهيوني، مثله مثل الفكر النازي، ترجمة للرؤية الداروينية، فالصهاينة قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم اليهودية المطلقة التي تجب حقوق الآخرين



هل الصهيونية حركة

والسيف على الكتاب: «الكتاب ليس أكثر من ظل للحياة. هو الحياة في شيخوختها... السيف ليس شيئاً مجرداً يقف بعيداً عن الحياة. إنه تجسيد للحياة في أعرض خطوطها... وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة إلى حدٍ كبير». ولذلك أعاد الصهاينة كتابة التاريخ اليهودي، فركزوا على النقاط التي تجلى فيها العنف اليهودي الفريزي، مثل ثورة المكابيين أو حادثة ماسادا أو بطولات شاؤول وداود التوراتيين.

٦- الإنسان التلقائي الفريزي الديونيزي يفضل أن يعيش في خطر، وهذا بالضبط ما حققته الصهيونية للمستوطنين اليهود - خيامهم لم تضرب بجوار البركان وإنما في فوهته. وإذا كان «السيف مثل التوراة هما زينة الإنسان، كما يقول الحاخام أليعازر (وإذا كان السيف مثل التوراة تماماً «قد أنزلا علينا من السماء» كما جاء في خطاب لجابوتنسكي ألقاه على بعض الطلاب اليهود في فيينا) فإن كل شيء يصبح مرتكزاً عليه. ولذا فإن الإنسان النيتشوي الصهيوني يقف حاملاً سيفه دائماً. «هذا هو قدر جيلنا، وخيار حياتنا.. (إن) سقط السيف من قبضتنا، نزعت منا حياتنا» (كما قال ديان في جنازة أحد أصدقائه الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون). إن الحياة الصهيونية هي «حياة في خطر» ولذا فإن الفلاح لابد وأن يكون محارباً، والصانع لابد وأن يكون مقاتلاً، وكل المؤسسات لابد وأن تكتسب طابعاً عسكرياً. بل إن الافتراض القائم في إسرائيل هو أن حالة الحرب ضرورة حضارية حتى يمكن صياغة الأمة اليهودية الجديدة وصياغة الإنسان الإسرائيلي. والوضع نفسه أمر ضروري بالنسبة ليهود العالم خارج فلسطين، فهم أيضاً لابد أن يعيشوا في خطر دائم وإلا ابتلعهم الأغيار ووقعوا ضحايا الاندماج.

هذه هي بعض مواطن التماثل والتشابه البنيوي بين الفكرين الرومانسي والصهيوني. ولكن رغم هذا التماثل، ثمة نقط اختلاف بينهما أساسية وجوهرية. فبينما كان الرومانسيون يتحدثون عن الإنسانية جمعاء، عن إنسانيتنا المشتركة، كان الصهاينة يتحدثون عن الإنسان اليهودي، ولذا فبينما نجد أن علاقة الإنسان بالمطلق في المنظور الرومانسي هي علامة على إمكانية الإنسان أن يتجاوز عالم المادة وتأكيد إنسانيته، جعل الصهاينة المطلق متصوراً على اليهود (وهذا امتداد للعناصر الحلولية الوثنية داخل العقيدة اليهودية التي تجعل من الإله إلهاً قومياً، إلها لليهود وحدهم). وبينما نجد أن التفرد من منظور رومانسي، والمقدرة على تجاوز السطح وصولا إلى الأعماق، خاصية إنسانية، نجد أن الصهاينة جعلوها مقصورة على اليهود (ومن هنا يأتي حديثهم عن الشعب المختار وحقوقهم المطلقة التي تجبُ حقوق الآخر)، تماما مثلما فعل النازيون إذ جعلوا نفس المقولات مقصورة على الألمان، ومن هنا كان حديثهم عن «ألمانيا فوق الجميع». وكلا الفريقين لا يختلف عن الإمبريالية الغربية التي جعلت المطلق غربياً، ومن هنا يأتي الحديث عن «عبء الرجل الأبيض» و«رسالته الحضارية»، وعن التقدم الحتمي والمستمر الذي يصل إلى ذروته في الحضارة الغربية. ومن هنا كذلك يأتي الحديث الإمبريالي عن «حق» الإنسان الغربي في غزو العالم، أي أن المطلق الذي كان أداة في تأكيد تركيبية الإنسان تحول إلى أسطورة جامدة تختزل الإنسان وتستخدم كأداة لسحق الآخر. (وهكذا من خلال النموذج التحليلي أمكننا أن نربط بين الصهيونية من جهة والنازية والإمبريالية من جهة أخرى).

وفي النهاية يمكننا القول إن السياق الأساسي للحركة الصهيونية هو الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر والتشكيل الإمبريالي الغربي (والرومانسية كانت أحد روافد هذه الحضارة وكانت الفكر المهيمن آنذاك). أما الدين اليهودي فهو -في تصوري- لم يكن سوى مصدر للديباجات الصهيونية واعتذارياتها. وأما ما يسمى «التاريخ اليهودي» فهو شيء لا وجود له إلا في الكتب الصهيونية وكذلك في الكتب المعادية لليهود واليهودية -أو في كتابات بعض العرب الذين يرددون المفاهيم الغربية والصهيونية دون فحص أو تدقيق. ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية ظاهرة غربية استعمارية، وليست ظاهرة يهودية عالمية، أنها لم تنشأ في صفوف اليهود العرب أو يهود إثيوبيا (على سبيل المثال). كما أنها لم تنشأ في صفوف يهود الغرب إلا في القرن التاسع عشر: عصر الرومانسية والإمبريالية والعنصرية والتوسع.

ويمكننا أن نخلص إلى بعض النتائج ذات الطابع المنهجي والتي تنصب على طريقة التفكير والتحليل:

يجب أن نفصل وبحدة، على مستوى التحليل، بين الوصف والتقييم، فالوصف يتطلب نوعاً من التجرد من القيم ورفضاً لمحاكمة الأشياء والظواهر من أي منظور أخلاقي أو فلسفي، كما يتطلب الرؤية الدقيقة التي تحاول أن تصل إلى القوانين الخاصة التي تتحكم في الشيء والتي نطلق عليها منطق الظاهرة. ولذا فإنني أؤكد أنني لم أقرن الرومانسية بالصهيونية وأعادل بينهما في دراستي أو أنني توصلت إلى أن الرومانسية قد تسببت، بشكل أو آخر، في ظهور الصهيونية. أو أنني أشرت من طرف خفي إلى أننا يجب أن نقبل الصهيونية لأنها رومانسية، أو نرفض الرومانسية لأنها مقترنة بالصهيونية. كل ما قلته وهو أنني من خلال التحليل المتعمق والتصنيف الدقيق للنصوص الأدبية والوثائق التاريخية والفلسفية والاجتماعية وحركة التاريخ نفسها، وهما تحليل وتصنيف يتجاوزان المضمون الواضح والمباشر وصولاً إلى النموذج المعرفي الكامن في كل من الصهيونية والرومانسية، وهو نموذج يتخطى كلا من المضمون والشكل بالمعنى السطحي، ليصل إلى النقطة التي يكاد يصبح فيها المضمون شكلاً والشكل مضموناً. أقول أنني من خلال المنهج التحليلي التفسيري توصلت إلى أن ثمة تماثلاً وتشابهاً بين النموذج الكامن في كل من الصهيونية والرومانسية رغم الاختلاف الظاهري الواضح بينهما. وهو تماثل وتشابه متوقع باعتبار أن الرومانسية كانت تشكل أهم عناصر السياق العام للفكر الغربي في القرن التاسع عشر، والصهيونية هي إحدى الإفرازات العنصرية لهذا الفكر.

وفي تصوري أن إحدى مشاكل الفكر العربي أنه لا يزال فكراً مضمونياً، أي يتعامل مع المضامين المباشرة ولا يصل إلى العلاقات الكامنة، أو إلى النموذج الكامن. ويتسم التفكير المضموني الذي ينطلق من الموضوعية المتلقية أنه لصيق بالواقع لا يحاول تجاوزه يدور في فضاء التفاصيل والجزئيات، ولذلك نجد أن النظم التصنيفية ذات الطابع المضموني ليست جيدة ولا مفيدة. فالتفكير المضموني يبدأ عادة من الشواهد الملموسة والقرائن الجزئية، أي من مكونات أو عناصر المضمون المختلفة، ولذا فهو يظل حبيس هذا المضمون وحبيس الأجزاء، لا يمكنه أن يصل إلى الكل إلا بصعوبة بالغة، وحين يصل إلى هناك يصعب عليه أن يربط بين هذا الكل وكليات أكثر تجريداً لأن عيونه مستقرة دائماً على الشواهد والقرائن والاستشهادات الجزئية المتناثرة الملموسة. ولذلك فمثل هذا التفكير لا يمكنه أن يأتي بأطروحات جديدة خلاقة، ويمثل حجر عثرة في طريق الإبداع، فالإبداع هو أساساً اكتشاف علاقات جديدة بين الأشياء. بل إن الهوية الحقيقية لأي شيء لا توجد فيه في حد ذاته أو في عناصره المختلفة وإنما توجد داخل شبكة مركبة من العلاقات بين هذه العناصر لا يمكن التوصل لها إلا من خلال النماذج التحليلية.

ولكن بعد مرحلة الوصف والتصنيف والتعميم والتوصل إلى النموذج الإدراكي والمعرفي وتحويله إلى نموذج تحليلي، يمكننا بعد ذلك إطلاق الأحكام القيمية. وحينما نفعل ذلك يجب أن نكون واعين بما نفعل وبأن التقييم يختلف عن الوصف. كما يجب أن نكون مدركين لنسق القيم الذي ننطلق منه والفلسفة التي نصدر عنها، وأن نعرف أن الحكم القيمي هو في نهاية الأمر حكم يحوي داخله شرعيته، فإن كنت تحكم على الظاهرة من منظور إسلامي فأنت تفعل ذلك لأنك مؤمن بالإسلام، وبالتالي فمنطق الحكم (الذاتي) مختلف عن منطق الأشياء والظواهر (الموضوعي أي الذي يقع خارج الذات).

والله أعلم. ■

النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، ديانة علمانية ملحدة أو حلولية بدون إله، تعلن موت الإله «نعم لقد مات الإله وماتت الآلهة جميعاً»، هي وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمني واحد هو إرادة القوة

وليـــم هـ. مـاكنيـــــــل

■ بدأ الكتاب بمقدمة وصفية تصور بإيجاز أربعاً من الثورات التى حدثت منذ عام ١٥٠٠ ميلادية حتى الآن وهو التاريخ الممتد نفسه الذى اختاره ماكس بوت كى يتألف منه كتابه، وبالتالى انتهى الكتاب بحديث مبهم عن أسماء الأسلحة العسكرية التى لاتزال قيد الاستخدام مما فتح المجال للشك الدائر حول الثورات العسكرية المستقبلية؛ خاصة مع مدى الخطورة التى تنتج عبر الكثير والقليل من المتغيرات التى بينها بوت وحملها قدراً من الأسباب المقنعة التى تدعو للحديث عن التغيرات الفعلية التى حدثت فى التكنولوجيا و الإدارة العسكرية اللتين أثرتا فى التاريخ الأوروبى والعالمى.

كما أوضح بوت ذلك بالأمثلة والصور عبر ثلاث معارك وإن أردنا الدقة عبر حملات عسكرية محددة: أولى تلك الحملات «ثورة البارود» التى بدأت - حقيقة - فى الصين لكن ماكس بوت لم ينوه لهذا الأمر، بل لم يناقشه، واستبدل ذلك بالتركيز على أوروبا عندما قال: بدأت «ثورة البارود» فى حدود عام ١٢٦٧ لكن تواجدها لم يلق أهمية كُبرى واستمر هامشياً حتى عام ١٤٩٤ عندما زحف الجيش الفرنسى إلى إيطاليا، ومن ثم حاصرها وكانت بحوزتهم الأسلحة التى أثارت الهلع لبضع ساعات مرت مرعبة من هول القصف، مما أدى إلى الانسحاب دون مكسب يُذكر. كذلك خلف ذلك انتشار مرض الزهرى الذى عُدّ حدثاً جديداً آنذاك مما دعا إلى التراجع ثم الانسحاب.

أسهب ماكس بوت فى شرح واقع «ثورة البارود» كى يصور أولاً كيف أن الأسطول الإسبانى[1] قد هزم بوساطة الأسلحة الحديثة، فضلاً عن الوسائل العسكرية التى استخدمها الأسطول الإنجليزى عام ١٥٨٨ وكيف أن الجنود السويديين قد جنوا بصعوبة انتصارا أثناء ثلاثين عاماً من الحروب فى ألمانيا فى برتين فيلد ولوتزن (١٦٣١-١٦٣٢). وقد كانت حسابات هذه المعارك ظاهرة ومحددة على نحو جدير بالإعجاب. ومن ثم، بات ذلك مألوفاً عند القراءة، كما عرضه بوت بشكل يوحى بفهم عميق. لكن يمكن أن يتعرض بوت لانتقاد أحد قرائه لأنه قد تغافل. مطلقاً. عن ذكر هدف الشخص الذى خطط وحارب بما يكشف تغطرس وادعاء من قرر أن معتقدات أولئك المخططين الدينية وآمالهم ومخاوفهم لم يكن لها أدنى علاقة بما حدث.

لقد تعلمت الكثير مما سرده ماكس بوت عن معركة «أساى» فى الهند والتى حدثت فى عام ١٨٠٣ وقد شملها الجزء الأول من كتابه، وقد استخدمها للكشف عن كيف أن «ثورة البارود» قد أضحت السبب الأمثل فى الهوة السحيقة بين أوروبا وآسيا عندما كان قائد المعركة السير آرثر ويلسلى (الذى صار فيما بعد دوق ولنجتون) وقد قاد الجماعة البريطانية فى الهند الشرقية فضلاً عن القوات المسلحة التى تضمنت السباهى[2].

كانت سمعة آرثر ويلسلى الحربية الحسنة قائمة على هزيمة القوة الهائلة للماراثاو[3]، وكان ويلسلى لا يزال شاباً، لذا فقد اتسم سلوكه بالتهور والطيش والجرأة، لكن رجع الصدى للفوز سببه تفوق جنوده وإصرارهم على ضبط النفس. كما كانت معركة «أساى» حسب وصف ماكس بوت «واحدة من أكثر المعارك تشابكاً ودموية من بين المعارك التى خاضها دوق ولنجتون» (أيضاً كانت معركة واترلو على الجانب الاخر) ومن ثم ظل يفتخر بذلك على مدار حياته. وفى النهاية، أثمر ذلك توسعاً ضخماً لسيطرة الإدارة البريطانية على مقاطعات عدة فى الهند. كما كان ذلك مؤشراً إلى نهاية المنافسة العسكرية بين جماعة الهند الشرقية والحكّام الهنود الأصليين.

أكاد أزعم أن تأسيس السيادة العسكرية البريطانية فى الهند قد تحقق بعد الانتصار المبكر لروبرت كلايف فى «بلاسى» فى عام ١٧٥٧. لم يذكر بوت معركة بلاسى، لكن هدفه من ذكر معركة «أساى» أوضح أن انتصار كلايف السهل على الهنود الذين فاقوا جنوده عدداً لم يكن خداعاً للحكّام الهنود وخصوصاً مجموعة زعماء «ماراثا» فى غرب الهند الذين انبروا للدفاع عن «بلاسى» بصورة منهجية منظمة فى محاولة لتقليد الأوروبيين فى أسلحتهم وتدريبهم على أمل فى هزيمة البيض الدخلاء.

كان شراء الأسلحة الأوروبية متوفراً بسهولة وكذلك خبراء التدريب عليها يتضمنهم بضعة بريطانيين، وفى أقل من نصف قرن كان الـ«ماراثا» قادرين على إفراز جنود للمشاة ووحدات للمدفعية يتساوون مع عدد الجنود الهنود- المكرسين للخدمة البريطانية- من حيث التفوق والمهارة؛ لذلك كانت معركة «أساى» دامية جداً وقتالها عنيفاً والمحصلة من الجنود لم تكن تعتمد على الهروب بالمقاييس الحربية أو الخيانة كما حدث فى معركة «بلاسى».

واستمرت جيوش الـ«ماراثا» تعانى من بعض مواطن الضعف- كما أوضح بوت- مثل احتياجهم إلى قائد متفرد مثل آرثر ويلسلى الذى يخضع الكل لأوامره. وذلك لأن زعماء الـ«ماراثا» كانت تصرفاتهم تحمل أغراضاً متقاطعة فى المعركة، مما أدى إلى منفعة أعدائهم. علاوة على ذلك، إفقارهم -فعلياً- إلى أبسط الخدمات كما أن معظم جنودهم لم يتسلموا رواتبهم بانتظام. بينما كانت المشكلة الحقيقية تتمثل فى إعاقة[4] جيوش الـ«ماراثا» واحتياجها إلى ضباط وجيوش لهم طريقة حديثة فى القتال لتتغلب على القوة العسكرية الغربية الهائلة. ولتحويل واجهة جُل القوة العسكرية إلى الغربيين أو حتى إلى الهنود المتعلمين الغربيين يعنى ذلك أن يتخلوا عن سلطتهم الخاصة المطلقة والتى لم يكن ليتنازل عنها رؤساء الـ«ماراثا» نهائياً.

عامة، إذا أردت أن تحارب مثل الأوروبيين فعليك أن تكون أوروبياً، بمعنى أنه لا بد أن تتبنى على الأقل بعضاً من الديناميكية، وحب الاستطلاع الثقافى، والعقلانية، فضلاً عن الكفاءة التى اختص بها الغرب منذ حلول «عصر البارود»، منذ أن كان العقيد بلامبس متفوقاً دائماً على الجميع وعادة ما تغلب على المبتكرين العسكريين. مجسداً بشكل مبهم للقوات المسلحة الأوروبية. لكن صعوبة تعادلهما (الأوروبيون وغيرهم) فى المعركة كان حقيقة وذلك ما أعطى الأوروبيين لأكثر من قرن قدراً من النجاحات اليسيرة، ومهابة واقعية منقطعة النظير واستثنائية فى القرن التاسع عشر وبداية العشرين.

الحقبة الزمنية التى تناولها بوت تجسد طرفاً من المحاباة والميل إلى تصوير التفوق العسكرى الأوروبى فيما بعد عام١٨٠٣ وذلك عبر سرد مقنع صور استسلام الصين للعدوان الأوروبى بعد حرب الأفيون بين أعوام ١٨٣٩و ١٨٤٢.

بتجاوز التاريخ الذى حدده بوت يظهر تشوه الحقبة الانتقالية بين الثورة العسكرية الأولى (ثورة البارود) وبين «الثورة الصناعية» التى تلتها من حيث التكنولوجيا العسكرية. فالتاريخ يؤكد أن الثورة الصناعية نفسها بدأت فى بريطانيا العظمى مع النهضة الميكانيكية فى صناعة المنسوجات بين أعوام ١٧٣٣و١٧٩٣ ثم امتدت إلى جميع أنواع الصناعات بعدما اخترع جيمس واط آلة بخارية ذات كفاءة عالية فى عام ١٧٧٦ لكن ماكس بوت ادعى أن التطور العسكرى قد تلكأ وذلك حسب قوله:

«فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، كانت أنظمة القيادة والسيطرة والتموين لا تستطيع أن تواكب النمو المتضخم للجيوش. حيث كانت الاستعدادات لذلك لاتزال بدائية حيث تُسحب الخيول؛ البنادق والمدافع والذخيرة، كما أن الزى الموحد للجنود لم يزل خاضعاً لطريقة الصنع اليدوى من قبل الصنّاع الماهرين؛ أيضاً يتم النداء عليهم بالأبواق، والصيحات، ثم الرسائل التى كانت تصل بعد أن تمتطى ظهور الجواد؛ أما قادة الجيوش فقد كان لا بد أن يعتمدوا على إطلاق العنان لجواسيسهم كى يتاح لهم فهم ما كان يحدث تحت رماد ساحة المعركة.

استحضر نابليون الأسلوب القديم فى الحرب وذلك فى ذروة حروبه الساحقة؛ وحينما ارتأى أنه لم يخترع أسلوباً جديداً يرسخ مهارته الحربية، لجأ على الأغلب. لإذكاء حمية القومية، وبذلك احتدم العصر النابليونى سعياً لإحداث ثورة حقيقية فى الحرب عندما توسع فى إنتاج ما استطاع أن يمكنه من إرساء قاعدة موحدة للتجنيد».

بدأت «ثورة البارود» فى حدود عام ١٢٦٧ لكن تواجدها لم يلق أهمية كُبرى حتى ١٤٩٤ عندما زحف الجيش الفرنسى إلى إيطاليا، وحاصرها بالأسلحة التى أثارت الهلع والرعب

بترتيب مع مجلة
The New York review of books

ترجمة: عفاف عبد المعطى

البـــــارود!

هذا المزج الذى ادعاه ماكس بوت بدأ بحرب القرم بين أعوام ١٨٥٤ و ١٨٥٦، لكن مثل هذا الزعم يتجاهل التطور بعيد المدى الذى حدث فى المدفعية الفرنسية والبريطانية بعد عام ١٧٥٠ بناء على تطور علم المعادن، فاستحدثت آليات جديدة فى السبك، والتجويف، والتسديد، ونقل سلاح المدفعية، وضمها معاً فى أفران فحم الكوك، يضاف إلى ذلك الإدارة المنظمة جداً لمجموع العاملين فى خدمات الذخيرة، كل ذلك زاد من القدرة العسكرية لكل من البلدين بسرعة كبيرة.

علاوة على ذلك، أشار بوت قائلاً: «حدث إذكاء للحمية القومية فى النفوس» وقد تشابك ذلك مع ازدياد حدة الحرب مما يستحق أن يطلق عليه اتجاه ثورى. فضلا عن مزيد من التضافر الجماعى الذى وفره الفرنسى جاكوبينز فى عام ١٧٩٣ عندما عزز اتجاه علمانى جديد يعلن فيه «حقوق الرجل فى الحرية، المساواة، والأخوة». وفقاً لذلك، اتجهت الجيوش الفرنسية لتحمل شرف تحرير الأراضى عندما غزت ألمانيا ودول غرب أوروبا. ومن ثم، فقد رحب البلجيكيون والهولنديون والألمان بذلك بشدة أولا ولكن سرعان ما تحول قبول الفرنسيين لذلك إلى تكبر لإحساسهم بتفوقهم العسكرى. إضافة إلى ذلك، فقد طالب الفرنسيون بمساهمات مادية لدعم الجيوش المحتلة مما أثار الشعور العام ضدهم وهم الكل كى يجابههم، أولا فى إسبانيا، ثم لاحقاً فى ألمانيا. لذلك، استنهضت الهمة القومية بسرعة وكثافة شديدة ضد الفرنسيين الذى أسقطوا نابليون وإمبراطوريته فى عامى ١٨١٤- ١٨١٥، لإبعاد مثل هذه الانقلابات بينما تواصل نفس أسلوب الحرب يجعلنى أعاند كثيراً فى تصديق ما حدث.

كان بوت أيضاً يرجئ الإيمان بإنجاز «ثورته الصناعية الأولى» فى الإنتاج العسكرى كى يوضح أن تأثير ذلك بدأ منذ عام ١٨٦٦ فحسب، فيصف موقعة كونجرتز فى بوهيميا والتى حدثت بين بروسيا والنمسا فى عام ١٨٦٦، وكذلك معركة أم درمان فى السودان بين بريطانيا وقوات المهدى فى عام ١٨٩٨، والمعركة البحرية بين اليابان وروسيا فى مضيق تسيشما فى عام ١٩٠٥، كى يؤكد أن هنالك علامة حدود فاصلة ممتادة وأن حجته كانت مقنعة واضحة للكل، وبدون مفاجآت. وسعياً وراء مزيد من الاعتراف بفضل الثورة الصناعية الأولى على الحرب يغفل عن التغييرات الحرجة فى الأسلحة التى لم تحدث فى القرن الثامن عشر فحسب، بل أيضاً فى أوائل القرن التاسع عشر، بما شمل القذائف المتفجرة، دفع بخار السفن الحربية الحديدية، فضلا عن نظم مساندة الحملات العسكرية عبر مسافات غير محددة بحراً.

أكثر فقرات كتابه المحملة بالمعانى ظهرت كفكرة هامشية عند مناقشته لأحداث موقعة كونجرتز:

«خلال أيام كونجرتز، كانت كل الجيوش فى أوروبا تسرع لشراء حامل المدفعية الخاص الذى يحمل البنادق، كان الكثير منها أرقع من البندقية إبرية الشكل العتيقة التى ظهرت منذ ثلاثين عاماً. بعد أربع سنوات، عندما دخلت بروسيا الحرب ضد فرنسا، ونتيجة لحمل تلك البنادق شعر جنود مشاتها بمواطن الضعف نتيجة لاستعمال تلك الأسلحة الخفيفة... كما فعل المشاة النمساويون عند شحن البنادق البروسية



فى ١٨٦٦، كذلك ذبحت البنادق الفرنسية العامرة مشاة بروسيا فى عام ١٨٧٠، وعلى أية حال تغلب على بروسيا شعور بسخرية القدر بما فيه الكفاية. بسبب مدفعيتها بعد أن رأوا أن مدافعهم القديمة ما هى إلا بنادق مصنوعة من خامات رخيصة. مما دعا البروسيون إلى التخلص منها بعد عام ١٨٦٦ وتجهيز انفسهم بحمولة من المدافع صنعت من الفولاذ المتين زهيد الثمن. كما واصلت فرنسا الاعتماد على حامل المدفعية البرونزية القديمة. ثم إن الأداء الحسن للمدفعية منح بروسيا إحساساً بالقوة فى عام ١٨٧٠ بما أجاز لمدفعيتها إبادة الجيش الفرنسى من هدف معين بعيد المدى.

التغيير التقنى المفاجئ بات أمرا شائعا فى العصر الصناعى بعد أن انخفضت كلفة تصنيع المعدات الحربية مما ساعد على تزويد الجيش بمئات الآلاف فى فترة بينية قصيرة إلى حد ما. فى تلك الظروف بات مستحيلا لأى بلد أن تتبارى فى التنمية والمحافظة على حد تقنى متساو مع الخصم المحنك. على الرغم من ذلك، فخارج أوروبا خولت التقنية الجديدة للرجل الأبيض أن يمارس ساديته فى غزو العالم. وكان التصنيع يقوده إلى الشعور بالتكافؤ العسكرى فيما بين البلاد الأوروبية بينما كان يثير هوة سحيقة بين الغرب ومن دونه من دول العالم.

يتجاوز ماكس فورت فى كتابه أحداث الحرب العالمية الأولى كما قفز سابقا فى الحديث عن التقدم فى الأسلحة والاحتشاد الأيديولوجى الذى حدث ما بين أعوام ١٧٥٠ - ١٨٦٦، بالرغم من أن ذلك الصراع قدم تقنية جديدة فى تصنيع المعدات الحربية مما زاد من كثافة التجنيد فى الجبهة الداخلية بشكل متسارع وارتفاع ملحوظ فيها لا يمكن تخيله، لكن بوت فضل أن يلحق تطور الشئون العسكرية بالثورة الصناعية الثانية، وقد تزامن ذلك مع الحرب العالمية الثانية بعد أن أكد على اختراع ثلاث دبابات جديدة، وحاملة طائرات، ومتفجرات وقذائف ثقيلة بما يركز على هزيمة فرنسا فى عام ١٩٤٠، ثم هجوم اليابان على مرفأ بيرل هاربر عام ١٩٤١، ثم القنبلة التى ألقتها أمريكا على طوكيو عام ١٩٤٥[٥].

سرد ماكس بوت الفصول التى ألقت الضوء على تلك الأحداث بشكل جيد، خاصة عندما عرض لأهمية الأسلحة الثلاثة الجديدة التى ابتكرت للاستخدام فى الحروب العالمية. وفى الوقت نفسه اعترف بتحيزه لاختراع الرادار، التحطيم بواسطة الشفرة، والهبوط البرمائى. فضلا عن التحسينات التى أجريت على التقنيات التكنولوجية القديمة مثل الغواصات الحربية وخطوط الإنتاج الصناعية مما أثر أيضا فى صيرورة الحروب.

يقول ماكس بوت:

«إجمالا -على أى حال- حقق الحلفاء فخراً عزيز المنال بعد الحرب فاقت ما حققته دول المحور. أصيبت ألمانيا النازية بكارثة عضال عقب اتخاذ القرارات الهمجية لادولف هتلر. والتى خلقت جوا من الفوضى والبيروقراطية والمشاكل الداخلية فى ألمانيا بينما افتقرت اليابان إلى زعيم واحد يحقق لها سلطة.

لقد كان الصراع بين الدول أشبه بسباق عدو حربى يفتقر إلى التنسيق بين جيشه وأسطوله. البريطانيون والأمريكيون بالتباين شكلوا دمجا موحدا للجنة من رؤساء هيئات أركان حرب على الرغم من بعض الاتفاق الحتمى الذى ربما نسق بينهما محاولة لتكريس مجهود حربى مشترك وهذا ما يؤكده الركض فى القراءة الطولية فى هذا المجلد: فامتلاك البيروقراطية بكفاءة جسد اتخاذ زمام القرار فى بلاد استغلال الثورة العسكرية، لذلك السبب نفسه كانت جيوش الألمان قادرة على بلوغ بوابة موسكو. وجيوش اليابان وقفت عند حدود الهند قبل بدء الهزيمة من حلف المحور الذى نظم نفسه عسكريا بصورة جيدة قبل الحرب، مما أعطاهم فائدة أولية مهمة سمحت بتخطى سوء التقدير الهائل الذى يعيدنا للنظر إلى المحركين الأوائل للثورة العسكرية التى لم تجعلهم بالضرورة فائزين لأجل بعيد.

تلك الملاحظة الأخيرة تجعلنى أنحو إلى تقديم تحذير ربما أفاد صناع السياسة الأمريكية الذين يتعاملون باستمرار مع ثورة المعلومات حيث يؤرخ ماكس بوت منذ بداية التسعينيات للحرب التقنية المتقدمة التى مورست بقذائف صاروخية استهدفت مراكز الحاسوب وأنظمة الملاحة والطائرات التى سرت خلسة فباتت غير مرئية للرادار.

يعلن بوت أنه «لا تزال هناك كثير من الظلمة» التى تؤثر على عصر المعلومات وهى حتى الآن جلية. فضلاً عن أن تعزيز الموقع التكنولوجى الأمريكى يفتح المجال لعدم منح أية أهمية إلى الأمم الأخرى التى تظهر أكثر تقليدية بل تخلفاً عنها.

تعد المدفعية الأمريكية فى طليعة التطورات العسكرية العالمية مما يجنح بنا إلى تأكيد ذلك عبر ثلاثة من الاجتياحات الأمريكية المعاصرة أولها تلك الحاملات التى حدثت بقيادة الولايات المتحدة فى الكويت والعراق فى يناير وفبراير عام ١٩٩١ ثم أفغانستان فى أكتوبر وديسمبر ٢٠٠١ ثم العراق من مارس ٢٠٠٣ حتى مايو ٢٠٠٥ وهى أطول مدد الاجتياح عن سابقتيها. وقد أنهى ماكس بوت سرد تلك الأحداث بشكل غامض يتناسب مع تقدير النتيجة: «الدرس الذى أرادت الولايات المتحدة أن ترسخه فى العراق مشابه للدرس الذى قدمته القوات العسكرية فى ساحات المعارك الأخرى، حيث الميكنة العسكرية قد تم تكريسها لغرض واحد -مهما كان المبرر لذلك رائعاً لأصحابه أو مرضياً- فالدرس الذى تعلمته أمريكا فى حربها مع العراق ليس بهين: ألا و هو أن الأجهزة العسكرية من جيش ومدافع إنما جهزت لهدف لا يمكن إعادة توجيهه لهدف آخر مهما كان حجم تفوقها، فمثلا أسلحة أسبانيا التى تتناسب مع مياه هادئة مثل البحر المتوسط ليست بنفس الكفاءة لخوض غمار البحار الهادرة فى شمال اوروبا .وفى ألمانيا تم تجهيز جيشها للهجوم وسط مساحات ضيقة جدا. لذا، لن يستطيع الهجوم فى السهول الواسعة فى روسيا ..

وفى حالة حرب أمريكا ضد العراق فإن القوات المسلحة مجهزة لخوض معارك أكثر مراوحة فى الصحراء العربية او السهل الأوروبى ولذلك لم ينجح هذا الجيش فى شوارع العراق وأزقتها .

وقد وجدت أن كتابة ماكس بوت تنحو الى عدم الاستقرار فى تلك النقطة فى قسم من الكتاب تحت عنوان «قوة أمريكا التى لا تبارى» حيث كتب: «مع بداية سنوات القرن العشرين تمتعت الولايات المتحدة بتفوق عددى فى الجيش مقارنة بأية أمة فى التاريخ؛ وقد ترسخ ذلك عبر عقود ، فصارت الولايات المتحدة اليوم أكبر قوة على الأرض ، وفى البحر، فضلاً عن جبروت سلاحها الجوى بما لا يدع مجالاً لمنافس آخر، على الرغم من أن هيمنة القوات الأمريكية يمكن ألا تكون بالكفاءة نفسها إذا تماست مباشرة مع أى عدو على أرضه. إلا أنهم سادة -بلا شك- على جميع الأوجه (البحر- الهواء- الفضاء) بما يسمح لهم بتوجيه تلك القوة الى أى مكان فى العالم فى برهة قصيرة.

وفى عصر المعلومات استطاعت الولايات المتحدة أن تصنع لنفسها منزلة حربية عالمية صارمة ليس فى الكم مثلما حدث أثناء العصر الصناعى الثانى، حيث كان كل من الجنود والمعدات هما الأفضل على وجه الأرض. لكن كيف يمكن قبول قدرتها على أن «تسلط نفوذها على أى مكان فى العالم؟» إذا كان الجنود الأمريكيون قادرين على التحدى عند التماس المباشر مع العدو على أرضه. ويمكن أن تتوقع الولايات المتحدة اكتشاف ثم هزيمة المجموعات العشوائية التى تطلق عليها «الإرهابيون» ومن ثم تلهب حمية الغضب وهى أشد وحشية من احتلال الأراضى البعيدة، هكذا تمهدت الحكومة الأمريكية!

تنبؤ غير واعد بالنجاح

إذا لم تنسق الحكومة الأمريكية الزمن الصناعى للبيروقراطية مع

إذا أردت أن تحارب مثل الأوروبيين فعليك أن تكون« أوروبياً » بمعنى أنه لا بد أن تتبنى على الأقل بعضا من الديناميه، وحب الاستطلاع الثقافى، والعقلانية، فضلا عن الكفاءة التى اختص بها الغرب منذ حلول «عصر البارود»



نفوذها و وتشكل منظمة متشابكة ستجد من يهيمن على أفضل التقنيات ويزود الحماية لخصومها من الدول. ويبقى السؤال الى أين يمكن توجيه الجيش الأمريكي؟ في الواقع يمكن لشبكة العمالة الميكانيكية المستقلة أن تتحكم بسهولة من المركز وتخاطر بتحويل القوات المسلحة الأمريكية الى نسخة طبق الأصل من الجماعة الرخوة المغامرة ذائعة الصيت والارهابيين العشوائيين الذي لا يمكن السيطرة عليهم.

الجزء الختامي من الكتاب يدور حول «ثورات الماضي- الحاضر- المستقبل» ويعاني من نفس الارتباك الذي عم باقي فصول الكتاب ، حيث حدد ماكس بوت التباين الهائل المحتمل بين الأسلحة الآلية ومنها حرب النجوم، الأسلحة المشعة، فيروسات الحاسوب، التكنولوجيا الدقيقة، والحرب الجرثومية ؛ وذلك عند استنتاجه: «أن التقدم البيولوجي وعلم الحرب الآلية يعدان بوضع كل شيء قيد إمكانية قصوى من التدمير على أيدي المجموعات القليلة التي تعمل على الانتشار المستمر للأسلحة النووية»، وفقاً لذلك، تكون الولايات المتحدة قد حققت مزيداً من التعويض عما ينقصها في حروبها الوعرة ، لكن ذلك لا يعني أنها يمكن أن تتغافل عن المخاطر العظمى للحرب القتالية أو قواعد التغير التكنولوجي؛ لذلك فابتكار وسائل التجديد في الحروب ينبغي أن ينتظم بقدر تقني، مما يحتاج للتركيز على التهديدات الكامنة عبر الرؤية الكلية بدءاً من حروب العصابات الأولية حتى الصراعات الشديدة الحالية، لذا طبقاً لنظرة بوت يجب أن يتزايد تغير كل شيء بخطوة متسارعة مستمرة حسب مقياس لا محدود، لكنه لم يوضح كيف يتم ذلك عملياً ؛ بل إنه لم يتساءل: كيف للمجتمع الأمريكي أو أي مجتمع إنساني آخر أن يتحمل الانتشار المتواصل للمغامرة العسكرية ومن ثم الإنفاق عليها. بالتأكيد هناك نهاية لذلك حيث لن تستطيع الحكومة أن تستمر في المزيد من المصاريف بشكل غير محسوب دون الاعتماد على قدر من المساعدات الخارجية لتمويل شراء بعض من احتياجاتها الحربية باهظة الثمن، وهو ما تقوم به الولايات المتحدة بالفعل الآن. وسوف يؤدي ذلك إلى استمرار الولايات المتحدة في خوض مغامرة الحروب التي تشنها على العالم التي بدأت منذ عام ١٩٥٥ على فيتنام؛ مروراً بأفغانستان ثم انتهاء بالعراق التي ألهبت المعارضة الداخلية والخارجية ضد الولايات المتحدة، وبلا شك إذا تغيرت تلك السياسة الأمريكية العبثية ستتقلص بعض المعارك وتستعد الحكومة الأمريكية للتحضير بشكل نشط لمزيد من الحروب المستقبلية؛ وعندئذ سيحدث لها انهيار عام على المستويين الاقتصادي والاجتماعي مثلما حدث فعلياً في الاتحاد السوفيتي، وذلك ما سيحدث لنا بالقطع عند التوسع بلا حدود في مؤسساتنا العسكرية حسب منظور ماكس بوت المستقبلي.

لقد حدد بوت جيداً كيف تمت الجهود الفرنسية لنشر الحرية والمساواة مع من يجاورها من الأمم الأوروبية الذين تأثروا سلبياً بلا شك منذ عام ١٧٩٣ حتى عام ١٨١٥؛ ومن ثم انصبت ملاحظاته المستقبلية أكثر حول «الحرب على الإرهاب» التي ربما تكون الإجراءات حولها أكثر إقناعاً. بشكل عام إذا لم يعتقد بوت أن التقدم التقني في التسليح إضافة الى التعديلات الملائمة في القيادة والتحكم سيضمن النجاح في الحرب وكذا فهمه للماضي والمستقبلي من الحرب أكثر قبولاً.

على الأغلب، ظهر لي تأكيد ماكس بوت على أربع ثورات منفصلة متمايزة منذ القرن السادس عشر (بدءاً من عام ١٥٠٠) مع التركيز على التغير المستمر واسع الانتشار الذي ثبت في حقب زمنية اتسمت بالتجديد العسكري. وحسب اعتقاد بوت، من الأهمية بمكان عدم التعدي على شئون الحياة الإنسانية، لذا خطط قصة الثورات الأربع بإحكام، بعد أن قلل من واقع المفاجآت، مع فحص الواقع الإنساني الأخلاقي والثقافي بالإضافة الى الاقتصادي والاجتماعي الذي يحدث في إطار أي حروب قتالية، خاصة لدى المقاتلين المحترفين الذين لم تكن حياتهم الاجتماعية بمعزل عنهم - مثل الآخرين- ومن ثم يأخذون بعين الاعتبار محاولة فهم انهزاماتهم قبل انتصاراتهم. *

هوامش

(١) Aramada أسطول حربي إسباني عُرف بقدرته على محاربة الإنجليز وسُمي بالارمادا التي لا تُقهر. (م)

(٢) Sepoy السباهي وهو الجندي الهندي في الجيش الانجليزي. (م)

(٣) Maratha الماراثاويون طائفة هائلة من الشعب الهندي يسكنون الغرب.(م)

(٤) Handicapped أتت في النص بمعنى إعاقة بينما معناها الأصلي سباق العدل الذي تعطى فيه الأفضلية للضعيف على القوي بحيث تصبح فرص الكسب متكافئة. (م)

(٥) يقصد المأساة التي خلفتها القنبلة النووية على هيروشيما وانتهت معها الآثار المدمرة للحرب العالمية الثانية.(م)

كتاب الزاوية

حياة الرافعي

نسبه ومولده

الرافعي سوري الأصل، مصري المولد، إسلامي الوطن: فأسرته من (طرابلس الشام) يعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه، ولكن مولده بمصر وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثرون من بني عمه وخئولته منذ أكثر من قرن؛ وهو في وطنيته (مسلم): لا يعرف له أرضًا من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول: وطني. فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول: «الوطنية المصرية...» أو «الوطنية السورية...» أو «الوطنية العراقية...» إلا كما تسمع أحدًا يقول: هذه داري من هذا البلد، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذي يضم أشتاتًا من البلاد والمدائن. وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم، هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية: وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامي الأكبر، ينتظمها جميعًا كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد.

وأم الرافعي كأبيه سورية الأصل، وكان أبوها الطوخي تاجرًا تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، وأحسب أن أسرة الطوخي لاتزال معروفة هناك. على أنه كان يتخذ مصر موطنًا له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي، وكانت إقامته في (بهتيم) من قرى مديرية القليوبية وكان له فيها ضيعة، وفيها ولد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في يناير سنة ١٨٨٠م.

المسلمون على جبال الألب

محمد السماك

■■ هناك اعتقاد عام بأن المسلمين العرب بعد أن دخلوا إسبانيا في عام ٧١١ وأقاموا فيما بعد دولة الأندلس خسروا معركة بواتيه Poitiers في جبال البيرينيه Pyrenees في عام ٧٣٢ وأن خسارتهم تلك تعود إلى كونهم «صحراويين» لا يتحملون البرد ولا الطبيعة الجبلية الوعرة بما فيها من غابات ووديان.

وهناك اعتقاد عام أيضا بأنهم بعد تلك الهزيمة التى لحقت بهم على يد شارل مارتل Charles Martel انغلقوا على أنفسهم فى الأندلس حتى دالت دولتهم بسقوط غرناطة.

هذه الدراسة تحاول أن تقدم وقائع علمية تثبت أن هذه الاعتقادات ليست صحيحة. كما تحاول أن تبين كيف أن المسلمين وصلوا إلى جنوب فرنسا واحتلوا مدناً مثل ليون وغرونوبل. كما وصلوا إلى سويسرا وحاصروا جنيف ولوزان وسيطروا على شمال إيطاليا. وأنهم أقاموا المستوطنات فى جبال الألب. وأشرفوا بصورة مباشرة ولمدة قرن تقريباً على الممرات الألبية الاستراتيجية فى الغرب وفى الشرق على حد سواء.

وثمة آثار تركها العرب المسلمون فى هذه المناطق جرى التعتيم عليها طويلاً. إلا أن العلماء بدأوا التنقيب عنها مؤخراً. ولا يقتصر التنقيب فى بقايا القلاع أو حتى الأديرة (التى كانت مساجد) فقط. إنما فى بعض العادات والتقاليد، ومنها مثلاً عادة الامتناع عن تربية الخنازير، وفى أسماء العديد من المواقع التى تقع فى عمق جبال الألب والمتداولة حتى اليوم.. وكذلك فى أسماء بعض العائلات من السكان الحاليين فى بعض الأودية الجبلية.

وتعتمد هذه الدراسة أساساً على بحث أعده البروفيسور مانفرد وينر Manfred Wenner أستاذ التاريخ فى جامعة اليونز الأمريكية ونشرته مجلة دراسات الشرق الأوسط Middle East Study فى عددها رقم ١٢ الصادر عام ١٩٨٠ تحت عنوان: «الوجود العربى - الإسلامى فى وسط أوروبا فى العصر الوسيط».

ان الوقائع التاريخية والتى لا يزال بعض آثارها قائماً حتى اليوم تثبت أنه بعد ثلاثة قرون على معركة بواتيه التى تعتبر بداية نهاية التوسع العربى الإسلامى فى أوروبا، حافظ المسلمون على تواجدهم فى عدة مناطق من أوروبا خارج شبه جزيرة ايبيريا (إسبانيا والبرتغال). ومع أن هذا التواجد كان موضع إهمال أو تناس فى إطار الصورة الأوسع للعلاقات الإسلامية - المسيحية خلال فترة القرون الوسطى، فقد تبين للباحثين المتخصصين فى القرنين التاسع عشر والعشرين أنهم تركوا وراءهم تراثاً أكبر بكثير مما كان يُعتقد من قبل.

ولعل أكثر مواقع التواجد إثارة للاهتمام تلك التى أسفرت عن سيطرة المسلمين العرب على الممرات الاستراتيجية فى سلسلة جبال الألب التى تربط إيطاليا ببقية أوروبة وذلك لعدة عقود فى القرن العاشر الميلادى.

إن هذه الدراسة هى إيجاز سريع لأحداث تلك المرحلة. وهى تحاول تحليل الدوافع التى أدت إلى التوغل الإسلامى فى أوروبا الغربية، وإلى أسلوب إدارة المسلمين لتلك المناطق التى لم تكن جزءاً من الدولة الإسلامية، وأخيراً إلى المشروعية الحديثة التى يمكن استخلاصها من تلك المرحلة عندما سيطرت القوات العربية - الإسلامية على جزء هام من طرق المواصلات الأوروبية الغربية.

فى الوقائع:

فى وقت ما حوالى عالم ٨٨٩ ميلادية، نزلت قوة صغيرة من المسلمين العرب (قوامها حوالى ٢٠ رجلاً) فى منطقة فرنسية على ساحل البحر المتوسط قريبة من منطقة تعرف اليوم باسم «سان تروبيز St. Tropez». وكانت هذه المنطقة تُعرف فى القرون الوسطى باسم «فراكسيناتوم Fraxinetum». أما اليوم فإنها تعرف باسم «فرينيه Frainet» وهى تقع فى إقليم الـ «فار Var» جنوب فرنسا.

ويبدو أن الموقع والمحيط العام كانا مناسبين للمسلمين العرب الذين أقاموا التحصينات الدفاعية، ومن ثم استقبلوا بعد عدة سنوات هجرات متلاحقة، بما فى ذلك هجرات من النساء والأطفال.

ووفر جبل مجاور للموقع يُعرف اليوم باسم جبل الـ «مور Maures» (وهو الاسم الذى كان يطلقه الأوروبيون على عرب الأندلس) حجر الزاوية فى منظومة الدفاع ضد الهجمات البرية. ومع الوقت نمت هذه المستوطنة حجماً وسكاناً.

> **خلال عهد الأمراء (لاحقاً الخلفاء) فى قرطبة، أصبح تقليداً القيام بغزوات متواصلة على المناطق التى تُعرف اليوم بفرنسا وإسبانيا.. وكانت تلك الغزوات تسمى بـ «الصيفية»**

وما أن تمّ تحصين هذه المستوطنة ضد أى هجوم معاكس، حتى بدأ العرب المسلمون توسيع هيمنتهم إلى الممالك المجاورة، ومنها مملكة بورغوندى Burgundy، ومملكة إيطاليا Piedmont. ولما لم تبد تلك الممالك مقاومة تذكر، ولما كانت عائدات الهيمنة عالية، تمكنت المستوطنة العربية الإسلامية فى فراكسيناتوم Fraxinetum من جذب المزيد من موجات العرب المسلمين من إسبانيا الإسلامية (الأندلس).

واستناداً إلى مصادر معاصرة فإن السبب الرئيس الذى أدى إلى توفير حرية الحركة نسبياً فى هذه المناطق، هو أنها كانت مقسمة الولاءات بين عدد كبير من الأمراء والنبلاء الأوروبيين الصغار، وكان الواحد منهم حتى يستقوى على الآخرين، لا يتورع عن التحالف مع المهاجمين العرب المسلمين.

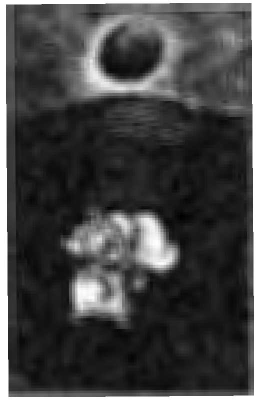
وطوال العقود الثلاثة الأولى من القرن العاشر، أى حتى عام ٩٣٠ ميلادية، لم يقم القادة الأوروبيون المحليون بأى عمل مضاد يذكر. وخلال هذه السنوات نجح العرب المسلمون فى اقتحام أو تدمير جزئى أو كلى لعدد من المدن مثل مدينة «أستى Asti» ومدينة «أكوى Acqui» فى الشرق، وكذلك عدد من الأديرة فى «نوفاليز Novalise» و«أولكس Oulex»، و«أمبرون Embrun» و«فيينا Vienne» و«فالنسيا Valence» فى الغرب؛ كما شنوا هجمات أساسية على عدد آخر من المدن، مثل مدينة «اكس أون بروفانس Aix-en-Provence» و«مرسيليا Marseille» فى الجنوب.

وأهم من ذلك كله: تمكن العرب المسلمون فى ذلك الوقت من السيطرة على الممرات الثلاثة الأساسية بين فرنسا وإيطاليا. وهى: «سان برنارد St. Bernar» وجبل «سانيس Mt. Cenis» وجبل «جنيف Mt. Geneve». وبذلك أصبحوا قادرين على السيطرة على طرق التجارة، وعلى التحكم بحركة الحجاج من المناطق الشمالية والغربية والذين يستخدمون هذه الممرات فى طريقهم إلى روما.

ويبدو أن هذا العامل الأخير هو الذى أدى إلى بذل أول جهد جدى لإخراج العرب المسلمين من مستوطنة «فراكسيناتوم Fraxinetum». ففى عام ٩٣١ هاجمت وحدات من الأسطول اليونانى البيزنطى المستوطنة من البحر. ولكن يبدو أن هذا الهجوم لم يكن مؤثراً، ذلك أن الوقائع عن أحداث ذلك العام، تثبت أن العرب المسلمين كانوا لا يزالون يسيطرون على الممرات الرئيسة فى جبال الألب الغربية. بل إن عملياتهم ازدادت حجماً وضراوة، ذلك أنه، وعلى سبيل المثال، كانوا وراء مقتل رئيس الأساقفة روبرت Archbishop Robert مطران تورز Tours، وهو فى طريق عودته من روما عبر أحد الممرات الغربية.

وفى العقد التالى، ازدادت بشكل كبير مساحة الأراضى الخاضعة لسيطرة العرب المسلمين.





وتجاوزت عملياتهم شمال الألب ووصلوا إلى الدير الشهير في سان موريس St. Maurice في وادي الرون Rhone. وفي الوقت نفسه تركوا آثارهم حتى في شمال الوادي (الرون) أيضاً. وغنموا مواقع المطرانية في شير ريتيا Chur in Rhaetia.

ولأن المغاربيين بداوا في ذلك الوقت غزواتهم واجتياحاتهم لوسط وغرب أوروبا، فإن الوقائع التي شهدتها تلك العقود من القرن العاشر تتسم بحالة من الإرباك، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها دائماً. من أجل ذلك فإنه ليس واضحاً تماماً أي طريق سلكه المسلمون العرب في تقدمهم إلى ما يعرف اليوم بجنوب سويسرا، ثم إلى المناطق الشمالية الأبعد. إلا أن هناك ثلاثة طرق محتملة، لكل منها ما يبرر الاعتقاد بأنهم سلكوه. كما أن لكل منها من يشكك فيه. أول هذه الطرق المحتملة هي أن المهاجمين العرب المسلمين تقدموا بشكل منهجي مع وادي الرون Rhone Valley، واجتازوا ممر فوركا Furka Pass ومن هناك تابعوا خط الراين Rhine. ويقدم البعض دليلاً على ذلك أسماء عربية لبعض المواقع (مثلاً برج السراسين - أي برج المسلمين العرب) قرب مدينة فافي Vevey السويسرية، ووجود مقبرة في منطقة جنيف للمسلمين العرب.

أما الطريق الثاني الذي يحتمل أن يكونوا قد سلكوه فهو طريق جبل سينيس Mont Cenis عبر السهول الإيطالية الشمالية، شمالاً حتى سويسرا اليوم عبر ممري برناردين Bernardin وسبتيمر Septimer. غير أن عدم توفر سجلات عن آثار عمليات قام بها المسلمون العرب في المدن المجاورة للممرين أو في ضواحيهما، تلقي بعض الشك على هذا الاحتمال.

أما الاحتمال الثالث فهو التقدم عبر ممر سان برنار St. Bernard ومن ثم شمالاً عبر سلسلة أودية التلال الألبية، ومواصلة التقدم شمالاً عبر الممرات المتوفرة: جبل مورو Monte Moro (جبل المغاربة)، ثم لوقمانير Lukmanier (لقمان) وغيرها. وهذه الطريق وفرت لهم مواجهة الحد الأدنى من المقاومة، ثم إنها معززة بعدد كبير من أسماء المواقع التي قد توحي بأنها عربية الأصل.

على أي حال، وأياً كانت الطرق التي سلكوها، يبدو أنه في العقد الثالث من القرن العاشر، استقر العرب المسلمون بشكل جيد في بعض المدن الإيطالية الشمالية الواقعة في وديان التلال الألبية (على سبيل المثال: فيرسيلي «Vercelli»).

السجلات الأوروبية عن تلك المنطقة تتضمن معلومات عن غزوات إسلامية في المناطق الأوروبية بعد هزيمة بواتيه

وسيطروا على الأقل على الطرق الرئيسة في الألب التي تربط الشمال بالجنوب، وهي: سان برنارد الكبير Great St. Bernard، وبيرنهاردين Bernhardin وسبتيمر Septimer، ومع احتمال سيطرتهم أيضا على جبل مورو Mont Moro ولقمانير (لقمان)، وربما سيمبلون Simplon أيضاً.

مرة جديدة أدى توسع المسلمين العرب، وطبيعة العمليات التي كانوا يقومون بها، إلى بذل الجهد الأوروبي المشترك لتدمير فراكسيناتوم Fraxinetum، باعتبارها قاعدة العمليات. حاولت قوات تابعة للملك الإيطالي هيغو Hugo شنّ هجوم مشترك على المدينة بالاشتراك مع البيزنطيين.

واستناداً إلى وقائع معاصرة لتلك الفترة، فإن سيطرة اليونانيين على البحر من جهة، والهجوم البري للملك هيغو عبر جبل مور Mont Maures من جهة ثانية، كان على قاب قوسين أو أدنى من النجاح. ولكن الملك هيغو الذي فوجئ بمنافس شديد المراس على عرشه، قرر توجيه اهتمامه نحو مصالحه الشخصية، أي نحو مستقبله على العرش الإيطالي.

ففي ذلك الوقت، ادعى بالعرش الكونت بيرينغار Berengar من إيفريا Ivrea وحشد لتأييد ادعاءاته. وحاول بشكل خاص الحصول على دعم هيرمان Hermann من صوابيا Swabia، واجتاز من أجل ذلك ممر سان بيرنار الكبير في طريقه شمالاً للحصول على المساعدة الضرورية. هنا ألغى الملك هيغو هجومه على مستوطنة «فراكسيناتوم» القاعدة العربية، ودخل بدلاً من ذلك في حلف مع المسلمين العرب. وبموجب هذا الحلف سيطر العرب المسلمون على جميع ممرات الألب من الغرب (جبل جنيفر Mont Genevre) إلى الشرق (ممر سبتيمر Spetimer).

وعلى الرغم من ان الأمور استقرت لهم، فإن المسلمين العرب استناداً إلى بعض الوقائع، شنوا مزيداً من الهجمات على المناطق الواقعة في شمال الألب. وعلى سبيل المثال هوجمت شور Chur اكثر من مرة، كما هوجمت سان غالين St. Gallen التي تقع بالقرب من بحيرة كونستانس Constance وذلك في عام ٩٥٤ ميلادية وهو العام نفسه الذي وقعت فيه أيضاً مدينة غرونوبل Grenoble في الغرب بأيدي العرب المسلمين.

يبدو ان المسلمين العرب بلغوا في تلك الفترة أوج قوتهم. وعلى الرغم من وجود وقائع تعود إلى عام ٩٧٢ (من هذه الوقائع بشكل خاص فرض ضريبة على سان مايولوس St. Majolus في كلوني Cluny) تؤكد سيطرتهم على سان برنارد St. Bernard، فإن الوقائع المعاصرة تتوافق مع التراجع العام في عملياتهم. (إضافة إلى ذلك هناك وقائع مسجلة عن اعتناق المسيحية من قبل عناصر من الوثنيين في المناطق الجبلية، وهو أمر استمر حتى بدايات القرن الحادي عشر).

وفي أواخر عام ٩٩٠ استرجع الأوروبيون مدينة غرونوبل Grenoble من المسلمين العرب، كما أن مجموعة من الممرات الجبلية التي كان يعبرها ملوك أو شخصيات سياسية مرموقة لم تعد بيدهم أيضاً.

وفي عام ٩٧٥ جرت محاولة جديدة للسيطرة على القاعدة العربية - مستوطنة فراكسيناتوم، قام بها تحالف من النبلاء: وليهام Duke Wilhelm نبيل اوليز Arles، والكونت اردوين Arduin، نبيل ايفريا Everea وتورين Turin، وربما الكونت روبالد Robald، نبيل البروفنس Province.

هذه المرة نجحت المحاولة وتمت السيطرة على فراكسيناتوم. فتشتت سكانها المسلمون وطُرد بعضهم، وحُوّل بعضهم الآخر بالقوة إلى المسيحية، وأُجهز على بعضهم، وبيع البعض الآخر عبيداً في سوق النخاسة.(وقد بقيت ذرية هؤلاء عبيداً في المنطقة حتى بعد مرور أربعة قرون). ويبدو أن القليل جداً منهم تزوج واستقرّ محلياً.

الدوافع:

من الصعب الجزم بدقة في أسباب إقامة مستوطنة فراكسيناتوم. فاستناداً إلى العديد من الكتّاب (بما في ذلك وقائع تلك المرحلة)، كان غرب البحر المتوسط مسرحاً لهجومات مسلحة متبادلة بين المسلمين والمسيحيين، إلا أن اليد العليا كانت للمسلمين الذين وصفهم الكتّاب الغربيون والمؤرخون منهم بالقراصنة، واتهموهم بالتسبب في زعزعة التجارة والحياة الاقتصادية المحلية. واستناداً إلى ذلك تكوّن اعتقاد بأن عاصفة هوجاء ربما تكون قد دفعت إلى الشاطئ المجموعة الصغيرة التي أقامت تلك المستوطنة. وهو اعتقاد يوحي بأن قيام مستعمرة فراكسيناتوم كان مجرد صدفة.

ولكن هناك نظرية أخرى تقول انه خلال عهد الأمراء (لاحقاً الخلفاء) في قرطبة، أصبح تقليداً القيام بغزوات متواصلة على مناطق الحكام المسيحيين، وهي المناطق التي تُعرف اليوم بفرنسا وإسبانيا. وكانت تلك الغزوات تسمى بـ«الصيفية» لأنها كانت تجرى خلال فصل الصيف. ويبدو أن الهدف الأساس من وراء تلك الغزوات الصيفية هو إظهار الالتزام الديني بركن الجهاد، والذي لا يمارس إلا خارج حدود دار الإسلام.

وبما أن المشاركين في الغزوات كانوا يحصلون على كميات كبيرة من الغنائم، فيبدو واضحاً أنه كان هناك هدف آخر وراءها، وهو زيادة الثروات الشخصية للطامحين والمغامرين. ولعل هذا ما يفسر على سبيل المثال، مشاركة مسيحيين ويهود في تلك الغزوات، كما تؤكد تلك الوقائع. على أي حال ألحقت «الصيفية» بالسكان المحليين صعوبات كثيرة. ذلك أنه بالرغم من المبالغات

المسيحية حول السلوك الإسلامى، فمن الواضح أن غزو وتدمير القرى الصغيرة والقضاء على المحاصيل الزراعية كان سلوكاً عاماً.

وهناك مؤشرات إلى أن بعض هذه الغزوات على الأقل، كان يُنفذ من أجل الحصول فى الدرجة الأولى على أسرى من الرجال يطلق عليهم اسم «الصقالبة»، وكانوا يُنقلون إلى إسبانيا ومن ثم ينضوون فى الخدمة الشخصية للأمير / الخليفة. وبما أنهم كانوا يعتبرون رجالاً أشداء يمكن الاعتماد عليهم فى القوات المسلحة والحرس الشخصى، وبما أنهم كانوا يدرّسون ويدُرّبون فى المعاهد الإسلامية من أجل هذا الهدف، فإن هذه العملية تشبه ما قام به سلاطين بنى عثمان -فيما بعد- الذين كانوا يجندون ويوظفون السجناء المسيحيين (قوات الانكشارية). وفى الحالتين غالباً ما كان السجناء الذكور يُخصون.

وتشير كل من السجلات الإسلامية والمسيحية معاً إلى ممارسة عمليات الحصول على «الصقالبة» من مختلف المناطق، رغم انه يبدو أن المصدر المفضل كان وادى «الرون Rhone وشمالاً حتى ميتز Metz وفردان Verdun.

ومن المثير للاهتمام هو أن اليهود فى هذه المنطقة تصرفوا باستمرار كوسطاء بين الأسبان المسلمين والمصادر الأوروبية التى كانت تزودهم بالرجال. إن يهود منطقة براغ Prag، وهى مركز آخر للتزود بالرجال ساهموا تحديداً فى هذا النوع من التجارة. مع ذلك فإننا لا نعرف ما إذا كان هؤلاء الوسطاء اليهود قد استقدموا من إسبانيا، أم انهم كانوا يقومون بنشاطهم التجارى كأعضاء فى الجالية اليهودية من أبناء تلك المناطق.

إن مصدر كلمة صقالبة نفسه كان موضع جدال بين اللغويين. وذلك لأن الرحالة العرب فى القرون الوسطى كانوا يطلقون على السلاف فى أوروبا الوسطى اسم صقلبى للمفرد، وصقالبة للجمع. ولا يعرف ما إذا كان هذا اللفظ العربى مشتقاً من أصل لاتينى أى من كلمة اسكلافوس Esclavus ومعناها العبد، أو من الكلمة العربية للسلاف. ويبدو انه يمكن العودة بها إلى اى من المصدرين.

النـمـاذج الإداريـة:

من المتفق عليه بصورة عامة أن الجيوش العربية الإسلامية التى أقامت الإمبراطورية المترامية الأطراف فى القرن الذى أعقب وفاة الرسول محمد (ص) كانت قد استحدثت مبادئ متطورة نسبياً لإدارة الأراضى والشعوب التى خضعت لاحتلالها. ورغم هذه المبادئ، يبدو أن العناصر المتقدمة من الجيوش المنتصرة كانت أقل اهتماماً بجماليات الإدارة العامة. فالقانون الذى استحدث أو الذى جرى تطويره للتعامل مع شعوب الأراضى الجديدة الخاضعة للإدارة الإسلامية، لم يكن باستمرار موضع التزام.

إذ أنه ما أن يثبّت الاحتلال أقدامه، حتى يبدأ العمل بالإجراءات الإدارية التى كانت تعكس قدراً كبيراً من التسامح مع الشعوب المحتلة ومع معتقداتها وممارساتها الدينية والاجتماعية. وليس هذا هو الموضع المناسب الآن للحديث على سبيل المثال - عن الإنجازات الإدارية والثقافية للإدارة العربية فى إسبانيا وصقلية أو فى غيرهما من الأراضى التى جرى أسلمتها. غير أنه يبدو أن السؤال الهام فى هذا الشأن، هو: متى ولأى سبب كانت الجيوش العربية وقادتها يقررون وضعية المنطقة الجديدة ووضعية سكانها، وبالتالى تحديد النماذج الإدارية التى كانت تطبق عليها؟ فبالرغم مما كان يتمتع به الخليفة فى قرطبة من مواصفات كريمة وإيجابية. فإن السجلات الأوروبية عن تلك المنطقة تتضمن معلومات عن غزوات إسلامية فى المناطق الأوروبية بعد هزيمة بواتيه Poitiers، وهى سجلات حافلة بتقارير عن سلوك معاكس. فإلى ماذا يمكن أن نعزو هذه النماذج البائسة من سلوك القوات العربية الإسلامية؟.

من المؤكد أنه من الصعب التحقق بدقة فى هذا الوقت المتأخر من صحة هذه الأحداث ومن نماذج السلوك التى كانت ترتبط بها. ولكن هناك ما يبرر بوضوح التعامل بشىء من الريبة والشك مع المصادر المسيحية المتعلقة بالمسلمين العرب. مع ذلك يبدو أنه بالإمكان التوصل إلى استنتاجات عامة، فمن اللافت للانتباه أننا لا نملك مصدراً عربياً واحداً معاصراً عن تلك الأحداث التى جرت هناك. علماً بأنه يمكن فى المستقبل إلقاء الضوء على بعض هذه المصادر. ويبدو مشروعاً فى هذه المرحلة، أن نستنتج بأن علية القوم فى قرطبة، لم يكترثوا كثيراً للنشاطات التى كانت تقوم بها مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum. وفى الواقع فإنه رغم أن ثمة دليلاً يشير إلى أن أعدادا كبيرة من المسلمين العرب كانوا معنيين بنشاطات المستوطنة على مدى مائة سنة، فإن المعلومات الجغرافية والسياسية والاجتماعية عن أوضاع المنطقة التى سيطروا عليها لم تجد طريقها إلى أوروبا.

وعلى الرغم من أن هناك دلائل على وجود اتصالات تجارية متطورة وعلى الرغم من أننا نعرف من مصادر أوروبية وعربية أنه جرى على الأقل اتصال ديلوماسى واحد بين الأوروبيين المسيحيين (الملك اوتو الأول Otto) والخليفة فى قرطبة (عبد الرحمن الثالث)، وعلى الرغم من أننا نعرف أن هدف هذا الاتصال كان التمنى على الخليفة وقف مساعداته إلى مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum، فإن كل ما يتضمنه هذا العرض من الأحداث لم يأت المؤرخون المسلمون على ذكرها، كما أنها لم ترد فى أى من وثائقهم.

ومن شأن ذلك أن يقدم لنا دليلاً حول الاستنتاجين التاليين:

١ - إن نشاطات مستوطنة فراكسيناتوم كانت فى كليتها أو فى معظمها تقوم بها قوات غير نظامية. أى قوات متجمعة من القراصنة والمرتزقة (بمن فيهم مسيحيون ويهود ومسلمون) من دون أن يكون بينهم أحد من العلماء.

٢ - إن النظرة إلى نشاطات مستوطنة فراكسيناتوم لم تكن تتعدى كونها رحلة «صيفية» ناجحة، أو ربما براءة للذمة الدينية فى ممارسة «ركن الجهاد»؟!.

تؤكد الأدبيات المعاصرة، ولاحقاً الأدبيات الأوروبية، إن التفسير الوحيد لتراجع القوات العربية - الإسلامية من المناطق الألبية، يعود إلى غضب السكان المحليين الذى انفجر بعد السيطرة على سانت مايولوس St. Maiolus لفرض الخوة على السكان. ولكن فى ضوء المحاولات غير المجدية التى جرت خلال العقود القليلة الأولى من وجودهم، فإن هذا التفسير يبدو غير مقنع. إن قراءة متأنية للابسات توسع وتراجع مستوطنة فراكسيناتوم تشير إلى احتمال وجود عامل آخر قد يكون مهماً. وهو عامل غفل عنه الكتّاب السابقون، ويتعلق بدور الخليفة فى قرطبة فى رعاية أو حتى فى دعم هذه «الصيفية».

ويبدو أن موت الخليفة عبد الرحمن فى عام ٩٦١، واعتلاء ابنه الحكَم الثانى العرش، شكل نقطة تحوّل جذرية. فالمستندات المعاصرة والحديثة تؤكد أن الحكَم كان أكثر تسامحاً وحباً للسلام من والده، وأن سياساته الداخلية والخارجية، وكذلك سلوكه الشخصى الذى تشير إليه هذه المستندات، تجعل من الممكن القول أنه - أى الحكَم - رفض مواصلة دعم «الصيفية» التى كانت تزعج مسيحيى أوروبا الوسطى.

ومن الممكن أن يكون قد أوقف الإذن بالسماح للقوات المساندة بالتوجه إلى مستوطنة فراكسيناتوم من المرافئ الإسبانية. ولعله تأثر باتخاذ هذا القرار بالبعثة التى كان قد أوفدها الملك اوتو الأول Otto إلى قرطبة. وهكذا، وبانعدام هذا الدعم (المادى والبشرى) بات من الطبيعى أن تصبح للسكان المحليين فى المناطق الألبية اليد العليا.

وبما أنه يفترض أن يكون المسلمون قد منوا بخسائر فى الأرواح من خلال اشتباكاتهم المتواصلة مع السكان المحليين، وبما انه يفترض أيضاً أن يكونوا قد منوا بمثل هذه الخسائر فى المعارك التى خاضوها ضد الهنغاريين الذين كانوا يجتاحون المناطق الغربية من أوروبا، فقد كان من الضرورى بالنسبة إليهم أن يكون هناك مصدر للدعم يعتمدون عليه. غير أن مراجعة أحداث منتصف القرن العاشر تشير إلى تراجع حاد فى قوة قبضتهم بعد منتصف الستينيات من العام ٩٠٠، سيما إذا ما قورنت بسجل النجاحات الباهرة التى حققوها حتى ذلك الوقت. مع ذلك فإننا لا نملك أى مؤشرات على أن هذه القوات الإسلامية التى كانت تعمل فى ممرات الألب عانت من انتكاسات أو هزائم على يد السكان المحليين. وإذا كان ثمة من أمر، فهو الإشارة إلى أنه كانت هناك عملية انسحاب عندما وقع حادث سانت مايولس St. Mailus فى ممر سان برنارد الكبير St. Bernard. مما يؤكد أو يعزز الاحتمال بوجود تغيير فى سياسات الخليفة، ويقدم بالتالى تفسيراً أكثر عقلانية لظاهرة اضمحلال الوجود الإسلامى العربى فى المناطق الألبية.

وفى سجل الوقائع الرسمية الفاتيكانية أن البابا جون الثامن الذى اعتلى السدة البابوية فى ٨٧٢/١١/١٣ خاض سلسلة معارك ضد العرب المسلمين (السراسين). وأنه تمكن بمساعدة سكان روما وحدهم من إلحاق الهزيمة بهم فى تيراسينا terracina. غير أن الملك

تشارلز الكبير Charles the Gross وبعد أن اعتلى العرش أخل بوعده للبابا وأحجم عن مساعدته في مواصلة الحرب على العرب. فكانت النتيجة خسارته الحرب واضطراره إلى دفع تعويضات كبيرة إليهم. وقد استمر البابا جون الثامن - وكان إيطالياً من مواليد روما - في السدة البابوية مدة عشر سنوات ويومين. ولدى وفاته في عام ٨٨٢ دفن في الكهوف الخاصة بمقابر البابوات في الفاتيكان.

المؤشرات الأثرية واللغوية:

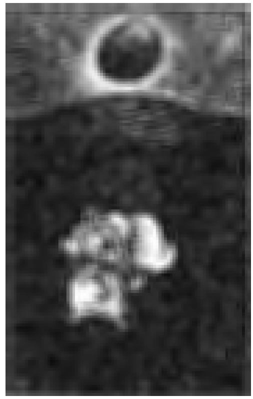
احتفظت هذه الممرات الألبية التي تفصل شمال وغرب أوروبا عن إيطاليا بقدر كبير من أهميتها الجغرافية حتى السبعينيات من عام ١٩٧٠، ولذلك من المفيد تلخيص وتحليل المتوفر من المعلومات التي تتعلق بهذا القرن من نشاطات المسلمين العرب.

يبدو أن البحث المنظم عن الآثار المتعلقة بالمسلمين العرب في جنوب فرنسا والمناطق الألبية لم يبدأ إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. فالكتّاب الأولون الذين أبدوا اهتماماً بتلك المرحلة، تفقدوا بصورة خاصة القلاع والتحصينات المختلفة التي تعود إلى المسلمين العرب، وذلك استناداً إلى الروايات المحلية وأحياناً إلى بعض المعلومات الموثقة، وإلى القليل جداً من المخطوطات.

استمر ذلك حتى قام جون لاكام Jean Lakam بأبحاثه المستفيضة عن الوجود العربي الإسلامي. وقد شمل ذلك المقابر والأسلحة، والنقود والآبار والمباني، وأهم من كل ذلك، اكتشاف المحراب، في جدران بعض الكنائس في جنوب فرنسا وخاصة في ناربون Narbonne . ومن الممكن كذلك أن تكون بعض الكنائس والكاتدرائيات القائمة اليوم في منطقة الدفار Var ، ووادي الرون Rhone، قد بنيت أساساً كمساجد وتم تحويلها بعد ذلك. ومن سوء الحظ أن بحثاً مماثلاً لم يجر حول هذا الأمر في سويسرا.

ولعل الخلاف الأشد بشأن الوجود العربي الإسلامي في المناطق الألبية يقع في دائرة البحث اللغوي. ويعود عدم التأكد إلى عدة أسباب:

أولا: هناك خلافات كبيرة بشأن مصدر العديد من أسماء الأشخاص والمواقع في المناطق الألبية. وقد أدى ذلك



يبدو أن موت الخليفة عبد الرحمن في عام ٩٦١، واعتلاء ابنه الحكَم الثاني العرش، شكل نقطة تحوّل جذرية. فقد رفض مواصلة دعم «الصيفية» التي كانت تزعج مسيحيي أوروبا الوسطى

إلى اعتقاد عدد من العلماء والكتّاب في القرن التاسع عشر إلى أن بعضها يعود إلى أصول عربية. ومما لا شك فيه أن ذلك ترافق مع وجود عدد كبير جداً وبشكل غير طبيعي من أسماء المواقع في سويسرا التي تبدأ بـأل التعريف العربية. والأمثلة على ذلك تتضمن أسماء مثل:

الماجل: Al magell

لبولا: Al bula

البانا: Al bana

البريس: Al bris

وهذا غيض من فيض.

ثانياً: هنالك مواقع عديدة في شمال إيطاليا (وخاصة في وادي انزاسكا Anzasc) وفي جنوب سويسرا وفي شمال فرنسا تحمل لفظة مور Moor كجزء من الاسم، وعلى سبيل المثال جبل دي موراس Mont de Maures (في جنوب فرنسا)، وجبل مورو Mont Moro (على الحدود بين إيطاليا وسويسرا).

إن الأمر المثير حقاً في معظم هذه الحالات هو أن المواقع التي تحمل هذه الأسماء كانت إما مواقع للمسلمين العرب حيث أقاموا فيها حصوناً وقلاعاً، أو أنها تقع في طريق الممرات والطرق التي سيطروا عليها واستخدموها.

إن بحثاً لغوياً من هذا النوع هو بحث تخميني بدرجة عالية ومن المستحيل معرفة:

أ - أي لغة أو لهجة اعتمد المسلمون.

ب - كيف كان لفظ عدد من الكلمات الأساسية.

ج - أي تحوير طرأ على الكلمات العربية على مر القرون على يد المتحدثين الألمان والفرنسيين والإيطاليين.

وهناك المزيد من الإشكاليات التي تتعلق بهذه التخمينات. منها أن اسم أي موقع في سويسرا يبدأ بحروف أ - ل - ب يصبح موضع شك على الفور، ذلك أنه من المرجح أن الاسم المتداول هو ببساطة مشتق من الألب. لذلك لا يمكن إيلاء ثقة كبيرة بأن تكون أسماء هذه المواقع من مصادر عربية حكماً.

ولكن على الرغم من وجود أسماء أخرى يحتمل أن تكون مشتقة من أسماء عربية فإننا لا نملك أي منهجية علمية لتثبيت هذا الربط. وهذه لائحة مختصرة بأسماء المواقع التي يعتقد على نطاق واسع أنها مرتبطة بوجود المسلمين العرب والتي لا تزال مستخدمة حتى اليوم:

- جسر السراسينوروم pons Saracenorum (مدينة هامة على طريق ممر برنينا، تدعى اليوم Pontresina) أي جسر المسلمين العرب.
- المجل (قرية في وادي الساس) Almagell
- إلى العين (جبل قرب وادي الساس) Allain - Allalain
- العين (جبل في وادي الساس) Alp Aien
- مشابل ومشبل (سلسلة ينابيع مياه في وادي الساس واسمها الأصلي Mushbil Mushabil) Mischabel أشبال الأسد.

جابي - أي جامع الضرائب (قرية في الطريق إلى ممر سيملون واسمها الأصلي Jabi) Gstein- Gabi.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الاسم الأول فقط من هذه اللائحة موثق في المصادر المعاصرة، ومما لا شك فيه على الإطلاق أن مصدر اسم بونترسينا Pontresina هو الاسم الوصفي اللاتيني بمعنى جسر السراسين Saracens. وهذا ما يعطي الانطباع بأن السراسين (أي المسلمين العرب) أقاموا هناك جسراً هاماً. أكثر من ذلك، أن الاسم العالمي الأكثر تداولاً في المنطقة سراز Sarraz يرتبط بغطاء للسلاح يشبه شكل الجسر.

إضافة إلى ذلك هناك أسماء العديد من المواقع:

قصر سراسين Chateau Sarasim

جسر سراسين، إضافة إلى أسماء عدد من القرى الصغيرة في غرب سويسرا التي تتناثر شمالاً حتى برنر جورا Berner Jura (حفرة برنر) (السراس La Sara) والتي يعتقد أن أصولها تعود إلى المسلمين العرب (السراسين). وبما أن ثمة وثائق تؤكد أن هذه التسميات لم يكن لها أي ذكر إلا بعد وجود المسلمين العرب فيمكن القول أن ثمة علاقة تاريخية بينهما، مع ذلك ينقص الإثبات.

إن الأسماء التي يظن أنها مستخرجة من العربية تثير القدر الأكبر من الصعوبة.

ويمكن الاعتقاد بأن الصلة المنطقية بين تعبير معين باللغة العربية وما يدل عليه في الوقت الحاضر يؤكد صدقية هذا الادعاء. غير أن هذا المنطق يصطدم بصعوبات معينة. فالبحث في الأسماء العربية التي يفترض أن تكون محل استخدام في مثل هذه المناطق: (مثل: الثلج والجليد والممر والانهيار الثلجي والشقوق والحواجز والسيل، وسواها) ليست على تماثل مع الأسماء المتداولة. غير أن ذلك وحده لا يكفي بشكل كامل لاستبعاد أسماء هذه المواقع التي يعتقد أنها مشتقة من العربية. فهي تشير إلى صعوبة الاحتفاظ بأسمائها لمدة ألف عام من دون تغيير أو تحوير. أكثر من ذلك، ففي واحدة من المواقع التي أشرنا إليها أعلاه، مشبل Mushbail، ثمة من الأدلة ما يشير إلى أن الاسم مشتق في الحقيقة من لهجة محلية. وفي اعتقاد أحد المؤرخين المرموقين، فإن هذه السلسلة الجبلية بالذات تستمد اسمها من اسم محرف هو Mistgabel، ومعناها (شوكة السّماد)، وهو اسم يشبه إلى حد كبير إحدى الأدوات الزراعية المحلية المستخدمة على نطاق واسع.

ومما يعزز هذا الاعتقاد أن وجود العديد من المواقع في المنطقة التي لم تحمل أي اسم على الإطلاق حتى وقت متأخر. فبعض الأسماء المعروفة اليوم ربما تعود بشكل مباشر إلى الأحداث التي وقعت خلال السنوات الخمسين الماضية والتي لا يعرف مصدرها سوى المحليين من السكان (المسنّون منهم) الذين يتذكرون تلك الأحداث. (يبدو أن مصدر هذه التسمية ليس جزءاً من الفولكلور المحلي).

ومن جهة ثانية يجب أن نضيف إلى ذلك كله أن السكان المحليين في هذه الوديان الجبلية يشعرون بحساسية مفرطة تجاه تصنيفهم بأنهم من أصول إسلامية - عربية. فقد رفضوا بأشد التعابير القول بأنهم ينحدرون من أصل عربي. وربما يكون ذلك قد أثّر على صحة المعارف المحلية، وساهم في دفع الأمور نحو البحث عن تفاسير بديلة بما يدعم هذا الجدال الكلامي.

الدلائل الاقتصادية:

يعتقد بعض البحاثة أن العرب المسلمين ساهموا في تطوير الحياة الاقتصادية للسكان الذين كانوا تحت سيطرتهم، وخاصة في فرنسا وسويسرا. ففي فرنسا تتضمن هذه المساهمات:

أ - إدخال زراعة القمح وخاصة في منطقة الفار Var. ويعرف هذا النوع من القمح في فرنسا باسمين هما القمح الأسود Ble noir. ومما يؤكد على ذلك الاسم الثاني له وهو قمح السراسين (أي القمح العربي الإسلامي).

ب - إدخال زراعة شجر البلوط في المنطقة المحيطة بمنطقة فرينيه Freinet، كما تشير إلى ذلك الروايات المحلية.

ج - إدخال الطريقة العربية في تحويل لب خشب الصنوبر إلى قطران لتشغيل المراكب البحرية. ودعماً لذلك يشير هؤلاء الباحثون إلى أن الكلمة الفرنسية لقطران شجر الصنوبر هي قودرون Goudron، وهي مشتقة من الكلمة العربية قطران.

مع ذلك فإن هذا الدليل ليس مجرداً من الإشكاليات، انه يعتمد من جهة على الإشكاليات اللغوية، ومن جهة ثانية على التقاليد المحلية. في الحالة الأولى فإن هذه الإشكاليات لا تظهر ارتباطاً عادياً بين الاسم والمسمى بشكل واضح، وفي الحالة الثانية فإن الروايات المحلية لا يمكن الاعتماد دائماً عليها.

إن لبعض الأدلة حضوراً أقوى، ويمكن الاعتماد عليها أكثر. ويبدو أن المسلمين العرب قاموا بأعمال منجمية (حفر مناجم بحثاً عن المعادن) وخاصة في تاند Tende ولافيريه La Ferrier قرب برشلونة Barcelonette، حيث صنعوا كما يبدو الأسلحة. وفي هذه الحالة جرى البحث التنقيبي فعلاً في هذه المناجم.

أكثر من ذلك، ففي المناجم قرب تاند (وكذلك في مناجم فالوريا Valuria) هناك معارض تحمل اسم «معرض المسلمين العرب» Gallerie Sarrasine، وذلك لأنهم (أي المسلمين العرب) هم الذين قاموا بحفرها (وهذه حالة مثبتة من خلال الآثار المتبقية).

أما في سويسرا فإن الأدلة تبدو أقل جزماً. وفي الواقع فإن كل ما قُدِّم من حجج يتوقف على روايات محلية، رغم أن بعض المظاهر الاستثنائية في المناطق المشكوك فيها تستحق الاهتمام. مثالاً على ذلك، توجد رواية محلية في أحد وديان الرون Rhone تقول إن المسلمين العرب عندما أقاموا في هذا الوادي أدخلوا زراعة نوع معين من العنب، الذي لا يزال يزرع هناك حتى اليوم.

وفي الواقع فإن الخمر الذي يعصر من هذا العنب يعرف محلياً باسم Heiden Wein أي خمر الوثنيين، وذلك كمؤشر إلى أنه أدخل عن طريق غير المسيحيين. ويمكن اعتبار هذا الأمر مؤشراً في حد ذاته.

وهناك من يعتقد أن المسلمين العرب هم الذين ادخلوا لحم الغنم كمصدر للحوم. كما أن امتناع السكان المحليين عن تربية الخنازير لا يمكن تفسيره إلا على انه يعود إلى فترة حكم المسلمين العرب.

وباختصار لا يمكن القول بأن ثمة مؤشرات كثيرة على النشاطات الاقتصادية التي قام بها المسلمون العرب، ولكن من جهة أخرى، فإن ما يتوفر لدينا من أدلة تشير إلى أنه كان لنشاطات مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum أثر أكبر مما يبدو من خلال قراءة الوقائع المعاصرة.. ربما كانت نشاطاتهم أكثر تنوعاً وأبعد مدى مما كان يعتقد. ومن شأن ذلك أن يطرح السؤال حول ما إذا كان المسلمون العرب قرروا البقاء طويلاً في هذه المناطق ثم تراجعوا عن هذا القرار بتوجيه من الخليفة (الحكم) في قرطبة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

المؤشرات العنصرية (الاثنية):

تعتبر هذه المؤشرات المصدر الأكثر جدوى، وهي في الوقت نفسه، المساحة الأكثر اهتماماً لتأكيد الأحداث الماضية من خلال البصمات المعاصرة.

ففي الحالة الفرنسية، وجد الباحثون أن عدداً من الاستخدامات والعادات المثيرة للاهتمام في بروفنسا Provence وفي وادي الرون Rhone تعود إلى زمن الاجتياح الإسلامي - العربي. ومن هذه العادات بعض الرقصات الشعبية - الفولكلورية، والاحتفالات الخاصة المتعلقة بخروج المسلمين العرب من القرى الصغيرة. هنا نجد أن بعض الباحثين يتعامل مع هذه المؤشرات بشيء من الشك، وذلك بحجة أن المساهمة العربية - الإسلامية، ربما تكون قد جاءت في وقت متأخر وتركت بصماتها في مرحلة لم يكن السكان القرويون يعرفون عنها الكثير.

ومن جهة ثانية وافق العلماء الاختصاصيون في تلك المرحلة (مطلع القرون الوسطى) ومن زمن طويل، على أن الغزوات العربية الإسلامية، وإن الوجود العربي الإسلامي في جنوب فرنسا تركا آثاراً بعيدة المدى. والسؤال هو: إلى أي درجة؟ وثمة سؤال آخر مرتبط بالموضوع الحالي وهو: هل يمكن (أو هل من الضروري) الفصل بين المؤثرات الواضحة عن الغزوات والاحتلالات التي وقعت في منتصف القرن الثامن، عن تلك التي وقعت في منتصف القرن العاشر؟

بالنسبة للجواب على السؤال الأول، فإن بعض العلماء يعتقد أن التأثير كان بنيوياً، وأنه غيّر بشكل كامل مستقبل أوروبة. وبالنسبة لعلماء آخرين فإن تلك الاجتياحات دمرت الوحدة الثقافية والتجارية للبحر المتوسط وأدت إلى إعادة تجمّع المراكز الثقافية الأوروبية في الشمال. وهناك آخرون يعتقدون أن هذه الاجتياحات غيّرت العلاقات الدينية - السياسية القائمة بما مكّن السكان من التعامل عسكرياً مع التهديد العربي الإسلامي بأشكال أكثر فعالية.

من المؤكد أنه ليس بالإمكان في إطار هذا البحث تقديم تلخيص وافٍ للاشكاليات المطولة والمعقدة والأدلة المتعلقة بها مع النظريات المختلفة حول مدى تأثير العرب المسلمين على جنوب أوروبة. مع ذلك، لا بد من ملاحظة أن أكثر هذه المؤثرات تداولاً تتناول اللغة والأساليب الأدبية والعادات في بروفنس Provence. إضافة إلى ذلك فإن تحليل ومناقشة مثل هذه الأسباب المتعددة، وتأثيراتها (مثل دور التطوير التقني في الفروسية، وعلاقات التبادل التجاري، ومصادرة الأراضي وسياسات إعادة توزيعها. وحتى المصادر الأساسية لعبارة الأرض المقطعة والمقتطعة «Fief» (ولعل مصدرها فيء) من شأنه أن يحافظ على استمرار الاختلاف حول ما بعد الوجود العربي الإسلامي.

وفي الوقت نفسه، يبدو مستبعداً جداً أن تكون هناك حاجة إلى التمييز بين الأحداث التي وقعت في الأوقات المختلفة التي أشرنا إليها. وبكلام اخر فان حجب معارف أساسية جديدة (أثرية وأدبية) لا يسمح لنا بأن نفعل ذلك.

وفي الحالة السويسرية، فان الدليل هو أشد ثباتاً وأكثر تنوعاً. فعلى سبيل المثال فإن العديد من البحاثة سجلوا ملاحظات حول المواصفات غير العادية لسكان وادي الساس Saas، وهو واد منعزل نسبياً يمتد جنوبياً من مدينة فيسب Visp في الرون Rhone وينتهي في ممر نادر الاستخدام وهو ممر مونت مورو Monte Moro والذي يؤدي إلى وادي انزا Anza في إيطاليا (عند مدينة ماكوغناغا Macugnaga). وقد سجل أحد هؤلاء البحاثة ملاحظات حول «السمات السامية» التي وجدها في هذا الوادي وفي الوديان المجاورة له. ولاحظ باحث آخر كيف أن السكان بصورة عامة ذكروه بالنماذج التي وجدت في جنوب إيطاليا أو بين الأفريقيين الشماليين (أي عرب شمال افريقيا).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الاختلافات المتجمعة في السمات الجسدية والتي كثيراً ما كانت موضع حديث في السابق، لا تزال واضحة حتى اليوم. أكثر من ذلك، هناك باحث واحد على الأقل



لاحظ نسبة عالية من الأسماء المتداولة في جنوب وادي الرون Rhone والتي تتميز بنكهتها الشرق أوسطية أو الشمال أفريقية.

ولعل من أهم العادات التي لوحظت في الأربعينيات من القرن العشرين والتي لا تزال مستمرة حتى اليوم:

١ - استمرار رفض سكان وادي الساس Saas تربية الخنازير على الرغم من أن لحمها هو مصدر تقليدي للحوم في المناطق الأخرى من وادي الرون Rhone.

٢ - الطريقة الخاصة لذبح المواشي (من اجل تناول لحومها)؛ وكما لاحظ أحد البحاثة فان هذه الطريقة لم تسجل إلا لدى برير (أمازيغ) شمال أفريقيا.

٣ - قلة وجود الغابات والمساحات المشجرة في وادي الساس Saas، إضافة إلى وجود أدلة أثرية تثبت اعتماد نفس الأسلوب في شواطئ شمال أفريقيا.

وفي الواقع فان عدداً من الاختصاصيين في موضوع غزوات العرب المسلمين أشار إلى وجود عدد من المستوطنات في المنطقة والى الزواج المختلط مع السكان المحليين، سواء في فرنسا أو سويسرا وذلك قبل إزالة قاعدتهم نفسها فراكسيناتوم Fraxinatum.

وإضافة إلى الأدلة غير المباشرة هذه، فان من الصعب إثبات هذه الحجة، الأمر الذي يتطلب المزيد من البحث. وربما كان للزواج المختلط وللمستوطنات العديدة التي أقامها العرب المسلمون دور في استمرار «فراكسيناتوم»، وفي استمرار هيمنتها على بعض المناطق من دون الحاجة إلى استقدام مهاجرين جدد من إسبانيا.

وبما انه لا يوجد بحث منهجي (حول اصول الأجناس والخلايا الجينية والدم) بين السكان المحليين في هذه الوديان والتي يمكن أن تساعد للإجابة على السؤال حول أصولهم، فإننا مضطرون في الوقت الحاضر إلى توسل التخمين لتوضيح ما إذا كانت توجد بالفعل نماذج غير محلية.

المواصفات السياسية:

بما أن السجلات الأوروبية المعاصرة حول غزوات العرب المسلمين معنية بدرجة أساسية بإبراز الأدلة على تهمة «لا إنسانية وعلى فظاظة الغزاة المدمرة»، فإنه من الصعوبة بمكان التوصل إلى تقدير دقيق لمؤثرات تلك الغزوات على المناطق الألبية، وبصورة أقل على انعكاساتها البعيدة المدى. ثم إنه على الرغم من وجود سجلات وكتابات للمؤرخين العرب تغطي هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي، فانه لا توجد أي إشارة محددة إلى التطورات المتعلقة بمستوطنة فراكسيناتوم أو إلى الضوابط الإدارية التي مارسها العرب المسلمون في المناطق الألبية.

إن الدليل الوحيد الذي يشير إلى الوجود العربي هو أن العرب استخدموا عبارة جبل مونجو Jabul Monjaw اسماً لجبل الألب. وهو اسم مصدره الاسم اللاتيني الذي كان مستخدماً في ذلك الوقت، وهو مون جوفيز Mons Jovis، أي (جبل جوبيتير) وكان هذا الاسم قد خصص تحديداً لتسمية منطقة ممر سان برنارد St. Bernard والتي لم تحصل على اسمها هذا - الحالي - إلا بعد العمليات التي قام بها (القديس) برنارد نفسه.

مع ذلك هناك بعض الأدلة من المصادر المعاصرة تشير إلى أن العرب المسلمين لم يكونوا قساة القلوب ولم يكونوا غير إنسانيين كما جرى تصويرهم (غالباً لأسباب سياسية محلية). فعلى سبيل المثال هناك واقعة تبدو ثابتة تماماً جرت مع مسافر في مدينة فيرسيللي Verscelli في شمال إيطاليا، فقد وصف العرب المسلمين بأنهم يعيشون مع وبين السكان المحليين بطريقة أوحت إليه بأنهم مستقرون تماماً. «فالعرب المسلمون لم يكونوا يحملون سلاحاً ولم يكونوا مزعجين للسكان المحليين. وكانوا يشرفون على إدارة المدينة وضواحيها بيد خفيفة».

> «العرب المسلمون لم يكونوا يحملون سلاحاً ولم يكونوا مزعجين للسكان المحليين. وكانوا يشرفون على إدارة المدينة وضواحيها بيد خفيفة»

ويبدو أن العرب المسلمين لم يتحولوا إلى جمع الضرائب والى المصادرة إلا بعد أن تبلغت مستوطنة فراكسيناتوم بأنها لن تلقى بعد الآن الدعم من إسبانيا. وقد أشار إلى ذلك بالتفصيل عدد من الكتّاب المعاصرين، ولان الأمر تناول رجلاً متديناً ومعروفاً في ذلك الوقت، هو القديس مايولوس St. Maiolus من دير كلوني Cluny. ففي عام ٩٧٢ كان القديس مايولوس عائداً إلى الدير بعد رحلة إلى روما. فاستخدم طريق سان برنارد St. Bernard لاجتياز الألب. وبعد أن نزل من الجهة الشمالية إلى مدن الوادي الواقعة على الطريق الصعودي، اختطف مسلحون مجموعته. وطالب الخاطفون وكانوا من المسلمين العرب فدية مالية مقابل إطلاق سراحهم. دفع الدير الفدية وقدرها ألف جنيه من الفضة (بعد أن اضطر إلى بيع معظم موجوداته) وقد حددت قيمة الفدية بحيث توفر لكل عنصر من الخاطفين مبلغ جنيه فضي واحد.

كان لهذا الحادث أهمية خاصة لسببين:

١ - أنه يوفر لنا الدليل الوحيد على عدد المسلمين العرب الذين كانوا متواجدين في المناطق الألبية في ذلك الوقت. ويتمتع هذا العدد بشيء من الصدقية من خلال حقيقة أن أحداً لم يحاول بشكل جدي أن يقوم بعمل مسلح مضاد للمسلمين العرب، أي أن عددهم كان كبيراً لدرجة أن أي عمل بديل عن دفع الخوة لم يكن ممكناً.

٢- إن هذا الحادث كان آخر الأحداث الكبيرة التي قام به المسلمون العرب في منطقة الممر. وبكلام آخر، فإنه يقدم لنا بعض التأكيد إلى نوايا العرب المسلمين بالانسحاب الطوعي إلى قاعدتهم في فراكسيناتوم. ويبدو أن هذه القوة بالذات كانت في طريقها إلى فراكسيناتوم عندما وجدت فرصة سانحة للقيام بعملية الجباية الأخيرة.

وبالمحصلة، يبدو أنه في الحالات التي تمكّن فيها العرب المسلمون من أنفسهم، وحيث قرروا التواجد الدائم، اعتمدوا نظاماً للإدارة أقل وطأة من الأنظمة الاعتباطية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ومن جهة ثانية، والى أن يتم إقرار بعض الإجراءات السياسية والإدارية (مثالاً على ذلك الاتفاق مع الملك هيغو Hugo) وبعد أن قررت قرطبة وقف دعمها لعملياتهم، كانوا (العرب المسلمون) يعتمدون بالفعل وبدرجة كبيرة على الإمكانات التقليدية التي يعتمد عليها عادة أي جيش غازٍ، فيأخذون ما هم في حاجة إليه، عندما يكونون في حاجة.. مع، قليل من الإضافة، لمصلحة المشتركين.

استنتاجات:

إن وقائع الأحداث والدلائل المتوفرة، تطرح عدداً من الأسئلة:

أولاً: يلاحظ القارئ أن عبارة Saracen (العرب المسلمين) فُضلت في الاستخدام على أي عبارة معاصرة أخرى (إلا في حالات محدودة جداً). وقد جرى ذلك بصورة رئيسية لأنه ليس واضحاً تماماً مع من نتعامل. فالأدبيات الأوروبية لم تستخدم كلمة «عرب»، واقتصرت على استخدام كلمة سراسن Saracen للدلالة على الغزاة. وفي حالات قليلة جداً استخدمت كلمة الاسماعيليين Ismaelites أو كلمة المور (المغاربة) Moors. والأمر المثير في ذلك هو أن الوقائع المعاصرة تعترف وتميز بشكل واضح الأصل الإسباني للمهاجمين. فالقسم الأكبر منهم إن لم يكونوا جميعهم، جاءوا من إسبانيا، وتلقوا تعليماتهم من الأمير / الخليفة في قرطبة. مع ذلك وفي الوقت نفسه، فان بعض السجلات تشير إليهم بعبارة «الأفارقة». فمن كان السراسن Saracen حقاً؟

يمكننا الجواب بأنهم ربما كانوا من المسلمين البربر وليسوا من العرب. وقد تداول الباحثون المعاصرون مؤخراً كثيراً حول هذه الإمكانية، وهناك قدر من المنطق لقبول هذا التفسير.

وإضافة إلى المؤشرات التي ذكرناها أعلاه، يجب أن نتذكر أن الأمراء / الخلفاء العرب في إسبانيا كانوا يستخدمون القادمين الجدد من البربر في خطوط المواجهة الأمامية للتصدي

للحملات الأوروبية عبر جبال البرينيه Pyrenees. ولذلك فإنه من المعقول جداً أنهم كانوا يشجعون البربر على القيام بالحملات الصيفية، لإبعاد أى شعور لديهم بالغبن نتيجة عدم مساواتهم مع عرب إسبانيا.

وتبعاً لذلك، فإنه من المنطقى أن نضيف توافق الكتّاب المعاصرين على تقدير المهارات العسكرية للمسلمين العرب فى المناطق الجبلية، وإلى تفضيل هؤلاء للمناطق الجبلية بشكل واضح.

ومع أن أى قوة صغيرة مسلحة فى أرض معادية تفضل التموضع فى مواقع دفاعية فى سفوح التلال والجبال، على مواقع لا يمكن الدفاع عنها فى السهول والأودية، فإن هذه التوصيفات تعيد إلى الأذهان عدم الاكتراث العربى التقليدى لاختراق المناطق الجبلية. وللدلالة على ذلك، فإن معظم المناطق الجبلية فى العالم العربى لم تعرّب تماماً ولكنها تأسلمت جميعها. وأفضل الأمثلة على ذلك هى جبال العراق والمغرب والجزائر ولبنان وسوريا.

وثمة سؤال آخر يفرض نفسه فى هذا السياق، فلم يشر أى مصدر معاصر إلى وجود صعوبات لغوية بين العرب المسلمين والسكان المحليين. وبما أن المهاجمين تولوا إدارة الممرات الرئيسة لمدة جيل تقريباً، فإن ذلك قد لا يكون أمراً غير طبيعى، على الأقل بالنسبة لهذه المناطق. مع ذلك وبالرغم من أن كل السجلات المثيرة للاهتمام تتعلق بالغزوات اللاحقة، فإن هذا الموضوع لم يطرح على الإطلاق، لماذا؟.

إن الجواب على هذا السؤال تحديداً تتضمنه الحقيقة التالية: وهى أن مسيحيين ويهوداً من إسبانيا شاركوا فى «الصيفية»، ورغم أن لدينا بعض الدلائل على أن اللاتينية وربما لغات محلية أخرى كانت تدرّس فى إسبانيا العربية، فإنه لا يبدو أن المشاركين فى «الصيفية» احتاجوا إلى أو كانوا بحاجة إلى خدمات لغوية. مع ذلك فإن النجاح الذى لا ينافس لعدد من «الصيفيات»، وخاصة لصيفية فراكسيناتوم Fraxinetum أدى إلى جذب «جنود الثروة» الذين كانوا متواجدين فى أرجاء المنطقة. فنحن على صواب عندما نعتقد أن العناصر غير العربية وغير البربرية التى شاركت فى الصيفيات من أجل مكاسب شخصية تصرفت بشكل عفوى كمترجمين ووسطاء بين العناصر الإسلامية والسكان المحليين فى الحالات التى كان التواصل فيها ضرورياً.

إضافة إلى ذلك ثمة اعتقاد بأنه فى المناطق التى تواجد فيها المسلمون العرب بكثافة، كانت هناك أعداد كبيرة من الناس الذين يعرفون العربية. وربما يكونون قد اكتسبوها نتيجة لتعايشهم لمدة قرنين مع العرب.

لا بد من بذل جهد كبير لمعرفة ما إذا كان الخليفة فى قرطبة، وأهم من ذلك، ما إذا كانت وجهة النظر الإسلامية العامة حول الإجراءات الإدارية فى الأراضى التى أصبحت بصورة مؤقتة جزءاً من دار الإسلام، قد تأثرت بوجودها لمدة قرن كامل بأوضاع المناطق الألبية أو إذا كانت قد فشلت فى تقديم أى دليل مادى على مثل هذا التأثر.

إن الافتقار إلى أى وصف تفصيلى أو تحليلى لهذه الأحداث من مصادر المؤرخين المسلمين العرب لا يترك لنا أى مجال آخر سوى الاعتماد على التخمين بأن الاحتلال أو الاجتياح العسكرى لشعوب أجنبية ليس معنياً بوضع إجراءات إدارية منظمة. ولكن عندما يتعلق الأمر بإدارة طويلة المدى للأراضى الجديدة تبرز مثل هذه الإجراءات المنظمة. فنحن لا نملك أى دليل على أن العرب المسلمين أقاموا سلطة إدارية حكومية باستثناء عملية جمع الضرائب والمكوس.

كما أننا لا نملك أى مؤشرات على وجود نظام قضائى أو أى شكل من أشكال متابعة الخلافات بين المسلمين العرب والسكان الأصليين.

وبما أن الخليفة فى قرطبة لم يعط أى إشارة إلى وجوب استتباع هذه المناطق بصورة دائمة بأرض الإسلام، فيبدو انه لم يكن هناك حافز للقيام بالعمليات التنظيمية والبنيوية الحكومية على النحو الذى عرفناه فى المناطق الأخرى التى كانت تحت الحكم الإسلامى.

وباختصار، إذن، فعلى الرغم من أن المناطق الألبية فى فرنسا وشمال إيطاليا وجنوب سويسرا قد تأثرت بشكل واضح بخضوعها المؤقت للحكام المسلمين، فإن العالم الإسلامى لم يعتبر أبدا تلك المغامرة على أنها أكثر من «غزوة صيفية» ناجحة بامتياز، فى قلب أوروبة، فى الوقت الذى كان مشغولاً بأمور أكثر أهمية! ■

كتاب الزاوية

حياة الرافعى

علمه وثقافته

لأسرة الرافعى ثقافة يصح أن نسميها (ثقافة تقليدية)، فلا ينشأ الناشئ منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين، وتجعل منه خلفًا لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه. والقرآن والدين هما المادة الأولى فى هذه المدرسة العريقة التى تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وعلى هذه النشأة نشأ مصطفى صادق، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين، وحفظ شيئًا من القرآن، ووعى كثيرًا من أخبار السلف، فلم يدخل المدرسة إلا بعد ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين. فقضى سنة فى مدرسة دمنهور الابتدائية، ثم نقل أبوه قاضيًا إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل، وكان الرافعى ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة، وقد ظل خط الرافعى رديئًا إلى آخر أيامه.

وفى السنة التى نال فيها الرافعى الشهادة الابتدائية ـ وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية ـ أصابه مرض مشف أثبته فى فراشه أشهرًا ـ وأحسبه كان التيفود ـ فما نجا منه إلا وقد ترك فى أعصابه أثرًا كان حبسة فى صوته، ووقرًا فى أذنيه من بعد.

وكان لأبى الرافعى مكتبة حافلة تجمع أشتاتًا من نوادر كتب الفقه والدين والعربية؛ فأكب عليها إكباب النهم على الطعام الذى يشتهيه.



رحلة .. إلى الرومانسية

الثرية الأمريكية
باربرا هوتون
(١٩٣٩)

مصر أشهر بلاد الشرق يكفي اسمها لاستدعاء ألف صورة وعدد مماثل من الرغبات لم يتم إشباعها

«٤٠ قرنا من الزمان..»
استعارة نابليون





توماس كوك في مصر



آلان بلوتييه

※ فى العام ١٨٦٩ دعا الخديو المصرى إسماعيل ٦٠٠٠ ضيف وضيفة لاحتفالية أقامها بمناسبة تدشين الأعجوبة الهندسية فى ذلك العصر: قناة السويس. وصلت القناة المائية بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بطول ١٠٠ ميل (١٦٠ كيلومترًا) واستمر العمل فيها عقداً كاملاً. حضرت العشاء الاحتفالى

مقدمة كتاب:
Vintage Egypt
Cruising the Nile in the Golden Age of Travel
الرحلات النيلية فى العصر الذهبى للسياحة
Alain Blottiere
Paris - Flammariam - 2003

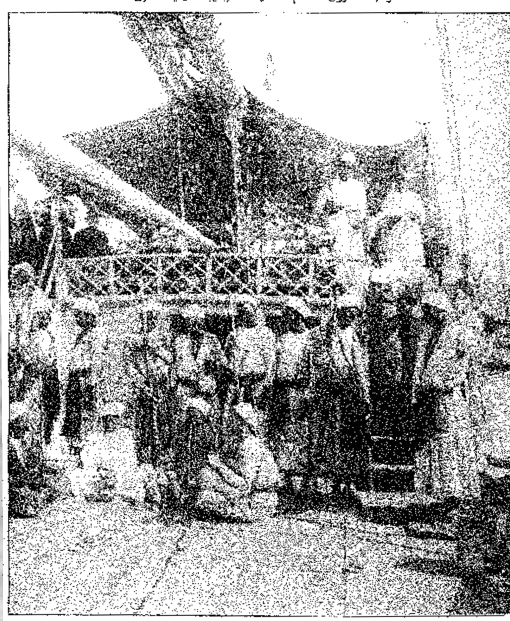
ترجمة : نرمين نزار

الإمبراطورة أوجينى Eugenie وامبراطور النمسا والمجر فرانز جوزيف Franz Joseph وأميرات ويلز وروسيا وهولندا والرجل الذى كان قد فاز بامتياز حفر القناة، المهندس الفرنسى فرديناند ديليسبس Ferdinand de Lesseps . وبين هذه الشخصيات اللامعة كان هناك رجل واحد كاد أن يكون خفيا - مع أن هذا الستينى البريطانى كان من المقدر له أن يغير مسار التاريخ المصرى أكثر من أى شخص آخر من الموجودين. كان اسمه توماس كوك Thomas Cook. كان المؤسس والعقلية العبقرية التى وقفت خلف وكالة توماس كوك وولده للسفر والتى كان لها فى ذلك الوقت العديد من الفروع حول العالم.

فى ذلك اليوم من نوفمبر ١٨٦٩ حضر كوك عرض الألعاب النارية الرائع فى سماء بورسعيد وفى اليوم التالى انضم بهدوء إلى مجموعة من السياح على إحدى المراكب الثمانى والأربعين المصطفة خلف مركب الإمبراطورة اوجينى المعروفة باسم لايجيل. أبحرت المراكب فى الرحلة التاريخية التى افتتحت القناة. كانت تلك رحلة توماس كوك الثانية إلى مصر فقد أتى إليها من قبل عام ١٨٦٨ لتنظيم رحلة إلى الأراضى المقدسة وعرض تلك الرحلة على زبائنه لأول مرة فى ربيع عام ١٨٦٨ . قامت الوكالة التى يملكها باستئجار باخرتين لنقل زبائنه فى رحلات نيلية وخلال احتفالات نوفمبر استغل كوك الفرصة فى توطيد العلاقات التى سوف يبنى عليها لاحقا فى توسيع عملياته.

فى العام التالى تم تعيين ابن توماس، جون مايسون كوك John Mason Cook الوكيل الرسمى لكل خدمات الرحلات النيلية وبعد ذلك بعشر سنوات منحت الحكومة المصرية لعائلة كوك الحقوق الحصرية المؤقتة لتلك الرحلات. كانت الشركة قد قامت بالفعل ببناء الفندق الأول فى وادى النيل (بالأقصر عام ١٨٧٧). فى بداية القرن العشرين عبر النيل أكثر من خمسين ألف سائح. سخر منهم بيير لوتى Pierre Loti فى كتابه لا مورت دى فيليا La Mort de Philae واسماهم الكوكيز Cookies (مشتقة من كوك وتعنى البسكوت - المترجمة). فى كل الأحوال أصبحت السياحة مهمة للاقتصاد المصرى. ومع فجر القرن الجديد وجد المسافرون القلائل. هؤلاء الذين كانوا على قدر من الشجاعة سمحت له باتباع خطوات جوستاف فلوبير Gustave Flaubert ودايفيد

مصر / الآخرون: طاقم السفينة «الرهيبة» نهاية القرن ١٩



مصر / الأخرى: ترامواى ١٥ (١٩٢٦)



الخديو توفيق
فى معية جابو

سائحون.. مصريون فى شارع إبراهيم باشا (١٩٢٨)





روبرتس David Roberts وفريدريك كاليو Frederic Caillaud وفلورانس نايتنجيل Florence Nightingale- أنفسهم محاطين بجماعات من المرتحلين الذين اشتروا رحلات مجهزة في لندن أو باريس أو برلين. بدا أن هذا النوع الجديد من السواح وراء كل عامود ويستولون على كل أثر. لقد بدأ عصر السياحة الجماعية.

لقد غدت أوهام «الرحلة إلى الشرق» الخيالية الأحلام الأوروبية لوقت طويل. أحلام ساحرة عن أراض غرائبية وأنماط حياة مرفهة، عن الحسية التي تكمن خلف الحجاب الذي يغطي الوجه وطقس دافئ ينسي التعليبات التي يسببها برد شتاء الشمال ويشفي الاعتلالات .... أضافت مصر ماضيها الفرعوني إلى تلك الروائع الكلاسيكية الجذابة، كما أضافت أنقاضها الرومانسية والشريط الملتف الذي يكونه نهرها الغارق في ضوء الشمس. من بين كل أقطار الشرق كانت مصر بدون شك. بفضل نابليون بونابرت وعلمائه والمتخصصين في المصريات الذين أتى بهم معه أشهر بلاد الشرق وأسهلها على التخيل. يكفي اسمها وحده لاستدعاء ألف صورة وعدد مماثل من الرغبات التي لم يتم إشباعها. لم يكن السواح الأوروبيون الذين يجوبون الريفيرا بين مارسيليا Marseille ومانتون Menton عام ١٩٣٠ بحاجة إلى صور لتلهمهم. كانت تكفي كلمات «زوروا مصر...» على لوحات ملاصقة للسكة الحديد. حكى كلود أفلين في كتابه يرومناد أجيبسيان (١٩٣٤) أضيف على بعض اللوحات «...

ابتسم فأنت في ضيافة التاريخ

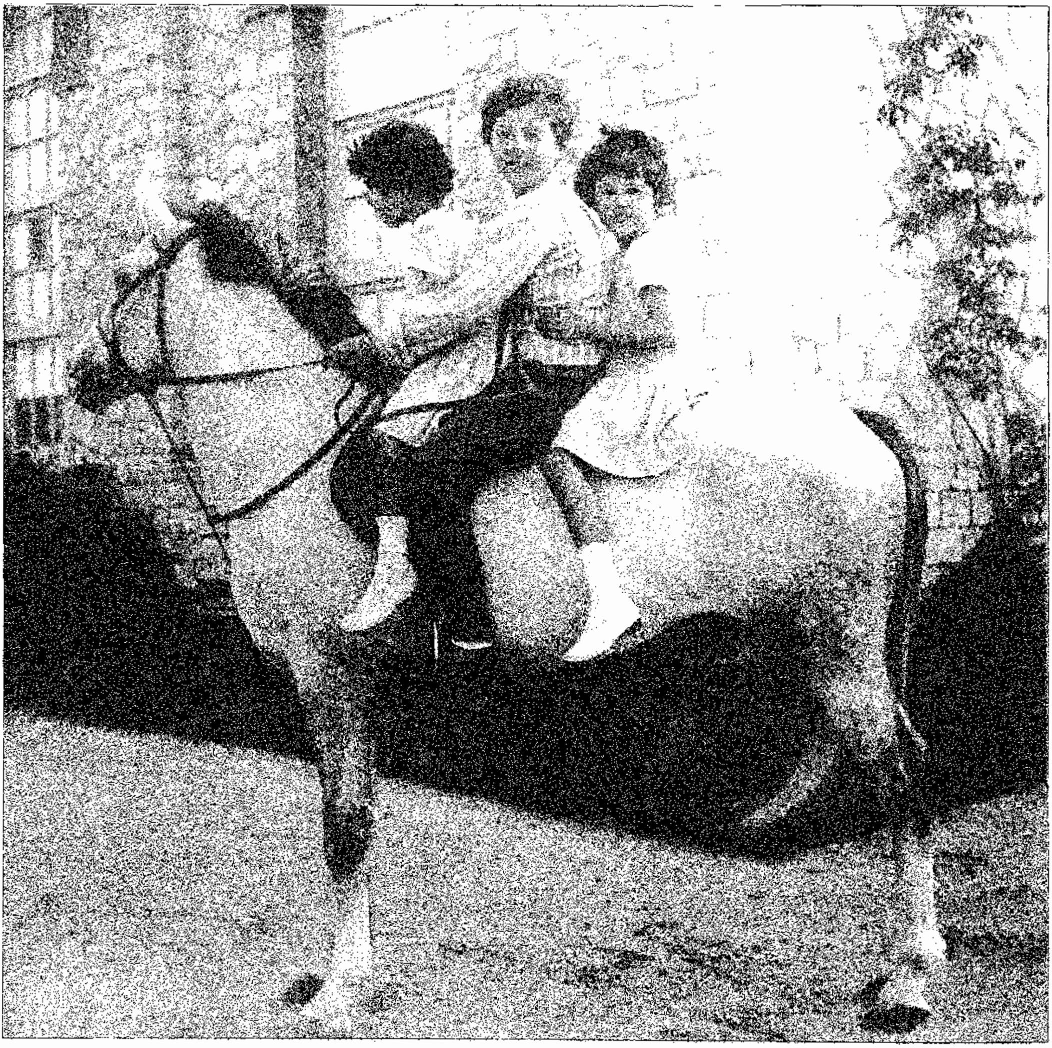


لضوء الشمس» وعلى بعضها الآخر «... للرومانسية».

سائح يجلس على ظهر جمل. سيارة بوجاتي Buggati تحت الأهرامات؛ شاي العصر يقدم في حدائق مغطاة بالياسمين. تلك هي صور مصر خلال حكم الملوك الأواخر، فؤاد وفاروق في النصف الأول من القرن العشرين. شهد هذا القرن ميلاد السياحة المنظمة على نطاق واسع تحت العبقرية الملهمة لتوماس كوك وخمسين ألفاً من المغامرين الأثرياء يركبون المراكب النيلية كل عام. من بين تلك الجموع كان هناك هؤلاء الذين لم يكتفوا بالتصوير أمام الآثار ثم يعودون إلى أوطانهم. كان هناك تجمع اجتماعي محدد يتكون في بلد تتطلع إلى أوروبا و«تحميها» بريطانيا، وتحديدا في القاهرة والإسكندرية. من خلال هذا العالم الكوزموبوليتاني ازدهرت السينما والمسرح التجريبي ونجوم مثل الراقصة سامية جمال والمخرج يوسف شاهين والممثل عمر الشريف.

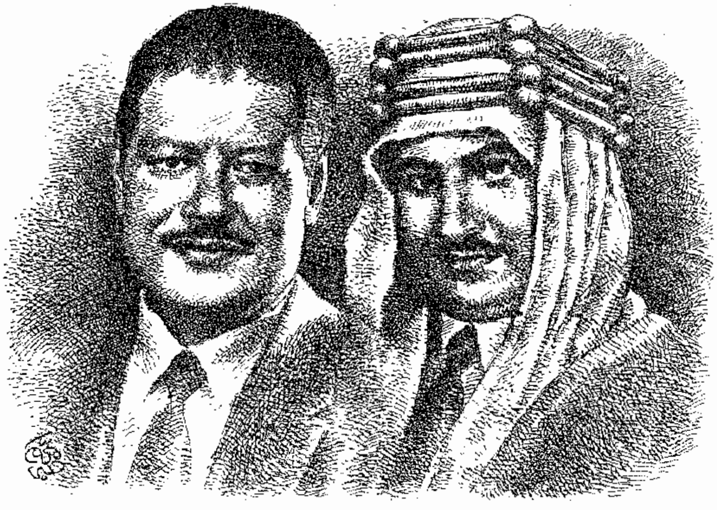
ترك الكتاب المصريون والرحالة المشهورون كتابات مثيرة وطريفة عن تلك الأيام. تضمنت قائمة الرحالة المذكورين ريديارد كيبلينج Rudyard Kipling وجان كوكتو Jean Cocteau واندريه جيد Andre Gide، لاتزال توجد بيننا ايضا صور مميزة لسواح ببدل بيضاء وقبعات من القش أو راقصات محليات. تقدم تلك الكتابات والصور معا نظرة نادرة لعصر آخر وتعيد إحياء الرفاهية الهشة والحية لمصر تحت حكم آخر ملوكها. ■

فاروق صغيرا مع أختيه فوزية وفايزة (١٩٣٦)






www.maccarpet.com



من الكهرباء إلى الفمتو

عربيـــان فى أمريكـــا

محمد علي شمس الدين

■ ■ مع أفول عصر الحضارة العربية والإسلامية، انتقلت الحيوية العلمية لهذه الحضارة إلى أوروبا، ومن ثم إلى الولايات المتحدة ومراكز أخرى قليلة متطورة في العالم (اليابان، الصين، الهند، ماليزيا.. إلخ)، لذلك فالعلوم الحديثة منقولة على جسر عربي إسلامي.. ذلك ما تعنيه عبارة «شمس العرب تسطع على الغرب» المعروفة بشبنجلر على الأرجح.

وهذه الشمس المعرفية التي أشاحت بوجهها عن الأرض العربية والإسلامية من حوالي أربعة قرون خلت، لا تزال مشيحة بوجهها عنهم حتى اليوم، فليست أسماء ومؤلفات ابن سينا وابن الهيثم وجابر بن حيان والرازي والخوارزمي، وسواهم من العلماء العرب والمسلمين، سوى أسماء ومعالم لطريق علمي صاعد في الغرب، والغرب الأمريكي، وثابت في الشرق العربي والإسلامي.

ومع الطفرات العلمية التي شهدها القرنان الأخيران (التاسع عشر والعشرون) في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص، لم تكن أية حاضرة من الحواضر العربية والإسلامية، مهيأة لاحتضان وتطوير عقول علمية متفوقة في هذه البلاد، نظراً لخلوها من مراكز البحث العلمي والمختبرات العلمية، فضلاً عن افتقار العالم العربي إلى قاعدة علمية وتكنولوجية متينة، وإلى نظام تربوي تعليمي وعلمي متطور.

إن بعضاً من الأرقام والإحصاءات يكشف عمق هوة التخلف العلمي والمعرفي هذه، فنسبة الأمية في العالم العربي في العلم والتكنولوجيا هي من أدنى المستويات.. فوفقاً لمعهد المعلومات العلمية، على سبيل المثال، بلغ مجموع الأوراق العلمية التي نشرت في كافة أنحاء العالم خلال السنوات الخمس الأخيرة ٣,٥ مليون ورقة، نسبة مساهمة الاتحاد الأوروبي فيها ٣٧ بالمائة، والولايات المتحدة الأمريكية ٣٤ بالمائة، أما مساهمة العالم العربي الذي يعد حوالي ٢٨٠ مليون نسمة في ٢٢ بلداً، فتراوح بين صفر بالمائة (اليمن)، و٠,٣ بالمائة (مصر)، و٠,٣ بالمائة (سائر البلدان العربية)، فالعرب الذين كان لهم سبق ابتكار الصفر في علم الجبر والحساب، انتهوا إلى صفر مخيف (صفر علمي) مع بدايات القرن الحادي والعشرين.

إن العالم العربي الغني بموارده الطبيعية، متخلف علمياً، وبقاؤه في مثل هذا التخلف، هو كما يقول الدكتور أحمد زويل (بقاء كالرحيل، ووجود كالعدم).

وهذا القول الذي ورد في كتاب «عصر العلم» (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٥) يدق به زويل من خلال الإحصائيات والأرقام، ناقوس الخطر للسنوات الخمسين القادمة، فمن دون العلم والتكنولوجيا، لا يستطيع العرب المساهمة في بحوث العالم الحديث في مجالات كالخلايا الأصل، والذكاء الاصطناعي، وتحوير المادة، والطب الجزيئي، وعلم الكونيات، والإلكترونيات الدقيقة، والمعلومات والاتصالات.. وسواها من علوم المستقبل.

والنتيجة المخيفة، هي أنه ليس ثمة من مجال لظهور ونبوغ أي عالم أو مخترع عربي في البلاد العربية، نظراً لما تعانيه من فقر علمي، وانعدام للقاعدة العلمية الضرورية لاحتضان التفوق العلمي وازدهاره. يتبع ذلك نتيجة أخرى لا تقل خطراً عن الأولى، وهي هجرة الأدمغة العربية إلى البلاد المتطورة بجامعاتها ومختبراتها، لكي تروي شغفها بالعلم، ونشوتها به، وتلبي ذلك النداء الداخلي الذي يجعل من طالب العلم عاشقاً يتبع معشوقه في أي مكان يجده فيه على الأرض، إنه باختصار، ما يسميه أحمد زويل بالذات «نزيف العقول».

أسئلة السيرة المقارنة

هذا النزيف مازال مستمراً، من حسن كامل الصباح (المخترع اللبناني الذي أطلق عليه في أمريكا تسمية «فتى الكهرباء»، المولود في النبطية من الجنوب اللبناني عام ١٨٩٥ والمتوفى بحادث سيارة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٥) إلى أحمد زويل (العالم المصري المولود في دمنهور عام ١٩٤٦، والذي تفتحت موهبته العلمية والبحثية في الجامعات الأمريكية، وأوصلته إلى نوبل في العلوم

عصر العلم
أحمد زويل
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥

حسن كامل الصباح
سعيد الصباح
بيروت: دار آسيا، ١٩٨٥

إن العبقرية إذا لم تكرم، تتكفئ علي ذاتها وتيأس. لقد حصل زويل علي ما كان يرغب فيه من الدعم المالي لمشروعاته البحثية، كما حظي على اهتمام وتقدير جميع الجامعات التي تقدم منها بطلبات للتدريس أو مواصلة الأبحاث في الولايات المتحدة

عام ١٩٩٩، لاكتشافه تكنولوجيا الفمتو femto technology من خلال الفمتو ثانية؛ وهى جزء من ألف من مليون مليون من الثانية).

إن النظر فى السيرة المقارنة لهذين العالمين العربيين النابغين: على ما يفصل بينهما من مسافة زمنية وظروف تاريخية، يطرح أسئلة حيوية فى معنى النبوغ العلمى وشروطه، وفى معنى غربة العلماء والمخترعين الكبار، وهل صحيح ما قاله السير «همفرى دافى» فى عام ١٨٢٥ من أنه «لحسن الطالع أن العلم مثله مثل الطبيعة التى ينتمى إليها، لا يحده زمان أو مكان، وإنما هو (العلم) تراث مشترك للإنسانية جمعاء، ليس له وطن بعينه أو جيل بعينه»، أم أن التنافس السياسى والاقتصادى فى العلوم والتقنيات المتطورة (كالطاقة النووية على سبيل المثال) عدل من مقولة أن «العلم لا وطن له». وادخل عليها حمى الصراع على احتكار العلم والتفوق، من جاسوسية، وخطف علماء، واغتيال آخرين، وحروب (كحرب احتلال العراق التى لا تزال رحاها تدور حتى اليوم، والحرب المحتملة مع إيران) بشتى الذرائع.. فصار لزاماً أن يحضن كل وطن النابغين والمتفوقين من علمائه، ويوفر لهم القاعدة العلمية المحلية، والحماية الوطنية والقومية؛ لكى يمنع عنهم هذا «النزيف» و يحميهم من غوائل «الغربة».

إلى هذه الأسئلة، تضاف أسئلة أخرى تتداعى من جراء المقارنة السيرية بين الصباح وزويل، حول الهوية والانتماء، ومنفعة العلم، وهل ثمة من أخلاق للعلم؟.. إلى ما هنالك مما نحسبه حاضراً وضرورياً فى السؤال الثقافى العربى.

الفاصل الزمنى بين ولادة حسن كامل الصباح (١٨٩٥) وولادة أحمد زويل (١٩٤٦) هو ٥١ عاماً، وهذا الفاصل فى معظمه واقع فى النصف الأول من القرن العشرين؛ قرن التفتح العلمى وأمل البشر بالسعادة والتمتع بثمرات العقول، الذى ما لبثت الحروب الكونية أن أجهضته.

لقد ولد الصباح لأبوين عاملين رقيقى الحال مادياً.. والده تاجر متوسط حصل على مقدار من التعليم المحلى، ووالدته الحاجة آمنة رضا، ابنة الشيخ أحمد رضا المؤلف واللغوى المعروف.. وقد تربى الفتى على القيم الدينية والأدبية المتوارثة من بيئته، وكان صاحب عقل يقظ ومتفتح من صغره على أسئلة الوجود. يذكر يوسف مروة فى كتابه فى سيرة حسن كامل الصباح «عبقرى من بلادى»، كما تذكر أحاديث أجريت مع أقاربه ووالدته: إنه حين كان يجلس على مصطبة البيت كل مساء، يتأمل السماء ونجومها، ويسأل عن أسمائها والأم تسمى له أسماء البعض منها مثل بنات نعش الكبرى، بنات نعش الصغرى، المجرة، وما إلى ذلك. وعندما بلغ سن السادسة، راح يسأل الأم قائلاً: لماذا لا تتصادم هذه النجوم بعضها بالآخر؟ وما الذى جعلها معلقة هكذا فى السماء؟ و فى هذه السن المبكرة أيضاً، أخذ بيضة ونقعها فى الخل، فلانت كعجينة، ثم أدخلها فى عنق الزجاجة.. دقائق مرت وعادت البيضة إلى حجمها الطبيعى فى قعر الزجاجة، فتعذر خروجها منها. وفى عام ١٩٠١ أدخله والده إلى المدرسة الابتدائية فى النبطية، فبرزت لديه موهبة علم الحساب والرياضيات. وفى أحد أيام ذلك العام، دخل إحدى غرف البيت. وبيده جرة من فخار، وأدوات من جص وحبر وأقلام ملونة وبعد ساعات محدودة. غادر الغرفة وفى يده الجرة الجميلة وهو يخاطب والدته قائلاً: انظرى يا أمى، هذه هى الكرة الأرضية بقطبيها وهذه محيطاتها وخلجانها، وجبالها وصحراؤها.. إلخ. لقد رسم الصبى كل ذلك على الجرة، مستنداً إلى كتب التاريخ والجغرافيا، وغالباً ما كان يسأل أمه: هل تشعرين بثقل فى رأسى؟ رأسى أثقل من جبل.

- وبماذا تفكر يا بنى؟

- بأشياء لا أعرفها.. بعيدة، بعيدة.

وتتابع الوالدة: كان يضع الرمل فى إناء، ثم يصب فوقه الماء، ويضعه على موقد النار يغليه ويطبخه وهو ينظر إليه طول الوقت.

أما نفس الصباح فكانت تميل إلى الانفراد والعزلة والتوحد والتأمل فى الوجود.

بنقلة فى الزمان والمكان إلى أحمد زويل من خلال ما سجله من سيرته الذاتية فى كتابه «عصر العلم»، خاصة فى الفصل المسمى «بين النيل والمتوسط.. البداية»، يذكر أنه من مواليد عام ١٩٤٦ فى مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة فى دلتا مصر، وهى مدينة فرعونية قديمة كانت تضم معبداً لإله الشمس حورس؛ لذا فقد أخذ زويل، كما يقول «نصيباً من شمس حورس»، وبين دمنهور (مدينته ومدينة والده)، والإسكندرية، ودسوق مدينة والدته: نشأ الصبى ومن ثم الفتى أحمد، نشأة دينية، حيث لمسجد سيدى إبراهيم فى دسوق ولقيم المسجد والعائلة والمحيط بصمات فى نفسه يقول «لمسجد سيدى إبراهيم الدسوقى أهمية خاصة فى حياتى، فقد حدد هذا المسجد معالم طفولتى المبكرة.. فقيم وأخلاقيات المسجد النبيلة قد أحاطت المجتمع والبيئة بأسرها بسياج من القيم والأخلاق الفاضلة.. كان أصحاب الدكاكين حول المسجد يعرفون اسمى كما يعرفون أبى وعائلتى، وكان بوسعى أن أشترى ما أريد من البقال على سبيل المثال وآخذه دون أن أدفع ثمنه على الفور».

لقد نشأ فى بيت فقير، لكنه تعلم من والده، كما يروى، حب العمل وفن الحياة والاستمتاع بها، ومن والدته الورع والتدين.

وقد كان اهتمامه مبكراً ومنصباً على الموضوعات التحليلية، مع الرغبة فى السؤال: لماذا؟ وكيف؟.. كان يسأل نفسه، على غرار الصباح: كيف تعمل الأشياء؟ ويروى تجربة مبكرة له، يقول: «ذات يوم وضعت قطعة صغيرة من الخشب فى أنبوبة اختبار وسددتها بسدادة من فلين أوصلتها بأنبوبة على شكل حرف L، ثم أحرقت قطعة الخشب كى الاحظ خروج الغاز عند نهاية الأنبوبة، وكان معى فى غرفتى بالمنزل زميل يدعى فتحى جاويش، ثم اشعلت عود ثقاب لأحصل على لهب، وقد كان.. أى وجدتها، وكادت الغرفة تحترق ولاتزال أمى تذكرنى بهذه الحادثة حتى يومنا هذا».

نال فى دراسته فى مصر قبل الانتقال للجامعة، أعلى الدرجات فى الكيمياء والفيزياء والرياضيات.. كان يراوده حلم مبكر فى الصغر، أن يصل إلى أعلى الدرجات العلمية، حتى أن أهله كتبوا على باب غرفته «غرفة الدكتور أحمد».

وحين ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية: «بلاد الأحلام، كما يسميها»، قاصداً فيها استكمال تخصصه العلمى العالى فى جامعاتها ومختبراتها.. حمل معه فى صدره خزائن أحاسيسه وميوله الشرقية، كمصرى عربى مسلم، كعاشق لأغانى أم كلثوم، وسيد درويش، وكمحب لجمال عبدالناصر، وكمدرك لعظمة التاريخ الفرعونى القديم لمصر، من حيث إنه على شاطئ النيل، وتحت شمس حورس، تم ابتكار الآلات الأولى لتحديد الوقت والزمان، وأنه كان لمصر نصيب من ثمرات العقول العربية والإسلامية الوسيطة.. فلا نستطيع أن نقول إن أحمد زويل، خلال إقامته للتحصيل العلمى فى الجامعات الأمريكية، واحتكاكه بالمجتمع الأمريكى (الجامعى والعلمى على الأخص) وخلال بزوغ أنوار عبقريته البحثية والعلمية وانتشارها هناك، وصولاً لقطف جائزة نوبل فى العلوم.. لا نستطيع أن نقول إنه خرج من جلده المصرى والعربى والإسلامى الشرقى، ولا من روحه أيضاً.. ولكنه استطاع أن يوفق بين نزعتين، ومناخين، ويعطى مثالاً على تفاعل الثقافات أكثر مما هو مثال على تنازعها وصراعها (كما يرى هنتنجتون).

مأساة الصباح / مجد زويل

لقد جنى أحمد زويل مجداً كبيراً، وتكريماً معنوياً ومادياً لا حدود له، بنتيجة تتويج جهوده العلمية، واكتشافه العظيم مع فريق عمله العلمى، فى الفمتو، على كرسى نوبل ١٩٩٩، فى السويد، ولكنه قبل نوبل، كان قد حاز على جوائز كثيرة ذات قيمة علمية ومادية بعضها عربى، البعض الآخر عالمى. لقد تمتع فعلاً بنشوة العلم. لكنه تمتع أيضاً بما رافق أبحاثه واختراعاته من نشوة التقدير وجوائز التكريم والاعتراف بالفضل والعبقرية. إن العبقرية إذا لم تكرم، تتكفئ على ذاتها وتيأس. لقد حصل زويل على ما كان يرغب فيه من الدعم المالى لمشروعاته البحثية. كما حظى على اهتمام وتقدير جميع الجامعات التى تقدم منها بطلبات للتدريس أو مواصلة الأبحاث فى الولايات المتحدة. يذكر على سبيل المثال، أنه فى خريف عام ١٩٧٥ تقدم بطلبات للعمل فى نحو عشر جامعات أمريكية وأجريت مقابلات فيها جميعاً، ومن تلك الجامعات جامعة شيكاغو، راى، هارفارد، برنستون، كالتك، نورست وست، وغيرها. وقد تلقى منها ردوداً بالقبول. وعروضاً بالعمل، ما خلا الجامعة التى كان يرغب فى الانضمام لهيئة التدريس فيها (كالتك) لأنها فى نظره الأهم علمياً.. ووقع فى حيرة من أمره، إلى أن جاءه بعد وقت قليل، هاتف من «هارى جراى» (من الجامعة) يقول (بأسلوبه المميز): «أحمد.. نحن فى حاجة ملحة إليك.. ومولعون بك أيضاً».

يضيف أحمد زويل: «أخذت أضحك فى مرح وسرور بالغين قائلاً: هارى.. ولكنكم سوف تدفعون الثمن غالياً. أموالاً طائلة.. فأردف



قائلاً: «نحن في انتظارك». من بين العروض الكثيرة عليه، عرض جامعة شيكاغو، وكان مهماً بسبب برنامجها العظيم في الكيمياء والفيزياء.. وأقام رئيس الجامعة وزوجته احتفالاً تكريمياً وكذلك بقية الجامعات حيث قوبل بالود وكرم الضيافة وقد اصطحب أعضاء هيئة التدريس بجامعة رايس زوجاتهم معهم إلى حفل تكريمه.. حتى أنه شعر بجو حميم ودافئ ذكره بأهله وبلاده... «إنه تكريم وحب للعالم». كما يقول «إنه نظامهم وهو نظام رائع بالفعل.. ومحكم، ويكرم العالم أينما وجد (بمعزل عن انتمائه وأصله وعرقه ودينه).. لقد قدمت له جامعة كالتك مختبراً ومكتباً ملحقاً به وخصصت له ميزانية أبحاث، وسكرتيرة، وكانت كل الورش والخدمات الموجودة في الجامعة على استعداد لتلبية طلباته على الفور.. إلخ».

هذه العينة في سيرة زويل التي يرويها في كتابه «عصر العلم»، من اهتمام الجامعات الأمريكية والمجتمع الأمريكي (العلمي) به وبأبحاثه وكشوفاته، جعلته يعتبر أنه بالفعل، يقيم في قبلة العلم والعلماء، وأن جامعة «كالتك» هي مكانه الصحيح والمناسب.. وأنه ميال في قراره نفسه للبقاء في الولايات المتحدة وعدم الرجوع إلى مصر. سيما أنه كان قد تسلم إنذاراً من جامعة الإسكندرية التي كان يعمل فيها قبل مغادرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ينذره بالعودة، أو أن تتخذ الجامعة الإجراءات القانونية لفصله. يذكر أن المعاملات الإدارية المعقدة في مصر، وما يسميه زويل البيروقراطية، ويرمز إليه بالفيل الأبيض (الذي ينبغي قتله، كادت تمنعه من تحقيق حلمه بالالتحاق بالجامعات الأمريكية، لولا أن نائب رئيس الجامعة في حينه الدكتور عبدالرحمن الصدر فهم المشكلة بعد فحص أوراقه.. أومأ برأسه ثم قال: «سأوقع على هذه الأوراق، وسوف تسافر، ولكنك لن تعود ثانية».

لقد مر ببعض الإشكالات السياسية والاجتماعية، نظراً لانتقاله من مجتمع لآخر، مختلف عنه في قيمه وعاداته وأخلاقه، لكنه تجاوزها بهدوء. لقد تجاوز حاجز اللغة، باكتسابه الدءوب للإنجليزية، لغة العلم.. وتجاوز حاجز المظهر الخارجي، فقد كان حريصاً في بداية وجوده هناك، على المظهر الرسمي الأنيق، لكنه حين اكتشف أن لباس الناس جميعاً، بما في ذلك الباحثون والأساتذة والطلاب هو الجينز البسيط، لبسه.

وقد صدمته في البداية عادات أمريكية بين الطلاب، لا يألفها الجسم الجامعي في مصر، لهجة خطاب الطالب للأستاذ، على سبيل المثال، بلا تكلف.. فألف ذلك أيضاً، بل تفهم ما هو أغرب منه وأطرف: فقد دخل ذات مرة إلى الصف وبدلاً من أن يرى وجه أحد الطلاب، وجد رجليه ممدودتين أمامه على الطاولة.. فنبهه بلطف.. وفوجئ ذات مرة، في منتصف الليل، بشبح يركض عارياً تماماً في الكوريدور، وقد غطى وجهه بغطاء.. وحين سأل عن ذلك قيل له إنها عادة تسمى عادة الركض بسرعة البرق وبالعرى التام، يمارسها طلاب الجامعة.. كإحدى عاداتهم العجيبة، وكثمرة عن ثمرات الحرية المطلقة للمجتمع الأمريكي.. فتفهمها زويل، والأهم والأكبر، أنه استوعب وتفهم بعض النظرات العدائية للعرب والمسلمين، حين أبداها عدد قليل من أساتذة وزملاء صهاينة أو أمريكيين مؤيدين لإسرائيل.. إلا أن ذلك كله لم يشكل عائقاً أمام هدوئه الاجتماعي، وشغفه الذي لا يحد بالعلم.. فسعد بالنتيجة، وقطف أزهار نبوغه.. وكرمه المجتمع العلمي الأمريكي والمجتمع العلمي العالمي، وكان له من الأوساط الرسمية والشعبية في بلاده (مصر) نصيب من الحب والتكريم يصل لحد اعتباره معلماً كأبي الهول أو الأهرام أو ولياً من أولياء العلم المصريين.. طبعت صورته على طوابع البريد. ونال قلادة النيل، واعتبره الشعب المصري البسيط أعجوبته الجميلة والمحبوبة إلى العالم.. ومجموعة من الصور التذكارية التي ضمنها أحد زويل كتابه «عصر العلم»، تظهره بأجمل زي وأقفاً مع أبرز شخصيات مصر والعالم، من ملوك ورؤساء دول، ورؤساء جامعات، من ملك السويد إلى رئيس مصر حسني مبارك، ومن الرئيس الأمريكي كلينتون إلى البابا جون بول الثاني، ومن الدكتور مهاتير محمد (رئيس ماليزيا) إلى سونيا غاندي، ومن رئيسة أيرلندا إلى ملك بلجيكا.. وهكذا وهكذا.. قطف الرجل ما يستحق من ثمار عقله. لقد سيده علمه».

هنا كان لابد لي من العودة لمخترع عبقري عظيم من جبل عامل (في الجنوب اللبناني)، سيده عقله. لكن سيرته، على خلاف ما هي عليه سيرة زويل، تتسم بالمأساة. كذلك نهايته، علماً بأن كليهما طلع من طينة عربية شرقية إسلامية، ونبغ ولمع في الولايات المتحدة الأمريكية. الصور الفوتوغرافية المعروفة لحسن كامل الصباح، غالباً ما تظهره لابساً على رأسه الغطاء المعروف في مطلع القرن العشرين: العقال والحطة: وجه أسمر بعينين سوداوين لامعتين تحت حطة وعقال عربيين.

حسناً هو زي من أزيائه، كان على الأرجح، يرغب في ارتدائه أحياناً، وهو في الولايات المتحدة الأمريكية.. الزي العربي.

ويتبين من رسائله إلى أهله وأصدقائه، ومن مذكرات بعض معارفه الذين عايشوه في المغترب الأمريكي، أنه كان شديد الالتزام بطقوسه الدينية الإسلامية، وأنه كان عضواً عاملاً في الجمعيات الثقافية اللبنانية والعربية هناك.

يصفه الشاعر اللبناني المغترب إيليا أبو ماضي، مستعيداً شيئاً من ذكرياته معه في الجامعة الأمريكية في بيروت، يقول: «طالب عاملي، أسمر كالحنطة أو أغمق، سمهري القوام عالي الجبهة. في محجريه عينان سوداوان براقتان نافذتا النظر.. وشاع بيننا يومياً أنه شيطان من شياطين العلوم الرياضية، كان رياضياً أصيلاً ومهندساً وباحثاً فيزيائياً ممارساً في آن واحد».

وقد تعرف إيليا أبو ماضي إليه عن كثب في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٢٩، فكتب فيه مقالاً في العام نفسه بتاريخ ١٥ حزيران، بعنوان: «نبي في غير وطنه» نشره في مجلة السمير، سماه فيه «شاعر الأرقام» وورد فيه: «هو رياضي كبير ومخترع قليل النظراء حتى في الوسط الأمريكي، إنما اسمه لايزال خفياً، كأنه مشمول بضباب كثيف، وذنبه أنه شرقي، وهذا يبرهن لنا فساد القول الشائع من أن العلم لا وطن له».

والسيرة المختصرة لحسن كامل الصباح، في الولايات المتحدة، تنطوي على عنصرين لعظمة وعبقرية العالم المخترع: الذي أقرت به اختراعاته في شركة جنرال الكتريك، والبراءات العلمية الممنوحة والمسجلة في واشنطن عاصمة أكبر دولة علمية في العالم. لكن، إلى ذلك، كان يعيش عنصراً تراجيدياً نظراً لغربته المركبة: فقد عاش الرجل غربته في وطنه، وغربته في المجتمع الأمريكي، وغربته في عقله.. فقد قال: «إن العقول كلما ارتفعت شعرت بالوحدة، فوحشة العقول أشد قسوة من وحشة النفوس وألم العقل أشد إيلاماً من ألم النفس والجسد».

لقد انتقل الصباح من بلدته النبطية إلى بيروت، فدمشق، فبيروت، فالولايات المتحدة الأمريكية بحثاً عن المعرفة العلمية التي كانت قلقه وحافزه وغايته. وقد التحق هناك في مختبرات شركة جنرال الكتريك لعبقريته العلمية كنجم ثاقب وأطفئت جذوته بحادث سير غامض، وهو لا يزال في ريعان الشباب والنشاط. اشترى وقرأ وهو في المدرسة الإعدادية في بيروت عام ١٩٠٨، كتاب الجبر لفانديك وكتاب إقليدس. وبرع وهو في صف السوفومور في الكلية السورية الإنجيلية (عام ١٩١٤) في علوم التفاضل والتكامل والمثلثات في مجالي الرياضيات والجبر العالي.

ذهب للخدمة العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى، انتقل إلى دمشق وعاد منها إلى بيروت عام ١٩٢١ حيث تعرف على رئيس الجامعة الأمريكية وتم تعيينه مدرساً للرياضيات في المدرسة الإعدادية في الجامعة.

استقال من الجامعة في تموز ١٩٢١ وتلبية لرغبته في السفر إلى الخارج لمتابعة الدراسة في مجال الهندسة الكهربائية. وبعد أن تلقى قبولاً من جامعة بوسطن في ولاية ماساتشوستس، غادر الصباح بيروت في ٣٠ آب ١٩٢١، ووصل إلى نيويورك في ١٤ تشرين الأول ١٩٢١ بعد مروره في الإسكندرية ومرسيليا، خالي الوفاض إلا من بضعة دولارات.

في صيف ١٩٢٢ اتجه نحو مختبرات شركة جنرال إلكتريك، ثم انتقل من جامعة لأخرى ليستقر عاملاً في الشركة المذكورة. وقد اعتبرته الشركة من حاملي شهادة الهندسة الكهربائية وأعطته عملاً شاقاً براتب لا يتجاوز ١٧ دولاراً في الأسبوع، رفعته بعد ذلك إلى ٢٥ دولاراً. ووقعت معه اتفاق إذعان التزم بموجبه أن تكون جميع اختراعاته ملكاً للشركة، وأن تنتفع من عائداتها هي وحدها. وبالمقابل فإن الشركة قررت منح الصباح مكافأة قدرها دولار واحد مقابل كل اختراع يسجل له (هذا العقد مؤرخ في ٢٣ آب ١٩٢٣).

اخترع مكونات مهمة قادت لاختراع التليفزيون عام ١٩٢٥، وسجل اختراعا له في الرؤية باللاسلكي، سجلته أيضاً الشركة في اليابان وفرنسا وإنجلترا وبلجيكا وأفريقيا الجنوبية والهند.. ولم يستفد منه الصباح إلا بدولار واحد. راوده بعد عام ١٩٢٩ حلم بإضاءة الصحراء العربية من خلال تأسيس مصانع عظيمة في الصحراء مستغلاً طاقة الشمس. وربما أرسل في ٧ كانون الثاني ١٩٣٥ قبل وفاته بأشهر، على ما يروي يوسف مروة في كتابه عنه، للملك عبدالعزيز آل سعود، يفاتحه على أساس بناء مزارع لتوليد الطاقة الكهربائية من الشمس في صحراء الربع الخالي.

في عام ١٩٣٣ تمت ترقيته من قبل المديرين في شركة جنرال الكتريك ورفع من درجة عضو إلى رتبة «فتى» في المؤسسة الأمريكية للمهندسين الكهربائيين، ومنح لقب «فتى العلم الكهربائي» وهي رتبة علمية لا يبلغها إلا المبرزون. وعلى الرغم من ذلك، فإن الشركة لم تزد راتبه أكثر من ذلك، كان يشعر الصباح في أمريكا، وفي عمله بالذات في الشركة بحصار مرير واضطهاد لا يوصف. فعلى الرغم من تسجيل ٣٧ اختراعاً باسمه في الفيزياء والفيزياء الكهربائية والكهرباء الصناعية في مكتب التسجيل الاتحادي في واشنطن و١٥ اختراعاً مشتركاً مع باحثين آخرين، وعلى الرغم من نبوغه النظري من خلال أبحاثه العلمية في نظرية النسبية: في الوقت النسبي Temps Relatif والفضاء النسبي Espace Relatif وفي الكتلة والطاقة وحتى في هندسة الطيران.. وعلى الرغم من اعتراف جميع الأوساط العلمية في أمريكا والعالم بنبوغه وتفوقه، فقد كان يعيش مأساة لجهة حصاره المالي بسبب تقتير الشركة عليه، وتخفيض راتبه عدة مرات بدلاً من زيادته، وخاصة لجهة محاصرته بالكراهية من قبل العاملين في الشركة ومن قبل القيمين عليها.

يكتب في رسالة لوالده في الوطن بتاريخ ٧ تموز ١٩٣٠: «أما قدومي الآن فليس بممكن لأني لا أملك شيئاً من المال» ويضيف «لقد شملني الله بتوفيقه في المباحث العلمية، والفنية، فعسى أن يتم نعمته عليَّ بسعة العيش».

وفي رسالة أخرى لوالده مؤرخة في ٥ آب ١٩٣٠ يقول: «إني محاط بأناس أسافل منحطين، ورؤساء الشركة وكبارها لا يتمكنون من رفع شأني لاعتراض أولئك الأسافل». ولكي تكتمل مأساة هذا العبقري الغريب وبعد أن كتب لوالديه في ٢٩ آذار ١٩٣٥ أنه «يستشعر بالخطر» يقع يوم الأحد في ٣١ آذار ١٩٣٥ (أي بعد يومين من الكتاب آنف الذكر) حادث سير يقتل فيه الصباح: لقد أفلت من يده زمام قيادة السيارة في الطريق بين مركز عمله ومركز مالون. وهوى إلى أعماق الوادي من علو ١٥ قدماً.

قبل أن يقفل باب التاريخ ويفتح باب المخيلة أو الأسطورة في صعود وموت حسن كامل الصباح. يحسن أن نورد نص الرسالة التي بعث بها مدير شئون المستخدمين في شركة جنرال الكتريك س. ج. مربس إلى والد الصباح يتناول فيها بالتفصيل بالأرقام: ويستطرد في رسالته إلى أن يضيف: «يكون الباقي له ٢٠ دولارا. هل أرسل إليكم حوالة مصرفية أم شيكاً شخصياً أم حوالة بريد؟ نرجو أن يكون جوابكم على هذه الأسئلة دقيقاً ومضبوطاً لأنه أمر مهم لنا».

حسناً، انتهى الكلام. والأسئلة كثيرة. وفاجأني صديق له خبرة في المجتمع الأمريكي إذ قال: هل لليهود ضلع في المأساة؟ وقلت له: ولكن أين هو الوطن العربي للمخترع أو المبدع أو العالم؟ ❋





العولمة

تحديات سياسية واقتصادية وثقافية

حمدى عزام

■ شهد العالم مع نهايات القرن المنصرم وبداية القرن الواحد والعشرين اتساعاً وتداخلاً غير مسبوق فى شبكة العلاقات والمصالح بين مختلف بقاع العالم ترتبت عليه تحديات وتغيرات متلاحقة ومعقدة فتحت آفاقاً جديدة واحتمالات غير محسوبة يصعب التكهن بأبعادها والتحكم فى اتجاهاتها والسيطرة على نتائجها المستقبلية. فانتشرت مشاعر الخوف والقلق بين شعوب القارات الخمس وأصبح تحديد مفهوم العولمة مطلباً ملحاً والشغل الشاغل لمفكرى العالم، مما أدى فى نفس الوقت إلى شيوع وإفراط فى استعمال كلمة العولمة وصفه البروفيسور جيرت كايزر بأنه «أصبح سوطاً ينهال علينا بمعالجات جزئية مبنية على المصالح الذاتية تفتقر إلى العمق والشمول والالتزام بالمسئولية الفكرية». ومع تزايد البطالة وتقليص الضمانات الاجتماعية ومحدودية الطاقة غير المتجددة اتجهت غالبية معالجات الغرب الصناعى إلى التركيز على الجوانب الاقتصادية والمالية لتعكس مخاوف من المساس بمستوى معيشة شعوبها المتميز الذى تفصله هوة سحيقة عن نظيره فى باقى دول العالم، فى حين تزايد قلق شعوب العالم النامى من ربط العولمة بالمفاهيم الفكرية والثقافية الغربية، مما يشكل تهديداً لهويتهم ومساساً بتقاليدهم ورصيدهم الحضارى يضيف إلى التفاوت الاقتصادى والعسكرى غزواً ثقافياً وفكرياً يستكمل ويخدم مخططات الهيمنة.

وفى خضم هذا التباين ومظاهر الخوف والقلق صدر عام ٢٠٠٦ كتاب جديد بالألمانية للمستشار الألمانى السابق هيلموت شميت عن دار النشر جولدمان بعنوان «العولمة» وعنوان جانبى «التحديات السياسية والاقتصادية والثقافية» لقى اهتماماً كبيراً فى الأوساط الثقافية والسياسية لعمقه فى التحليل وتميزه بربط الجوانب الاقتصادية والسياسية الواقعية مع البعد الفكرى والثقافى لظاهرة العولمة.

وقد سبق للمستشار شميت كأستاذ زائر إلقاء مجموعة من المحاضرات حول نفس الموضوع فى جامعة هاينريش هاميه بوسلدورف نقلها التليفزيون الألمانى فى بث مباشر، مما أثار جدلاً ومناقشات فى الدوائر الأكاديمية والسياسية دفعه إلى إصدار كتابه الجديد الذى يطرح أفكاراً أساسية ترفض توصيف العولمة كنظرية مبتكرة وتكتيك آنى وتعتبرها ظاهرة ثابتة نتجت عن تطورات فى المجتمع الدولى تختلف كلية ولا تقاس بتجارب العالم التاريخية السابقة، ولا يمكن وقف انطلاقها بإعادة عقارب الساعة إلى الوراء، كما لا تجدى مجابهة تحدياتها وأخطارها بالانكفاء على المصالح الأنانية الذاتية أو الاتجاه إلى انغلاق وتقوقع، بل بفكر جديد يعتمد المسئولية العالمية التى تتضمنها وتشير إليها كلمة العولمة فى حد ذاتها..

ويؤكد فى إصرار دعوته للتفاهم والتسامح بين الشعوب وقبول الآخر فى نقد لاذع لأفكار الهيمنة ولمواقف الغرب المتعالية التى تهمش مصالح الغير ومعتقداته ليذكره بأن «ما تضمنه تاريخ الغرب من حقب مظلمة وممارسات متطرفة وحشية لا يضفى مشروعية ولا يؤهله للعب دور المعلم وفرض القيم وفق معاييره على غيره من الشعوب، وأن التسامح لا يعنى مجرد التجاوز والتغاضى عن الفكر الآخر، بل يعنى بالضرورة معرفة واحترام فكر ومعتقدات الآخرين والاستفادة من قيمها وتجاربها».

ويرى فى مجال تقييمه للقوى العظمى أن القوة والتفوق العسكرى لم يعد المعيار الأوحد والأساسى وأن بداية القرن تشهد ثلاثية واقعية تضم بجانب الولايات المتحدة كلا من روسيا والصين وتفتح المجال لمزيد من القوى على اختلاف أوزانها كاليابان والهند والاتحاد الأوروبى وربما إندونيسيا والبرازيل.

لا شك أن بحث وتحليل العولمة هو موضوع جاف متشعب ومتشابك لواقع جديد يشهد انفجاراً عالميا للسكان وتضاعف عدد المشاركين فى الاقتصاد العالمى وتقدم وانتشار سريع للعلوم والتكنولوجيا مع ليبرالية اقتصادية غير مسبوقة. وتغيرات فى موازين القوى الدولية، واتجاهاً لتقارب مستويات المعيشة، واحتمالات تصادم سياسى واقتصادى وفكرى. ولذا كان المستشار شميت على حق فى طرحه للتساؤل عن مدى عمق الإدراك والوعى بمضمون وأبعاد ومخاطر هذا التطور الهائل الذى غير وجه العالم وعما أعدته القيادات السياسية لمجابهة تحدياته وأخطاره أو ما يتيحه من فرص، ولم يبد فى هذا تفاؤلاً بالمستقبل القريب على ضوء ما يلمسه من مواقف وتصرفات معاصرة قصيرة النظر مازالت أسيرة أفكار تقليدية تتمسك بالأمر الواقع وتتشبث بأوضاع قائمة للحفاظ فى أنانية على مصالح ذاتية وقتية دون استيعاب لأبعاد التطور وخطورة التحديات.

ظاهرة العولمة ومخاطرها

يستهل الكاتب القسم الأول من مؤلفه بأمثلة مبسطة وملاحظات شخصية عما قد تعنيه العولمة بقوله «جلست فى موسكو أشاهد قناة التليفزيون الألمانى ZDF بعد وصولى من القاهرة، حيث تابعت الأخبار فى غرفتى بالفندق على قناة الأخبار الأمريكية CNN، ثم توجهت إلى فيينا متابعاً الأخبار عبر القناة اليابانية NHK وبعد وصولى إلى منزلى فى هامبورج تنقلت بين أكثر من ٣٠ قناة أجنبية تغطى أخبار العالم، ويسرد فى مثل ثانى أنه بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب منعت من صناعة السفن ثم أصبحت تحتاج إلى إذن خاص من الولايات المتحدة وبريطانيا حتى رفع الحظر فى أواخر الخمسينيات، فانطلقت ألمانيا بحماس لإعادة بناء أسطولها التجارى، ولم يمض على ذلك بضع سنوات حتى توقفت غالبية أحواض السفن عن العمل، وأصبحت ناقلات البترول وسفن الحاويات الضخمة تصنع وتستورد من اليابان، ثم كوريا الأرخص سعراً لتنطلق عبر البحار تحت أعلام دول أجنبية وبطواقم مختلفة الجنسيات. ويتذكر أن السفن المنطلقة من ميناء هامبورج كانت تحتاج فى العشرينيات إلى عدة أشهر للوصول إلى أمريكا الجنوبية للعودة محملة بالأملاح والمواد الأولية. واليوم تنطلق يوميا أعداد من الطائرات لتصل إلى سنتياجو دى شيلى فى نفس اليوم، وفى مثال رابع يذكر أنه عندما انهارت بنوك إندونيسية وأغلقت بنوك استثمار يابانية أبوابها وحدث انهيار فى أسعار عملات جنوب شرق آسيا وهبطت الأسعار بشكل حاد فى بورصة طوكيو لم يتطلب الأمر سوى ثوان معدودة ليتعكس على بورصات لندن ونيويورك وزيورخ وأمستردام. ومنذ خمسين عاماً لم يكن أحد يتصور أو يفكر فى شراء أو بيع أوراق مالية يابانية ليحقق ربحاً أو تصيبه الخسارة.

Globorlisierung
Politische, okonomische und
Kultureue Hereusforderung
(التحديات السياسية والاقتصادية والثقافية للعولمة)
Helmut Schmidt
wilhelm Goldmann verlag -
munchen - 2006

ستزداد حدة الانفجار السكانى فى العالم مع تفاقم مشاكل البيئة وتغير المناخ والاحتباس الحرارى حاملة أخطاراً للمستقبل تهدد السلم العالمى

نشير هذه الأمثلة البسيطة إلى ما تحقق خلال القرن العشرين من قفزات هائلة فى حجم ونوعية الصلات والتشابك بين قارات العالم الخمس ودوله المائتين. وأن التقدم الحديث فى وسائل النقل وتكنولوجيا الاتصالات والتقنيات الجديدة للتجارة والتمويل قد غيرت وجه العالم بمفهوم العولمة وتطلبت لغة وأسلوب تخاطب ذا صبغة عالمية، فبعد أن كانت اللاتينية لغة العلم والتعليم فى أوروبا تلتها الفرنسية على الأقل كلغة السياسة والدبلوماسية، انتشر استعمال الإنجليزية الأمريكية فى التقنيات الحديثة، وقد تصبح الصينية مستقبلاً أكثر أهمية فى العالم من الإسبانية والألمانية وربما الفرنسية. وفى غضون السنوات القادمة لن يتمكن محام أو طبيب أو مهندس أو حتى ربات البيوت من ممارسة مهنهم ومجابهة متطلبات الحياة اليومية دون القدرة على استعمال الكمبيوتر.

الانفجار السكانى

لم يكن عدد سكان الأرض مع بداية التقويم الميلادى يزيد على ٢٠٠ مليون واحتاج إلى ٩١ قرناً ليتضاعف ثمانى مرات ليصبح ١٦٠٠ مليون. ومع تقدم الطب وانخفاض وفيات الأطفال ومقاومة المجاعات والأوبئة ارتفع عدد السكان عام ٢٠٠٠ أى خلال قرن واحد فقط إلى ٦٠٠٠ مليون نسمة، وبمعنى آخر أنه خلال القرن العشرين تقلص نصيب الفرد من المساحة الصالحة للعيش إلى ١/٣٠ مما كان عليه فى القرن السابق. ومازال الانفجار السكانى يتزايد خاصة فى آسيا وأفريقيا، بحيث أصبح مجموع سكان الهند والصين يفوق بمراحل إجمالى سكان العالم قبل جيلين، وأصبحنا نشاهد مشاكل التكدس فى المدن العملاقة كالقاهرة ومكسيكو سيتى وريودى جانيرو وشيكاغو غير القابلة للحل وستزداد حدة الانفجار السكانى فى العالم مع تفاقم مشاكل البيئة وتغير المناخ والاحتباس الحرارى حاملة أخطاراً للمستقبل تهدد السلم العالمى فى ظل تكدس وازدحام وتلاصق بشرى يؤدى إلى مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية وعقائدية، وتنافس على الأسواق العالمية ومصادر الطاقة والمياه وهجرات غير منظمة.

عولمة الاقتصاد والتكنولوجيا

شهد العالم فى الماضى صلات تجارية بين القارات عبر طريق الحرير وطريق التوابل، ومن خلال نشاط البحارة العرب والهنود.. ومع بداية القرن العشرين شاع استعمال تعبير «الاقتصاد العالمى»، ولكن حتى وقت قريب كان الغرب يعنى بذلك اقتصاد الدول الصناعية الغربية OECD التى تضم أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان وأستراليا، أما باقى سكان العالم فكانوا يعيشون بالنسبة له فى عالم ثان هو الكتلة الشيوعية المنغلقة على نفسها، أو فى عالم ثالث من الدول النامية التى اعتبرها مجرد مصدر للمواد الأولية والبترول، وقد تحصل على قسم طفيف من إنتاجه الصناعى، ولم يستوعب الدروس من موقف دول الأوبك وأزمتى الطاقة فى السبعينيات ومن تحول كوريا وتايوان وهونج كونج وسنغافورة إلى دول صناعية، ومن انعكاسات أزمة المديونية فى المكسيك، لتنبهنا إلى بزوغ عصر جديد من الترابط والتأثير الاقتصادى المتبادل بين الدول، وإلى ظاهرة أخرى للعولمة هى تضاعف عدد الدول المشاركة فى الاقتصاد العالمى الذى لم يقتصر على ما أسميناه بالنمور الأسيوية الصغيرة ويشمل الدول التى تكونت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية والصين بسكانها ١٢٠٠ مليون نسمة، التى أصبحت شريكاً أساسيا فى منظومة الاقتصاد العالمى، والتى ستتبعها فى سرعة الهند وفيتنام وباقى دول آسيا التى تعمل بذكاء ونشاط وبأيد عاملة رخيصة وضمانات اجتماعية منخفضة.

أضف إلى ذلك ما يشهده الاقتصاد العالمى من ليبرالية وحرية التجارة وانتقال رؤوس الأموال والاستثمارات عبر الحدود، والإنتاج المشترك Joint Venture وفتح الفروع، مما أدى إلى إزالة الحواجز أمام انتشار وانتقال التكنولوجيا وأساليب الصناعة الحديثة إلى الدول الصاعدة التى استفادت من نتاج البحث العلمى والمخترعات وتطويرها بعد أن كانت حكراً على الغرب الصناعى، وأصبحت على سبيل المثال صناعة الإلكترونيات التى بدأت فى أوروبا قبل ثلاثين عاماً منتجاً متفوقاً تنتجه وتصدره اليابان وكوريا بجانب السيارات. وعلى غرارها صناعة البرمجيات فى بنجالور بالهند، بجانب غزو المنتجات الأسيوية من السلع الاستهلاكية للأسواق العالمية.

وفى نفس الوقت شهد العالم ثورة فى أساليب وتقنيات أسواق المال والعملات والبورصات والقروض والتأمينات بشكل عام يشكل أخطاراً فى تقلبات أسعار العملة، ويزيد من مخاطر التجارة خاصة الصفقات الآجلة، ازداد حدة بعولمة المضاربات، التى يبلغ حجمها اليومى أكثر من مائة ضعف حجم التجارة العالمية من السلع والخدمات فى نفس اليوم، وتسارعت الاندماجات بين كبرى الشركات الصناعية والبنوك لتتم بأساليب عنيفة unfriendly takeover وظهور أيديولوجيات جديدة تتصل باتجاهات الأسواق المالية Financial derivatives وبنوعيات الربح Shareholder وضرورة الربح تحت أى ظروف Catch- as - Catch - can وهو ما يفضل شميت أن يطلق عليه تعبير «رأسمالية الوحوش الكاسرة».

ولا يقتصر أثر العولمة الاقتصادية على تشجيع انتقال الإنتاج وفرص العمل إلى الدول الأقل تكلفة وأجوراً، بل رافقها انتقال النقد ورؤوس الأموال والاستثمارات إلى دول ومناطق صغيرة ذات ضرائب منخفضة ورقابة بنكية شكلية تجتذب رؤوس الأموال الأجنبية. وستؤدى عولمة الاقتصاد تدريجيا إلى النيل من اختصاص وسلطات الحكومات الوطنية والمجالس التشريعية خاصة فى موضوع الضرائب. كما سيؤدى تواتر صعود الدول الصناعية الجديدة التى تحسن استخدام التقنيات الحديثة والاستفادة من فرص الأسواق العالمية إلى اتجاه لتقارب وتساوى مستوى معيشتها مع الدول الصناعية التقليدية القديمة وعلى حسابها.

العولمة والقوى العظمى

لم تحظ ظاهرة التغير فى موازين القوى العالمية باهتمام كبير ومتابعة لظاهر تحولها، ولم تعد القوة العسكرية هى المعيار الوحيد والأساسى لتحديدها، وتعتقد الولايات المتحدة بأنها القوة العالمية الأوحد وتبذل جهداً كبيراً للمحافظة على هذه الصفة لعشرات السنين، ولكنهم مخطئون تماماً فى ذلك. فمن يسافر إلى كوريا أو اليابان أو جاكرتا وبانجوك وسنغافورة ومانيلا سيسمع فى إجماع من المسئولين ورجل الشارع فى قناعة مبررة أن الصين اليوم وبلا جدال هى قوة عالمية عظمى، وقد يحتاج الأوروبيون لبعض الوقت والأمريكان لوقت أطول، لاستيعاب والتسليم بهذه الحقيقة. كما أن روسيا ستظل قوة عظمى مهما احتاجت من وقت لتثبيت أوضاعها السياسية والاقتصادية وامتصاص الهزات المترتبة على انهيار النظام الشيوعى. وهى تملك مساحات شاسعة من الأرض الغنية بالمواد الأولية وكميات وأرصدة ضخمة من البترول والغاز ومجموعة فاعلة من العلماء والباحثين وعشرة آلاف من الرؤوس النووية.

الواقع يشير إلى وجود ثلاث قوى عالمية فى عصر العولمة هى الولايات المتحدة والصين وروسيا قد نضيف إليها قوة أصغر هى اليابان، باعتبارها أكبر دولة مصدرة لرؤوس الأموال فى العالم، ليلحق بها الاتحاد الأوروبى والهند وربما إندونيسيا والبرازيل فى المستقبل.

ليس لدى الولايات المتحدة سياسة واضحة تجاه روسيا أو تجاه الصين وهى غير مفهومة فى موسكو وبكين. ومع ذلك فلا يتوقع نشوب حرب بين القوى الكبرى مع بدايات القرن، ولكن المتوقع تزايد النزاعات الإقليمية والحروب المحدودة فى شرق ووسط آسيا وفى الشرق الأوسط وأفريقيا لأسباب الكبت السياسى وتردى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتطرف العرقى والدينى.

العولمة وصدام الحضارات

هناك ظاهرة قد تشكل أخطاراً محتملة على السلم ويجب أخذها مأخذ الجد. وهى ما أطلق عليها صمويل هنتنجتون تعبير صدام الحضارات، وإذا ادعى أحد حتمية الصدام بين الغرب والإسلام فيجب أن نصفه بالجنون والخطورة، ولا ينفى هذا الأخذ بعين الاعتبار أن التشابك والانفتاح بين المجتمعات فى ظل العولمة يتضمن فى نفس الوقت تعدداً وتبايناً فى المعتقدات الدينية، فى عالم يضم أكثر من مليار مسلم ومليار مسيحى وأكثر من مليار ونصف ممن يعتنقون الكنفوشية ومليار من الهندوس عدا البوذية وغيرها من المعتقدات الدينية. وأن احتمالات التصادم بين الجماعات المتأثرة بالأفكار الأصولية الدينية المتطرفة هو احتمال قائم يجب أخذه بجدية ومجابهته.

والحقيقة أن مواطنينا فى الغرب لا يعلمون شيئاً عن الإسلام، كما لا يعلم الناس فى العراق وإيران والجزائر وتركيا أو ليبيا وسوريا الكثير عن أوروبا ذات الصبغة المسيحية، بل إن أكثرهم يعتبر أن ما يطلقه الغرب من دعايات عن حقوق الإنسان والديمقراطية بمفهومنا هى مجرد أدوات وأسلوب يستعمل لفرض سيطرة الغرب السياسية والاقتصادية على منطقتهم وبلادهم.

ولا تقتصر احتمالات الخطر على منطقة أو معتقدات معينة، بل هى ذات أبعاد عالمية جابهتها أوروبا فى مشكلة البوسنة وفى أيرلندا وتنطبق أيضاً على الصين المتأثرة قياداتها وشعبها بالكنفوشية التى سادت البلاد لآلاف السنين. ومازلنا نوجه لها النقد ونطالبها بتطبيق



المفاهيم الأمريكية والأوروبية عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، مما يحمل مخاطر التصادم.

إن مستقبل السلام في العالم يرتبط بمدى استعداد الشعوب والدول لتطبيق مبادئ التسامح الفكري والثقافي والديني فيما بينها، وهو حقل متسع وهام، لا نتمتع فيه نحن الأوروبيين بسمعة طيبة لما قمنا به من حروب صليبية حاملين الإنجيل بيد والسيف في اليد الأخرى في حقبة تاريخية مظلمة من الأصولية المتطرفة التي لا تعبر عن العقيدة المسيحية، كما لا تعبر الأصولية المتطرفة والإرهاب عن جوهر العقيدة الإسلامية.

تحديات سياسية واقتصادية

يتناول شميت الموضوع - وبحكم انتمائه - من زاوية أوروبية وألمانية تأخذ في الاعتبار ظاهرة الهيمنة والتصرفات المنفردة للقوى الأعظم التي شكلت عبئاً إضافياً في مجابهة تحديات المرحلة. ولا يمكن إرجاع السلبيات والمشاكل إلى ظاهرة العولمة فقط، بل إن قسطاً كبيراً منها يرجع إلى تصرفات ومواقف سياسية واقتصادية خاطئة.

لقد كان من أسباب توحيد أوروبا الغربية إقامة حاجز يمنع انتشار الفكر والتوسع الشيوعي. وبعد زوال هذا الحاجز، أصبحت هناك قناعة بين دول القارة الأوروبية المكونة من دول صغيرة ومتوسطة الحجم بأن التوازنات الدولية لا تتيح لأي منها منفردة الحفاظ على مصالحها تجاه عمالقة السياسة العالمية، ومثال ذلك ما حدث في مؤتمر المناخ في كيوتو خريف عام ١٩٩٧ الذي بحث الحد من كمية الغازات المنطلقة من كل دولة لحماية طبقة الأوزون. واتخذت قوتان عالميتان هما الولايات المتحدة والصين خلاله موقفاً رافضاً ومتشدداً ولو لم تتضامن دول الاتحاد الأوروبي في موقف موحد لابتلعتها الدولتان الأعظم وأهدرت مصالحها وقد يتكرر نفس الموقف مستقبلاً في ظل ثلاثية القوى الكبرى، وقد أدى تكامل واتساع السوق الأوروبية إلى تحقيق مصالح اقتصادية لأعضائه، مما دفع دولاً كالدانمارك والسويد وفنلندا والنمسا إلى الانضمام إلى الاتحاد تبعتها دول أوروبا الشرقية واعتبر توحيد العملة (اليورو) خطوة كبيرة لم ترحب بها الولايات المتحدة، ولم يتمكن الاتحاد الأوروبي من توحيد سياسته الخارجية وسياسته الأمنية، ويجابه مشاكل من التوسع في عدد أعضائه، مما قد يؤخر صعوده للانضمام إلى مجموعة القوى الكبرى حتى نهاية الربع الأول من القرن الحالي. ويكرر شميت الإشارة إلى المخاطر التي يتضمنها المزيد من الاندفاع نحو ليبرالية التجارة التي تشجعها منظمة التجارة العالمية بضغوط أمريكية والتحرر شبه المطلق لانتقال النقد ورؤوس الأموال وعولمة المضاربات والاندماجات الكبرى ومضاربات أسعار العملة التي لم تعد حتى البنوك المركزية والحكومات تستطيع الإحاطة بكل جوانبها. مما يستوجب في المستقبل إنشاء منظمة دولية للرقابة والمتابعة، بعد أن أصبح البنك الدولي وصندوق النقد الدولي غير مناسبين لتولي هذه المهمة.

ويعلق شميت على اتجاه بعض الدول والسياسيين إلى الحد من البطالة والركود الاقتصادي بتطبيق نظريات كينز John Maynars Keynes التي ظهرت في الثلاثينيات بالصرف مع زيادة العجز Defecit Spending بمعنى توسع الدولة في الصرف على برامج الاستثمار وتوفير فرص العمل، وتمويل ذلك عن طريق الاقتراض وزيادة مديونية الدولة، مع خفض للضرائب معتبراً ذلك علاجاً غير فعال لخلق فرص عمل جديدة نتيجة لعولمة وليبرالية الاقتصاد وتشابكه بين دول العالم، وفي عرض مفصل يطرح عدداً من المقترحات والآراء لمجابهة تحديات العولمة وآثارها. تعتمد أساساً على ديموقراطية المجتمعات وحرية مواطنيها، وإزالة العوائق التي تحد من انطلاق القدرات الخلاقة لأفرادها بسبب البيروقراطيات المتعفنة وإغراق المواطن بآلاف من مواد القوانين واللوائح والتنظيمات، والإجراءات القضائية البطيئة غير الفعالة، وتعدد وتضارب جهات الاختصاص، والثغرات القانونية والضرائبية والأوضاع الاستثنائية التي تفتح المجال لانتشار الفساد، ومركزية الدولة الشديدة ويؤكد أهمية وضرورة دعم وتشجيع البحث العلمي كأولوية مطلقة.

التحدي الثقافي والفكري

يخصص الكاتب فصلاً كاملاً عن التحديات الثقافية للعولمة يتناول فيه دور الفنون والآداب ومهام المدارس والجامعات وأجهزة الإعلام في التجديد ونشر المعرفة ويعطي اللغات القومية اهتماماً خاصاً، فبالرغم من انتشار لغات عالمية في استعمالات التكنولوجيات الحديثة وهو وضع مقبول لا يجب محاربته، إلا أن حفاظ الشعوب على لغتها القومية واستخدامها في التخاطب في الحياة اليومية وفي الآداب هو أمر حيوي لها، إذ إن ضعفها أو زوالها يعني فقدان جزء كبير من حضارتها وثقافتها وبالتالي هويتها.

وفي معالجة قوية يتناول المستشار شميت بما عرف عنه من صلابة كمفكر سياسي وبأسلوب صريح مباشر، موضوع فرض الثقافات والمفاهيم على الغير، وننقل في هذا الصدد بعض فقراته بالنص باعتباره أمراً مطروحاً للنقاش في عالمنا العربي في الآونة الأخيرة.

فيقول في مجال التحدي الثقافي للعولمة «هناك خطر على السلم العالمي مصدره الغرب، خاصة الولايات المتحدة.. وهو محاولة أن نفرض على غيرنا من الشعوب والثقافات والقارات مثلنا ومفهومنا للمدنية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وعلينا أن نتذكر أنه لم يمض نصف قرن على النظام النازي العنصري العدواني في ألمانيا، وأن تحرير العبيد تم في الولايات المتحدة منذ قرن ونصف القرن بحرب أهلية دموية، فهل يؤهلنا هذا لفرض قيمنا الغربية على غيرنا».

«لقد كان التعليم وتدريس التاريخ في أوروبا وأمريكا مقصوراً في أنانية وانغلاق على التاريخ الأوروبي فقط، ولذا أصبح المواطن العادي لا يعرف شيئاً عن فلسفة وديانات الهند والصين لا الكنفوشية ولا الهندوكية أو البوذية، كما لا يعلم أي شيء عن الإسلام، ومع ذلك يسعى البعض في أوروبا وأمريكا إلى إرغام مليارات من البشر الذين يعتنقون ويمارسون دياناتهم ومعتقداتهم منذ مئات، بل آلاف السنين على قبول مفاهيمنا الخاصة التي تتحدث عن الدستور والديمقراطية وحقوق الفرد، وتستعمل وسائل الإعلام ونظم الاتصالات الحديثة للمساعدة على تغيير أفكارهم ومعتقداتهم ويطبق البعض الآخر عليهم العقوبات الاقتصادية أو يصف دولهم المستقلة ذات السيادة وحكوماتها بالدول المارقة».

«يذكرني هذا بنشر المسيحية بالعنف في أوروبا الوسطى ومع استعمار أمريكا الجنوبية وبالحروب الصليبية، لقد أخطأت الكنيسة في القرون الوسطى في فهم الإسلام، ولم تنظر إليه كرسالة إلهية، ولم تكتف في بلادها بحرق الساحرات ومن أسمتهم بالملحدين. وأضافت لذلك إرسال حملة صليبية بعد الأخرى، ماذا نسمي هذا بتعبيرات العصر وكلمات اليوم، إنها أعمال مسيحيه أصولية عدوانية، أذكر هذا لإيضاح ما سبق أن ذكرته من اننا لا نملك حقاً أو شرعية لنفرض على غيرنا ما يجب عليهم الاعتقاد به وما يجب عليهم قبوله من مثل ومعايير أخلاقية».

«ولكن هذا لا يعني بأية حال أن نقبل اعتبار ما حدث من تصرفات مسيحية أصولية عدوانية في القرون الوسطى هو المسيحية أو يمثل المسيحيين تماماً، كما لا نقبل اعتبار بعض مظاهر إسلامية أصولية متطرفة هو الإسلام أو يمثل عقائد وطباع مليار مسلم بالعالم».

ومع ذلك فإن ظهور فكر متطرف لبعض المسلمين في باكستان والجزائر ولبعض الهندوس في البنجاب وباميرأو لبعض الكاثوليك في أيرلندا هو أمر لا يجب إغفاله في عصر الانفجار السكاني والعولمة، ولكن استمرار الحديث عن حتمية صراع الحضارات والترويج للاعتقاد بعدم إمكان تفادي الصدام هو فكر في غاية الخطورة، قد يصبح رؤية مستقبلية لإرضاء الذات Salf-Fulfiling Prophesy يؤدي إلى صدام بين اتباع المعتقدات والديانات المختلفة، ولذلك فعلينا أن نبذل جهداً أكبر لمعرفة الآخر والتفاهم بين الشعوب ومن يبذل جهداً في ذلك ستتكشف له القواسم الخيرة المشتركة.. وللقيادات السياسية والدينية ومؤسسات التعليم والإعلام والمثقفين دور أساسي في ذلك. ففي عصر العولمة أصبح من لا يستطيع فهم واحترام تقاليد ومعتقدات ومصالح الآخر لا يصلح لتولي مسئوليات القيادة أو التعليم، وعلينا أن نتذكر مبدأ «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

لقد تناول المستشار شميت مفهوم العولمة وتحدياتها بنظرة عالمية شاملة ولفت النظر إلى أهمية استيعاب متغيراتها وإلى أن العولمة رغم مخاطرها ليست شراً مطلقاً، بل إنها تتيح خاصة للدول النامية فرص استفادة حقيقية للتطور في الطريق إلى مجتمعات منظمة ديمقراطية حرة تفسح المجال لمواطنيها للمشاركة وإطلاق ملكاتهم الخلاقة، في جرأة على التجديد والحداثة للتوافق مع متطلبات عصر العولمة.. وفي طرحه لتجربة الوحدة الأوروبية أكد عدم استطاعة أي من الدول الصغيرة والمتوسطة الحجم منفردة، مجابهة تحديات العولمة والحفاظ على مصالحها أمام تغيرات القوى الكبرى والتكتلات الدولية، ولعل في ذلك ما يستحق التأمل في عالمنا العربي المستهدف. ❊

أحدث إصدارات



حياة قصيرة ومسيرة لم تكتمل

محمد تيمور

علاء الدين وحيد

تختلف الموهبة الأدبية في البيت الجاهل الفقير عنها في البيت المثقف الغني خاصة زمان. فهي في الأولى تواجه منذ البداية العوائق والإحباطات ما يمكن أن يوقف حتى مسيرة تكوينها الثقافي ويعرقل خطاها ويسد عليها الطريق، لما يستلزمه الزاد الفكري من حاجة مالية .. بينما هي في الثانية ميسرة مشجعة، تتيح لصاحبها أن ينهل بسهولة من كافة المنابع وألوان المعرفة التي ييسر الثراء الحصول عليها، وكذلك وجدت موهبة الشاعر الأديب المسرحي الممثل المخرج محمد تيمور .. الطريق من هذه الناحية ممهداً.

ولد محمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) في بيت علم وفكر وأدب وثراء .. أحد هذه البيوتات الكبيرة التي كانت قائمة في ذلك الحين -أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين- ولم يعد لها مثيل في أيامنا الراهنة، عندما كان الغنى يقترن بالقيم وجليل الأعمال والثقافة.

والأب هو العلامة أحمد تيمور باشا (١٨٧١-١٩٣٠) الذي يقول عنه أنور الجندي: «أكبر قارئ في تاريخنا العربي المعاصر، فقد استطاع أن يجمع سبعة عشر ألفاً من المخطوطات والمؤلفات النادرة، ثم قرأها وفهرسها وعلق عليها وأولدها حصيلة من الدراسات تمثل موسوعة ضخمة.. كان الرجل عاكفاً على القراءة والمراجعة، مولياً موارده كلها لاستظهار المخطوطات العربية بالنقل أو بالفوتوغرافيا أو بالشراء من مختلف أنحاء العالم، في سبيل خدمة فكر هذه الأمة (الفكر الإسلامي العربي) بإثرائه مرة أخرى بآثاره التي ذهبت.

«شغل نفسه في هذا السبيل شغلاً لا حد له، أنفق فيه زهرة حياته وجل موارده، يدفعه إليه إيمان عميق باللغة العربية والتراث العربي الإسلامي، وكان في سبيل ذلك كله قد فرغ نفسه من كل عمل، وتجرد لغايته».

ولم يكن الرجل مفكراً ذا اهتمامات عادية تشده إلى الوراء، بل من القلة المتطلعة إلى الأمام في وقت تسود فيه القيم التقليدية والرجعية الحياة العامة والفكرية على السواء. ويكفي الإشارة إلى أن من أكبر اهتماماته .. الأدب الشعبي، في زمن كانت الحياة الثقافية الرسمية وغير الرسمية تنظر إليه شزراً ومن عل غير معترفة به لأنه يتصل بالرعاع.

كان أحمد تيمور من أتباع الشيخ محمد عبده ومدرسته متفهما لضرورة التطور والتغيير وأن اليقظة في كافة المجالات واستلهام روح الشعب، هي السبيل الأوحد لنصرة العرب والمسلمين. وهكذا جاء موقفه من الفنون بوجه عام القديمة والجديدة، لا يقتصر على التراثية منها بحجة أنها استوعبت كل شيء، بل تطلع إلى الاستفادة من الحديث، مما جعل عشقه للموسيقى الشرقية والتركية والغناء العربي لا يتناقض مع الموسيقى الكلاسيكية الغربية، وصلته بأوروبا والمستشرقين غير منقطعة يؤكدها إجادته للغات أجنبية بجانب علاقته الوثيقة الشخصية بمطربي عصره الذين كانوا يترددون على قصره.

ومن الطريف أن تيمور باشا كان متعدد الهوايات والمواهب الفنية، التي يكاد الكثيرون لا يعرفون عنها شيئاً رغم أنها وثيقة الصلة بتكوينه وثقافته وتعكس رحابة فكره .. منها حبه للرسم وأكثر من هذا ممارسته له! فعندما قام في شبابه بزيارة طويلة إلى الصعيد، وانبهر بالآثار الفرعونية التي شاهدها .. بلغ حماسه لها كما يقول ابنه محمود تيمور: أن «دون خواطر الرحلة في دفتر حلاه برسوم أجراها بيده».

ويستكمل عشقه للفن التشكيلي هواية جديدة على مستوى العالم هي التصوير. وافتتن أحمد تيمور به إلى درجة عدم الاكتفاء بالتقاط الصورة، بل تحميضها وطبعها بنفسه بعد أن أنشأ معملاً لها في بيته.

ولعله أول من التفت في العصر الحديث إلى ضرورة تدوين الأدب الشعبي من أفواه رواته قبل أن يندثر. وتسجيله على اسطوانات عندما ظهرت في بداية القرن العشرين. وكانت تتيح لمن يملكون «الفونوغراف» التسجيل الخاص أيضاً .. وفعل أحمد تيمور .. «وقد أضاف إلى تسجيل الأغاني المشهورة طرائف من الأناشيد والأهازيج والمواويل. ونداءات العامة، والأذكار، وأغاني المداحين، وألحان رقاصي الودع، والمحاورات الفكرية بين المتصاقفين «بتوع زمر» وما إلى ذلك مما يتصل بالتراث الشعبي في عالم الطرب والتسلية».

وبجانب هذه الألوان الفنية كان هناك أيضاً أبو الفنون .. المسرح، الجديد في عالم الفن الذي استنبته العالم العربي حديثاً. وقد عرفت مصر المسرح منذ وقت غير قصير حتى قبل مجيء الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت. يذكر الرحالة الدانمركي كارستين نيبر الذي زار القاهرة عام ١٧٨٠: «إننا لم نكن نتوقع مشاهدة تمثيل في مصر. على أنه عند وصولنا إلى القاهرة، كانت ثمة فرقة تتألف من عدد من الممثلين، منهم المسلم والمسيحي واليهودي، وكان مظهرهم ينم عن النجاح الذي أصابوه في هذه البلاد، فقد كانوا يتقاضون على ذلك أجراً زهيداً، وكانوا يمثلون في الهواء الطلق، ويستخدمون فناء البيت كمسرح، كما كانوا يقيمون حاجزاً من «الكواليس» يبدلون وراءه ملابسهم».

ويتذوق أحمد تيمور الفن المسرحي خاصة عندما جاءت إلى مصر من الشام فرقة سليم خليل النقاش، وأبو خليل القباني، واسكندر فرح. وتأكدت هذه الصلة مع مجيء القباني سنة ١٨٨٤، الذي تعرف عليه علامتنا وتوثقت الصلات الشخصية بينهما، كان الأب يحجز مقصورة دائمة في المسرح ويصحب أولاده الثلاثة عندما كبروا إلى المسرح. وكان أكثرهم افتتاناً به أوسطهم محمد، وهو في ذلك الحين في التاسعة من عمره، ويعيد في اليوم التالي ما شاهده في الليلة السابقة من أحداث المسرحية ومشاهدها وكلماتها .. فيمثلها هو وإخوته. ولما كان الثلاثة لا يمكن أن يشكلوا «جوقا» كما كان يطلق على الفرقة زمان - فقد استعانوا بالخدم والأصدقاء .. فريقاً منهم ممثلين وفريقاً جمهوراً، مستعينين بالضروري من أدوات التنكر كي يكون تقمص الشخصية أقرب إلى الأصل وواقع الحياة.

يذكر شقيقه محمود تيمور هذه الواقعة عن المسرح المنزلي الخاص .. «ليلة والفرقة تؤدي رواية «عايدة»، والموقف حماسي حار، سمعنا صوت أبي يطلب أحد الغلمان في شأن من الشئون، وكان أبي لا يدري من أمر حفلتنا التمثيلية شيئاً، وكان الغلام في هذه اللحظة يمثل دور «عم ناصر» والد عايدة في لحيته الكثة، ووجهه المريد، فما كاد الغلام يسمع صوت أبي يناديه حتى قفز من المنصة دون وعي، مستجيباً للنداء، فلما أقبل في هيئته وشاربه، أدرك أبي على الفور ما كنا منهمكين فيه، فيصرف عنه البطل الممثل والد عايدة، ليستكمل أداء دوره، وانتحى هو ناحية من الدار يشرف منها - دون أن يراه أحد - على تمثيلنا الصبياني الأنيس»!

في هذه الأجواء الثقافية والفنية وجد محمد تيمور نفسه، وكان من الطبيعي للموهبة الأدبية وسط العوالم المشجعة أن تتكون وتزدهر. وهكذا نشأ عشقه للمسرح .. رافداً أدبياً فكرياً، وليس مجرد تمثيل كما هو عند رائد مسرحي آخر هو يوسف وهبي. انبثقت هوايته الأدبية منذ صغره .. محصلة قراءات عصره. وتكون أول ممارسة فعلية لها إصداره هو وأخويه مجلة بيتية تحمل الأخبار - الأسرة والجيران - والانطباعات الشخصية هي «المنزل» تطبع بوسيلة بدائية كانت منتشرة في ذلك الحين - وإلى ستينيات

حياتنا التمثيلية
محمد تيمور
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٤٦٦ صفحة، ٢٠٠٢.



القرن العشرين - هي «البالوظة» .. يكتب مؤسسها الثاني محمود تيمور عنها بعد أكثر من نصف قرن: «أنشأنا صحيفة ننشر فيها ما نهوى، كان توزيعها مقصوراً على أهل البيت أول الأمر، ثم أصابت حظاً من الرواج والانتشار من أهل الحي الذي نسكنه».

وتقود القراءة والثقافة والمسرح إلى الخطابة .. كان ذلك عندما التحق محمد تيمور بالمدرسة الخديوية الثانوية وانضم إلى جماعة الخطابة. كانت المدرسة المصرية في ذلك الحين مدرسة بالفعل تعرف مسئولياتها وواجباتها، وتعد التلميذ إعدادا تربويا وتعليميا حقيقيا وتهتم بشأنه في الحصص وخارج الحصص، وتتيح له أن ينمي مواهبه ثقافيا وفنيا ورياضيا. وكان العصر عصر خطابة ووطنية وزعيمها التالق سعد زغلول - بجانب إسهامات تلاميذنا في جماعات الأدب والشعر والتمثيل، وكانت موهبته الشعرية قد بدأت في الظهور، وأخذ ينشر قصائده بجانب مقالاته في صحف عصره، التي اتسمت منذ البداية بالحس النقدي والاتجاه الإصلاحي والروح الرومانسية.

وفي غمرة انغماس محمد تيمور في عوالمه الفنية الفكرية وكان في نهاية دراسته الثانوية «البكالوريا» أي الثانوية العامة، يفاجأ الشاب الصغير أن عليه أن يقرر أمرا لا مندوحة منه .. التخطيط لمستقبله. وهو يظن أنه ليس في حاجة إليه، لأنه بالفعل سائر فيه .. الكتابة في الصحف وقول الشعر. وهل هناك مستقبل أروع من ذلك؟ نعم .. الحياة العملية في مجتمع لا يعترف إلا بالتعليم العالي المحترم، وينظر إلى «الجرنالجي» نظرته إلى الأديب «الأدباتي» الأقرب إلى المتسول. ولم يكن في الإمكان أن يحمل استثارة الأب فوق ما يطيق، فهناك الرأي العام الجامد ونظرته الضيقة إلى الأشياء .. إذن فلابد مما ليس منه بد، والكلية التي يتم اختيارها هي كلية طب جامعة برلين، ولهذا ما يكاد يحصل على «البكالوريا» حتى يسافر إلى ألمانيا.

وهذا الموقف يدهش كثيرين لأنه يناقض تكوين محمد تيمور النضالي ومقاومته للأوضاع المائلة .. اجتماعياً وفكريا وفنيا. فكيف يرضخ لما يكره إزاء دراسته الجامعية التي لا تتصل من قريب أو بعيد بموهبته؟ ولكن كان هناك ما هو أقوى من تحقيق حلمه، وهو رعاية حقوق أبيه وعدم المساس بما يخدش قامته الفارعة في المجتمع، بمهنة تأتيه من ناحية ابنه تصدم تقاليد هذا المجتمع .. خاصة والرجل يبذل أفضل ما في وسعه لإسعاد أبنائه، ويكفي أنه ترمل مبكراً بعد وفاة أم أولاده ورفض أن يتزوج ثانية متفرغا لتربيتهم.

ظن محمد تيمور بعد أن استقر به المقام في برلين، أن نفسيته قد استقرت هي الأخرى بالنسبة إلى ما انتهى إليه أمره، ولكنه كان واهماً .. وهو يزداد ضيقاً وسأماً يوماً بعد يوم بما يدرس. فهو لم يحفل أو يحلم يوماً أن يغدو طبيباً، بجانب أن العاصمة الألمانية بدت له جهمة .. حتى فنونها ومسارحها لم يسترح لها ولم تجذبه .. وكان في هذا فصل الخطاب. وقرر أن يترك المكان ويغير الدراسة كذلك، ويختار باريس هذه المرة وكلية الحقوق في جامعتها عن اقتناع. ولكن هل يعني ذلك الانتظام في الدراسة والاهتمام بها؟ لا! فقيم التقدم والحضارة ورقي الفكر والأدب والفنون، أذهلت الأديب الشاب القادم من القاهرة وهو يطلع عليها ويتذوقها. يصور زكي طليمات الأثر الكبير لهذا الاطلاع قائلاً: «... فيتجلى له النقص المخيف في الأدب العربي وكل فن جميل بمصر. كم من مبدأ كان يؤمن بصوابه وأفكار كان يتيه لخطورها برأسه، قد تلاشت. وكم من نماذج كان يقر بها احتراماً عميقاً ومحاولات صادقة للسير على منوالها قد تحطمت وعفت آثارها».



وهكذا أخذ ينهل من منابع الثقافة الفرنسية بوجه خاص - والغربية بشكل عام - ويتردد كثيرا على مسارح باريس، كأنه مكلف بما يقوم به تكليفاً .. مما لم يبق إلا القليل للقانون والنتيجة رسوبه عامين في السنة الأولى. نفس ما يتعرض له بعد قليل شاب مصري آخر، كانت له محاولات مسرحية في مصر وجاء باريس للحصول على الدكتوراه في القانون هو توفيق الحكيم. ولكن انغماسه الكلي في الفكر الغربي والمسرح الفرنسي أبعده عن موضوع رسالته، فعاد إلى بلده كما جاء بلا دكتوراه.

ومن الطريف أن يتناول محمد تيمور مثل هذا الصراع في شخصية بطل قصته «هو وهي» أحد أجزاء «مذكرات باريس» الذي جاء من القاهرة إلى العاصمة الفرنسية هو الآخر والتحق بالحقوق أيضاً. فيصوره على هذا النحو: «جاء إلى باريس ليدرس الحقوق، وما كان بنفسه ميل لعلوم الشرائع، ولكن والده لم يسمح له بمغادرة القاهرة إلا ليلقي بنفسه في أحضان تلك العلوم. فسافر وفي قلبه غصة، لكنه وطد النفس على الدأب والعمل جامعاً بين علوم الحقوق التي كانت تجشم نفسه ما لا تستطيع احتماله وبين علوم الآداب التي يرى فيها مسكة الأمل وقرة العين».

وفي الرسائل المتبادلة بين الأخوين محمد في باريس ومحمود تيمور في القاهرة، أحاديث طويلة عن الأدب والمسرح والحياة الثقافية في كل من فرنسا ومصر، والتي كان الأول وهو في الغربة شديد الحرص على متابعتها ومقارنتها بما يحدث في بلاد بره، مطالباً شقيقه الأصغر المزيد من تفاصيل الحياة الفكرية والفنية في مصر، التي يغلب عليها التقليدية وعلى أدبها المحسنات اللفظية الجوفاء وعلى مسرحها الجمود والسذاجة، التي تقعد بها أن تعبر عن شيء حقيقي. ولكن من الأخبار الذي يبعث بها محمود إليه .. ما يبعث على الأمل ويجسد روحاً جديدة ودماء شابة تتمرد على الواقع الكئيب. وكان أهمها حدثين: الأول عودة ناظر محطة سيدي جابر الأسبق من بعثته المسرحية سنة ١٩١١ التي كانت على نفقة الخديو عباس حلمي الثاني وهو جورج أبيض. والثاني خلع عبد الرحمن رشدي روب المحاماة ليتفرغ للتمثيل، وهو حدث مزلزل هز المجتمع الراكد من الأساس.

ولم يكن حرص محمد تيمور على تقدم بلده من خلال الحركة الفكرية والمسرحية، هو وحده الذي يشغل باله في الغربة، بل كانت أيضاً قضية بلاده الواقعة تحت نير الاستعمار البريطاني. وإذا كان من المعروف أن بيت تيمور لا يشتغل بالسياسة وينأى عن العمل السياسي، فلا يعني هذا ألا يكون الهم الوطني شاغل محمد تيمور، ومن هنا جاء انضمامه وهو في باريس إلى جمعية وطنية أسسها الطلبة المصريون هي «أبو الهول المصرية» بإشراف الزعيم المنفي محمد فريد.

يقول آرثر ادوارد جولد سميث الابن .. «وفي ديسمبر كونت الجالية المصرية الكبيرة بجنيف نادياً وطنياً اسمته جمعية «أبو الهول». واصبح هذا النادي نموذجاً لنواد مماثلة في مدن أوروبية أخرى حيثما وجد عدد كبير من الطلاب المصريين. ففي ربيع سنة ١٩١٤ رأس فريد بنفسه حفلات افتتاح فروع «جمعية أبو الهول» في لندن، وباريس، وليون، وليبج، وانتوريب، وبروكسل».

«ولم تكن «جمعية أبو الهول» مفتوحة الأبواب أمام أي مصري في بلاد بره، إذ تتطلب نوعية خاصة من المنتمين إليها .. يؤمنون رغم سواد الاحتلال الحالك .. ببلدهم .. وحقه في الكرامة والحرية والاستقلال، مستعدين في سبيل ذلك بالتضحية وبذل النفس. ولذلك فالمواطن السلبي أو اللامبالي بأمور بلده أو المتشيع بشكل أو بآخر للمحتلين .. مرفوض تماما من الجمعية ولا تقبله عضواً فيها».

وكان الزعيم محمد فريد يطالب المؤسسين بضرورة التشديد في شروط قبول العضو بجمعية أبو الهول التي هدفها الأساسي استقلال مصر، بأن يعلن العضو استعداده لإعلان مبدئه في كل وقت وتحت كل الظروف المختلفة حتى يعي العضو تماماً مبدأ التضحية بكل فائدة شخصية وفاء لمصر».

ويمضي محمد تيمور في باريس حوالي ثلاثة أعوام، يعود في كل عطلة صيفية إلى القاهرة ليقضي بين عائلته شهرين أو ثلاثة كالعادة، يتابع ويشارك في الحياة الثقافية، ثم يعود إلى باريس. وكان آخر عطلة قضاها من هذا النوع قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ والتي منعته من العودة .. وفي البداية ظن كما ظن الملايين في العالم، أن الحرب المندلعة لن تلبث أن تضع أوزارها في غضون أسابيع قليلة وتستقيم الأمور إلى سلامها السابق، ويتمكن هو من العودة إلى باريس ثانية كسابق عهده. ولكن الحرب كذبت الظنون واستمرت أربع سنوات. وعندما أدرك صاحبنا استحالة السفر وحتمية البقاء في القاهرة، قرر أن يتوجه وجهة أخرى في الدراسة الجامعية .. ولعل وعسى هذه المرة. والتحق بمدرسة الزراعة العليا، ومرة ثالثة خذله عزمه في الدرس النظامي .. وعندئذ نفض يده تماماً من الدراسة العليا، متفرغاً للأدب والشعر والمسرح .. بادئاً مرحلة جديدة في حياته، اتسمت بالنضج الفكري الذي تبلور في موقفين: الأول الإغضاء عن كل ما كتب من قبل ونشره والتخلص من أكثره بتمزيقه، بعد أن تغير رأيه في كثير من الأشياء السابقة. والثاني إيمانه بأدب مصري

صميم يعبر عن الروح المصرية الأصيلة في مواجهة السائد من الأدب المعرب والممصر والمترجم السائد، الذي يحاصر تطلعات الإنسان المصري ولا يمكن الحس القومي من البروز.

وكان أهم ما استوعبه محمد تيمور من حياته في الخارج وقراءاته في الأدب الفرنسي، ما يتميز به ككل أدب حي من الروح القومية الصميمة التي تنتفض حياة، تجسد الأرض والإنسان والهموم والأحلام والقضايا جميعاً. وهي أشياء هامة وعظيمة يفتقدها الشاب المصري في أدب بلده. وهكذا جاء تصميمه على أن يؤدي لوطنه هذه المسئولية ويعمل لها. وانبعثت الدعوة لتمصير الأدب .. أدب مصري أصيل يعني قبل كل شيء القوة لا الضعف، التماسك لا التخاذل، الحرية لا القيد، الاستقلال - الشخصية والوطن لا العبودية .. ولذلك حملت كتابات محمد تيمور المختلفة شعره ونثره ومسرحياته هذه القيم. يكتب في نوفمبر ١٩١٣ هذه الكلمات تحت عنوان «الخوف من الحياة»: «ماتت في نفوسنا عزيمة المخاطرة في الحياة. الرجل خلق في هذا الحياة ليعمل، فإن نجح استحق الثناء والفخر، وإن خسر كان جزاؤه اللوم: وهو في الحالتين سعيد لأن التعس هو من قضى حياته دون أن يمدحه أو يلومه أحد».

ويلتفت محمود تيمور إلى جانب آخر في اتجاه شقيقه نتيجة سفره إلى الخارج: «إن تلك السنين التي صرفها تيمور في أوروبا وبالأخص في فرنسا كانت ذات أهمية كبرى في تكوينه النفسي. ولا نخطئ إذا عددناها عصر انتقاله، إن البيئة التي عاش فيها - بيئة الحرية والديمقراطية والمساواة، بيئة الاستقلال في الرأي والعمل والاعتماد على النفس، بيئة الثورة الفكرية والعمل والنقد الصحيح ممزوجة بتلك المناظر الرائعة التي لا عهد له بها - وقد أثرت فيه تأثيراً شديداً قامت على أثره في نفسه ثورة فكرية هائلة انتهت بذلك التطور الجديد الذي ظهر في كتاباته نثراً ونظماً فيما بعد ....

ولم يكن غريباً في السنوات التي سبقت ثورة ١٩١٩ واليقظة تشمل كل شيء، أن يكثر إنشاء الجمعيات المسرحية التي يؤسسها الشباب المثقف، فظهر منها «جمعية رقي الآداب والتمثيل» و«جمعية إحياء فن التمثيل» وغيرهما ينشئها هواة المسرح. يدفعهم إلى ذلك بالدرجة الأولى الحس القومي للمشاركة في بناء الوطن وتقدمه واستقلاله. ولذلك كان مما يتفق وطبائع الأشياء أن تصبح دعوة إحدى هذه الجمعيات التي انضم إليها المخرج محمد كريم في شبابه إلى حفلاتها المسرحية، قولها في إعلانها: «حيث إن التمثيل عليه رقي الأمم والشعوب وهو درس في الأخلاق والتاريخ، رأينا من الواجب علينا السعي في رقي هذا الفن..»!

ولأن مهمة الرائد صعبة ومتشعبة في الأرض الجدباء، فقد كان من الضروري لمحمد تيمور أن يتحرك إزاء المسرح في أكثر من مجال .. أن يشارك في النشاط الفني: ويسهم في النقد المسرحي، ويبدع في كتابة المسرحية .. أن يفعل ذلك وغيره في وقت واحد مؤصلاً هذا الفن الجديد، الذي بدأت بذوره تنبت في الأرض المصرية وتثمر ثماراً صالحة. وهكذا انضم كاتبنا إلى «جمعية أنصار التمثيل» التي أنشئت قبل ذلك بحوالي العامين سنة ١٩١٢، وجمعت هواة المسرح من ممثلين وكتاب وشعراء مثل: محمد كريم، عبد الوارث عسر، أمين وهبة، عزيزة أمير، عبد الحميد زكي، فكري أباظة، أحمد رامي، إبراهيم رمزي، فؤاد رشيد.



يقول دكتور محمد مندور: «وقبيل الحرب العالمية الأولى يمكن القول بأن فن التمثيل أخذ المصريون ينظرون إليه نظرة جديدة، ففي سنة ١٩١٢ تحدثنا جريدة الأهرام أن بعض الشبان قد عقدوا في أواخر ذلك العام اجتماعات بمكتب الأستاذ محمود خيرت المحامي وقرروا تأليف جمعية أنصار التمثيل وإخراج رواية «دافيد جرك» المنقولة عن الإنجليزية، وكان من بين أعضاء هذه الجمعية الأستاذ عبد الرحمن رشدي والأستاذ سليمان نجيب: إلا أن الجمعية صادفت صعوبات مالية كبيرة لم تستطع التغلب عليها فانسحب منها بعض الأعضاء في أوائل سنة ١٩١٤، بينما انضم إليها بعض الهواة أمثال محمد عبد الرحيم ومحمد تيمور وأحمد رامي وعبد المجيد البيلي ومصطفى عزلان، وكان أحمد حشمت ناظر المعارف العمومية رئيس شرف للجمعية. واهتم الأستاذ جورج أبيض بمجهودهم وأشرف بنفسه على إخراج الرواية التي مثلت في أواخر سنة ١٩١٤ لأول مرة».

ولم يقف جهد محمد تيمور إزاء جمعية «أنصار التمثيل» عند المشاركة في نشاطها، بل أقال عثرتها بعد وفاة منشئها محمد عبد الرحيم وعضدها بالمال عندما تعرضت للتوقف.

في ذلك الحين - منتصف العقد الثاني من القرن العشرين - كانت الأرض المصرية تشرئب روحها إلى الانطلاق من قيود الأسر الذي يكبلها به الاحتلال الإنجليزي، وكذلك قهر نظام الحكم غير الديمقراطي والدستوري. وتلهفت الجماهير وفي مقدمتها طليعتها المثقفة، إلى تغيير واقعها المتدني في الكبيرة والصغيرة .. من كفاح طلعت حرب في سبيل إنشاء بنك مصري صميم، وقيام محمود مختار ببعث النحت المصري، ونضال محمد فريد وسعد زغلول ضد الاستعمار البريطاني المهيمن، إلى إلقاء الشباب المنولوجات الإصلاحية في حفلات سمر النوادي الرياضية .. مبلورة جميعاً الدعوة إلى الحرية وإصلاح الحال المائل في مختلف الميادين.

وجد عشاق الفن في إلقاء المنولوجات الخطوة الأولى إلى اعتلاء خشبة المسرح، وكان من أشهر هواة هذا اللون .. حسن فائق، يوسف وهبي، سليمان نجيب، عزيز عثمان، زكي طليمات وغيرهم. ويشارك الشاعر محمد تيمور في ذلك في حفلات النادي الأهلي. وكان لهذه الخطوة ما بعدها في مسيرة فناننا. وكان عالم الديالوجات والمنولوجات هذا، معبر محمد تيمور إلى خشبة المسرح، والخطوة الأولى التي خطاها ليكون ممثلاً وكاتباً مسرحياً معاً! وكان أديبنا يؤلف شعراً ما يلقى من محاورات. والتي تحوي أيضاً بعض المشاهد الصغيرة واللقطات التمثيلية، وامتازت كما امتاز شعره نفسه بالروح الرومانسية.

ومن الطريف أن أشهر المنولوجات التي قدمها الشاب الأرستقراطي وجسد شخصيتها وعنوانها «المال أو الغني والفقير»، لم يكن بطلها ثرياً بل معدماً. وليجيد محمد تيمور تقمص دوره كان لابد له أن يرتدي ثياباً بالية مرقعة، لم يجدها في سوق الملابس المستعملة «الكانتو» بل عند صبي الطاهي في قصره.

شجع نجاح فناننا في منولوجاته شعراً وإلقاء واتصال الحضور الفني بالجمهور المباشر على خشبة المسرح .. أشواق محمد تيمور لمزيد من الاندماج. ولم تكن فكرة ممارسة التمثيل بعيدة عنه، بل تطلع إليها منذ وقت غير قصير أيام «جمعية أنصار التمثيل»، خاصة عندما رشحه محمد عبد الرحيم لتمثيل أحد أدوار مسرحية «هملت» لشكسبير. ويوافق صاحبنا: ولكن موت مؤسس الجمعية يوقف البروفات.

والمسرحية الأولى التي مثلها محمد تيمور - ذات الفصل الواحد والمنظر الواحد - هي «عزة بنت الخليفة» التي عربها إبراهيم رمزي للشاعر الدنماركي هنريك هيرتز - عن ترجمة إنجليزية شعرية لأدموند فيليبس. وبالطبع أحدث المعرب تغييراً جوهرياً في ملامح المسرحية قلبت كيانها، وهو ينقلها من الجو الأوروبي إلى العربي، في الزمان والمكان والعصر والشخصيات .. ولتلائم ذوق المتفرج المصري. يقول دكتور إبراهيم درديري: «ومن الطبيعي أن تتسم مسرحية «عزة بنت الخليفة» بجميع الخصائص التي طبعت حركة التمصير والاقتباس في فترة الحرب الكبرى الأولى وما قبلها. فإن الفكرة الرئيسية في هذه المسرحية رومانسية خالصة تقوم على الخيال، وتكاد تنفصل عن الواقع اليومي انفصالاً تاماً: فهي عبارة عن موضوع غرامي يتمد المثال ويرتكز على الفضيلة، وينسلخ حتى عن الإدراك المؤلف من ثمرات الحواس التي تعين على التعاطف والنفور، بمعنى أن الحب أسمى وأعمق وأقوى من مجرد الإحساس الظاهري بجمال الصورة، فهو من إلهام الروح أو الحدس. ومثل هذا الموضوع يلائم ذوق الجمهور المثقف في تلك الفترة لأنه يلتقي بتصوراته المثالية عن الحياة والحب والخير والجمال، ويحمل في أعطافه القيم الأخلاقية التي رددتها حكايات الحب العذري وهو صالح للشعر والغنائية».

وينجح محمد تيمور في أداء دور البطولة الأمير سيف الدين. وكان من هيئته وشخصيته وإدراكه وشبابه: خير معوان له على الإجادة برغم أنه أقبل على تمثيله هاوياً يعرف أن هناك الكثير الذي ينقصه في الحرفة. لنستمع إلى الرأي في تمثيله من أحد المتفرجين المثقفين الفنانين الذي شاهد المسرحية: وهو صديقه زكي طليمات الذي يقول: «وأسعدته منحة صوته وحرارة عاطفته ورشاقة حركاته قبل سائر قواه الأخرى. فأخرجه محاطاً بفتنة الشباب ونبل الإمارة وجمال الشعر وسحر الموسيقى. كان في تمثيله

كما وصفه أديب فى نقده للرواية بمجلة «الأدب والتمثيل» على ما يجب أن يكون عليه الأمير الشاعر الذى لا يعرف الحياة إلا فى الحب والجمال. وأزيد - وهو ما شعرت به - أن الشيثار الذى وقع كلام ذلك الأمير الشاعر المفتون بالأميرة عزة الجهراء كان له نغم روحى إلى سماء من الطرب لم يكن فى وسع الرواية وحدها بموضوعها الخيالى اللذيذ وأسلوبها السهل المنغم أن يوصلها إليه».

والعمل المسرحى الثانى الذى يؤديه فناننا هو «العرائس» للكاتب الفرنسى بيير وولف ترجمة إسماعيل وهبى - شقيق يوسف وهبى - فى دور المركيز روجيه دى مونكلار. أقدم محمد تيمور على تمثيله وهو يدرك أنه يضع نفسه فى مقارنة صعبة مع ممثل محترف سبقه إليه وهو عبد الرحمن رشدى (المحامى) من الفتيان الأول فى المسرح المصرى. ويوفق محمد تيمور ويصبح حديث الجماهير ومثار إعجابهم. ولعل العامل الأول فى إجادة تيمور وتأثيره فى المتفرجين، يرجع إلى أسلوبه المتفرد الذى لا يقلد أحداً من المشاهير. وقد التفت إلى ذلك زكى طليمات الذى يقول: «كان فى جميع وقفاته سواء على منصة الإلقاء بالنوادى أو على المسرح غير مـحتذ لأحد من ممثلينا فى طريقته، رغم ما كان متفشياً من حمى التقليد الأعمى بين الهواة بل والممثلين الذين يمثلون صوراً مشوهة من أبيض أو عزيز أو رشدى فى تمثيلهم. ولاشك أن اعتداده بمواهبه ونزعته إلى ألا يتقيد كثيراً بما يراه الغير جميلاً ما لم يقره ذوقه، زد على ذلك نجوته من فساد هذا الذوق وكساد القريحة .. كل هذا قصرت دوره فى تقليد الغير من الممثلين، هذا الدور الذى يعتبر الفجر الأول لصناعة الممثل، وكونت له شخصية بارزة المعالم هذبتها عين يقظة متشوفة امتلأت بمشاهدات كثيرة لأتقن ما يبرزه فنان فى صناعة التمثيل».

وكان الرائد الكبير جورج أبيض كما تقول ابنته من المعجبين بأداء محمد تيمور على المسرح، «كان كاتباً مجيداً للروايات المسرحية كما كان ممثلاً متألقاً فى أدواره على المسرح».

ويعاد عرض «عزة بنت الخليفة» مرة أخرى فى الحفل السنوى الذى تقيمه الجمعية الخيرية الإسلامية على مسرح الأوبرا السلطانية تحت رعاية السلطان حسين كامل .. الذى يحضره تكريماً للأب أحمد تيمور باشا وتقديراً لابنه الفنان الشاب، وتودداً من ناحية أخرى للشعب الذى يكرهه، بسبب قبوله الحماية الإنجليزية على مصر التى أضاعت استقلال الوطن تماماً وأن المحتلين هم الذين جاءوا به إلى العرش .. مما عرضه لعدة محاولات اغتيال وعصيان مدنى عندما امتنع طلبة مدرسة الحقوق العليا عن الذهاب إلى معهدهم يوم زيارة السلطان. وكان حسين كامل يجهر بحبه لمستعمرى بلاده. يقول لمراسلى جريدة «التيمس»: «إنه واثق بانكلترا تمام الثقة ويأتمنها»!

ويقابل مجىء السلطان من النظارة بجفاء وفتور واضحين. بينما استقبل محمد تيمور استقبالاً حافلاً .. مما اغضب حسين كامل غضباً هائلاً أنساه نفسه فصب جام غضبه على التيموريين: الأب والابن. يقول دكتور فؤاد رشيد الذى أرخ لهذا الحدث: «قابل الجمهور الرواية باستحسان بالغ حتى أن الستار الأخير رفع عدة مرات إجابة لتصفيق الجمهور وهتافه، ولكن السلطان لم يرقه شىء من هذا، والتفت إلى تيمور الأب غاضباً وقال: جرى إيه يا باشا يصح أن ابنك يعمل أراجوز؟ جرى إيه لأولاد الذوات؟ فارتبك تيمور ولم يسعفه النطق. فقال السلطان: إذا كنت مش قادر عليه، فأنا أقدر عليه، ولا يمكن أن أسمح لأولاد الباشوات بمثل هذا العبث»!



وتكون وسيلة التأديب التى انهال بها السلطان على الفنان الشاب شديدة القسوة بالنسبة للأخير .. تعيينه فى اليوم التالى مباشرة موظفاً «تشريفاتياً» فى القصر السلطانى. وكان معنى ذلك منعه تماماً من كل ما له صلة بالفن .. ووأد أحلامه ومستقبله أى استلاب روحه التى يتنفس. بجانب بغضه الشديد للوظيفة الحكومية - والأدهى وظيفة القصر - التى تلغى الشخصية وتجعل صاحبها عبد المأمور .. بلا رأى أو كرامة أو استقلال. ومع ذلك اضطر إلى الامتثال.

والذين يلومون فناننا على رضوخه لولى النعم، لا يفرقون بين العصر الإقطاعى والعصر الديمقراطى، خاصة أن الحاكم فى الأول يمثل بالنسبة إلى الطبقة «الراقية» أو الإقطاعية رب الأسرة المطاع الذى لا راد لقضائه. والأهم من ذلك بالنسبة لممثلنا الأديب خشيته على أبيه الحبيب من غضب السلطان أو امتهانه له. وهكذا هجر المسرح واستقال من رئاسة «جمعية أنصار التمثيل».

فى هذه المرحلة من حياته عرف الطائر المحلق ما هو العذاب والتعذيب: وهو سجين القصر .. القفص الذهبى. ومع ذلك لم تمت روح المقاومة فيه، فإذا منع من الظهور على خشبة المسرح بإرادة ديكتاتورية، فإن روحه الفنانة تستطيع التحليق فى مجال آخر جديد تماما .. وهو القصة القصيرة. وهكذا ظهر كاتبها الرائد. ولا ريب أن المرارة التى صاحبت الوظيفة وما لابسها من ظروف، فتحت عين محمد تيمور على الحياة القاسية حوله حتى فى المستويات العليا من المجتمع التى يتعرض أفرادها أيضاً للمحن .. وأنه ليس بالرومانسية وحدها تنجلى الأشياء. مما دفعه رويداً رويداً إلى الواقعية.

يكتب عباس خضر: «فى سنة ١٩١٧ حينما ظهرت فى جريدة «السفور» قصة «فى القطار» لمحمد تيمور - وهى حسب استقرائنا - أول قصة مصرية حديثة مستكملة للعناصر الأساسية فى هذا الفن، ويلحظ فى هذه القصة كما فى بقية قصص محمد تيمور الاتجاه الواقعى الخالص، وإذا صح هذا، فإنها تكون أول قصة واقعية متكاملة فى أدبنا على الإطلاق».

ومن حسن حظ محمد تيمور أن الأجل لم يمتد بالسلطان طويلاً، فبعد حوالى العامين توفى حسين كامل فى ٩ أكتوبر ١٩١٧. وما كاد السلطان أحمد فؤاد يتقلد الحكم، حتى قدم إليه استقالته، ويصبح حراً مرة أخرى.

فى الفترة التى غاب فيها أديبنا عن المشاركة الفنية ذوت «جمعية أنصار التمثيل» ووجد فناننا أن بعثها فى حاجة إلى دماء جديدة من الأوفق أن تضمها جمعية جديدة. وهكذا ظهرت جمعية «رقى الأدب والتمثيل» ضمت بين أعضائها عدداً من الجمعية السابقة.

ويتاح لمحمد تيمور تجربة جديدة فى الإخراج .. كانت الأولى عندما أخرج «الممثل دافيد جرك» بطولة محمد عبد الرحيم: أما الثانية فهى مسرحية عباس علام «عبد الرحمن الناصر» بتكليف من طلعت حرب، والتى افتتح بها مسرح حديقة الأزبكية فى يناير ١٩٢١.

ولا يلبث فناننا بعد قليل أن يبتعد عن التمثيل والإخراج معاً مع حبه لهما، فقد انشغل بما هو أهم حياتياً وفنياً .. الزواج والكتابة للمسرح التى تجعله واحداً من رواد المسرح المصرى الأصلاء. المسرحية الأولى «العصفور فى القفص» كوميديا مصرية ذات أربعة فصول مثلتها فرقة عبد الرحمن رشدى بمسرح بريتانيا أول مارس ١٩١٨. والثانية «عبد الستار أفندى» كوميديا مصرية إصلاحية ذات اربعة فصول، مثلتها فرقة منيرة المهدية بمسرح التمثيل العربى إخراج عزيز عيد فى ديسمبر ١٩١٨. والمسرحية الثالثة «العشرة الطيبة» تمصير بارع لمسرحية «ذو اللحية الزرقاء» للكاتبين ميلهاك وهاليفى، من إخراج عزيز عيد وأزجال بديع خيرى وانتاج نجيب الريحانى، بمسرح كازينو دى باريس فى ١١ مارس ١٩٢٠ والرابعة «الهاوية» كوميدى درام ذات ثلاثة فصول مثلتها شركة ترقية التمثيل العربى (عكاشة وشركاه) - بمسرح حديقة الأزبكية فى ٦ أبريل ١٩٢١ بعد وفاة صاحبها بنحو شهرين.

وبموت عاشق المسرح وهو فى التاسعة والعشرين من العمر، بمرض غير خطير هو اليرقان .. تاركاً عدداً من المسرحيات لم تتم. كما أن لمحمد تيمور مسرحيات أخرى شبه مجهولة مثل «شهرزاد» و«البروكة» يقول عن الثانية فتوح نشاطى إنها تمصير لمسرحية «الدوقة الكبيرة جيرولتسين».. ويضيف محمود كامل مسرحيتين أخريين أيضاً هما: «الشرط نور» و«السعد وعد». شاركه صادق يوسف فى كتابة الأولى، ويونس القاضى فى تأليف الثانية.

واليوم بعد مرور كل تلك السنوات على وفاة محمد تيمور، ندرك بوضوح حجم المسئولية التى اضطلع بها هذا الرائد فى وقت لم تبلور فيه شخصية المسرح المصرى، الذى كان يلفه الضباب والمترجمات وعدم احترام المجتمع لناسه .. لقد مهد كاتبنا الأرض بأظافره وذوب قلبه وحرق أعصابه: للأجيال التى جاءت بعده. يقول أحمد رشدى صالح فى كتابه «المسرح العربى»: إن ظهور تيمور - بصرف النظر عن صفاته الشخصية - كان إيذاناً بأن يتسع فن المسرح المصرى فى السنوات التالية: أكثر فأكثر، لمن يستطيعون أن ينشئوا أدب مسرح مصرى، ذلك أنه هو نفسه كان يرى ضرورة تمصير هذا الفن، ولعل الموضوعات التى أدار حولها مسرحياته المؤلفة، قد حررت التأليف - فى زمانه - من البحث عن المتعة وحدها، إلى البحث فى حياة الناس أنفسهم.. ☼



التعليم العالي في مصر

من الإتاحة إلى الجودة

معتــــــز خورشـــيد

■ تشهد الساحة التعليمية المصرية - في الوقت الراهن - تغيرات غير مسبوقة في شكل مقترحات جذرية للتطوير وإعادة الهيكلة من المنتظر - إذا تم الأخذ بها - أن تؤثر في العديد من الثوابت والمسلمات التي استمرت حاكمة لنظم التعليم العالي بمصر لمدى زمني ممتد.

وقد واكب هذه المقترحات لتطوير منظومة التعليم العالي وتعديل القوانين والتشريعات المنظمة لعملها، موافقة مجلس الشعب المصري على قانون بإنشاء «هيئة قومية لضمان الجودة والاعتماد» ككيان مستقل يختص بتقييم أداء المؤسسات التعليمية وضمان جودة برامجها التعليمية والبحثية والخدمية المجتمعية ومنحها شهادات الاعتماد.

فقد قدمت لجنة التعليم بالحزب الوطني - خلال اجتماعه الدوري مؤخراً - ورقة عمل تتمحور حول شعار «من الإتاحة إلى الجودة» وتعكس رؤية الحزب الحاكم في مستقبل التعليم ما قبل الجامعي والتعليم العالي بمصر. ومجمل توجه الورقة أن السياسات التعليمية للدولة - خلال المرحلة المقبلة - يتعين أن تنتقل من التركيز على توفير أو إتاحة فرص تعليمية لقاعدة عريضة من السكان - حتى وإن لم تتحقق مستويات الجودة المرغوبة - إلى التوجه نحو تعليم يسعى إلى ضمان عناصر الجودة الشاملة لمنظومة التعليم، حتى وإن نتج عن هذا التوجه انعكاسات سالبة على معدلات الإتاحة الحالية. وقد ذهبت الورقة في تحليلها لأوضاع التعليم بمصر إلى أن ذلك يمثل شرطاً ضرورياً لإنجاز مشروع مصر القومي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة والارتفاع بمستويات رفاهية المواطن، باعتبار أن الارتقاء بالعنصر البشري يمثل أحد محاوره الرئيسية.

من ناحية أخرى، طرحت وزارة التعليم العالي رؤيتها لتطوير القوانين والتشريعات الحاكمة لمؤسسات التعليم العالي، حيث حددت الملامح العامة للتشريع الموحد لمنظومة التعليم العالي بمصر، بالاعتماد على خلفية فلسفية تركز على المبادئ التالية:

- تقنين جودة الخدمة التعليمية
- الإدارة الاقتصادية للمؤسسات التعليمية
- الفصل بين الملكية والإدارة
- مستويات شمول التشريع

وفي اعتقادي أن من أهم ملامح التشريع الموحد - من حيث تأثيره على مسار العملية التعليمية والبحثية بالجامعات - هو ما طرحه وزير التعليم العالي في مداخلته القصيرة باجتماع الحزب الوطني بأن الجامعات - في ظل توجهها نحو مزيد من الاستقلال الأكاديمي والاقتصادي - ستحدد تكلفة تعليم الطالب التي تحقق مستوى مقنناً من الجودة، وعلى الدولة أن تسدد هذه التكلفة للجامعة في إطار حفاظها على توفير التعليم وإتاحته لقاعدة عريضة من السكان، أي أن مجانية التعليم - كما يكفلها الدستور - ستتحقق من خلال العلاقة المباشرة بين الدولة والطالب.

كما يطرح التشريع المقترح أفكاراً جديدة تسعى إلى فصل ملكية مؤسسات التعليم عن إداراتها الأكاديمية والاقتصادية، وضم المجالس العليا للتعليم العالي - أي المجلس الأعلى للجامعات ومجلس الجامعات الخاصة - في كيان واحد بغية الوصول إلى سياسات أكثر شمولاً واتساقاً.

أولاً: المعادلة الصعبة

تباينت ردود الأفعال حول هذه المقترحات، إذ يرى عدد من خبراء التعليم والبحث العلمي أن مقترح الحزب والحكومة يمثل اختياراً مناسباً للمرحلة التعليمية المقبلة في ظل ضرورة التوجه نحو بناء كوادر بشرية قادرة على التفاعل مع معطيات الألفية الثالثة من تنامي لدور العلم والتكنولوجيا، والانتقال إلى مجتمعات المعرفة، وتزايد حدة المنافسة في ظل المناخ الجديد للعولمة.

في حين يرى البعض الآخر أن مقترح الحزب الحاكم يتضمن العديد من الأفكار والرؤى الجيدة. بيد أن المشكلة تكمن في صعوبة تطبيق هذه الرؤية المستقبلية وعدم القدرة على تحقيق أهدافها في ظل المناخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المصري الراهن. وبمعنى آخر فإن تقنين الجودة مع استمرار الإتاحة سيتعذر تحقيقه في ظل الأعداد الكبيرة للراغبين في الالتحاق بالمرحلة الجامعية. وأن النقص المتوقع في الأعداد المقبولة بمؤسسات التعليم العالي - الذي سينتج عن تطبيق معايير ضمان الجودة - سيتعذر تعويضه في ظل محدودية الإنفاق القومي على التعليم والبحث العلمي.

بينما يتخوف فريق ثالث من المهتمين بالقضايا التعليمية والمعرفية من أن ما تطرحه لجنة التعليم بالحزب وما يمكن استنتاجه من الإطار التشريعي الجديد للتعليم العالي يمثل - في حقيقة الأمر - تراجعاً عن مبدأ التوسع في إتاحة التعليم للجميع. نظراً لأن التوجه نحو ضمان الجودة - في ظل المناخ التعليمي والتركيبة السكانية والظروف الاقتصادية والاجتماعية الراهنة - من الممكن أن يؤثر سلباً على هدف «ديمقراطية التعليم» وإتاحته للقاعدة العريضة من السكان. وأنه برغم أهمية الأخذ بضمان الجودة كمعيار حاكم لنجاح مؤسسات التعليم في تحقيق أهدافها الاستراتيجية، فإن ذلك لا يعني - بأي حال من الأحوال - التضحية بما تحقق خلال النصف الثاني من القرن الماضي من التوسع في إتاحة التعليم للراغبين فيه. فقد أكدت المواثيق والأعراف الدولية بأن التعليم يتعين أن يكون حقاً للقادر وغير القادر على حد سواء. وأن مفهوم «ديمقراطية التعليم» يجب أن يتسع ليشمل طبقات اجتماعية أكثر اتساعاً وشمولاً. وعلى الرغم من أن الانتقال إلى «مجتمعات المعرفة» يتطلب موارد بشرية على مستوى عال من المهارات المعرفية والعلمية، فإنه يحتاج - إلى جانب ذلك - إلى التوسع في التعليم والتثقيف للشعوب والأفراد من خلال توفيره وإتاحته على كافة المستويات.

يتخوف فريق من المهتمين بالقضايا التعليمية والمعرفية من أن ما نطرحه لجنة التعليم بالحزب وما يمكن استنتاجه من الإطار التشريعى الجديد للتعليم العالى يمثل - فى حقيقة الأمر - تراجعاً عن مبدأ التوسع فى إتاحة التعليم للجميع

وتأسيساً على ما سبق، فإن شعار «من الإتاحة إلى الجودة» بورقة الحزب الوطنى - والتى انعكست بشكل كبير فى الرؤية التشريعية الجديدة لوزارة التعليم العالى - يتعين أن يتم تعديله إلى «الإتاحة مع ضمان الجودة».

غير أن هذا الهدف الاستراتيجى - برغم قبوله على كافة المستويات - يمثل معادلة صعبة التحقيق أو معضلة تتطلب تضافر جهود العلماء والمفكرين وخبراء التعليم للبحث عن حلول غير تقليدية تتسم بدرجة عالية من التنوع والابتكار.

ثانياً: الهيئة القومية لضمان الجودة والاعتماد

فى إطار توجه الدولة الرسمى للانتقال من مرحلة إتاحة التعليم العالى لقاعدة عريضة من المجتمع إلى مرحلة ضمان الجودة الشاملة للمنظومة التعليمية، وفى ظل جهود وزارة التعليم العالى لتنفيذ الاستراتيجية المعتمدة لتطويرها وإعادة هيكلة إطارها المؤسسى، يصبح للقانون الذى تم إقراره من مجلس الشعب المصرى بإنشاء «هيئة قومية لضمان جودة التعليم والاعتماد» دور محورى فى تحقيق الأهداف الاستراتيجية للتطوير وضبط وتيرة الأداء التعليمى وضمان جودته. ويتضح من مراجعة أهداف الهيئة ومهامها التنفيذية أن دورها لا يقف عند حدود توكيد الجودة ومنح شهادات الاعتماد، ولكنه يسعى أيضاً إلى نشر الوعى بثقافة الجودة ودعم مؤسسات التعليم العالى فيما يخص تقويم الأداء وتطويره. ومن هنا فإن الهيئة من المتوقع أن تحتل موقعاً مركزياً فى منظومة التعليم العالى، كما ظهر جلياً فى الملامح العامة المقترحة لتشريعها الموحد.

وعلى الرغم من إقرار القانون من المؤسسات التشريعية وقرب الانتهاء من صياغة لائحته التنفيذية، فإن التحدى الرئيسى الذى ستواجهه الهيئة يكمن فى قدرتها على اختيار «النموذج المصرى الملائم لتقويم الأداء وضمان جودته». إذ يتعين على الهيئة المفاضلة - فى هذا المجال - بين عدد من البدائل لتحديد نموذج التقييم الأمثل الذى يلائم المناخ التعليمى السائد والخصائص الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المصرى والتطورات الدولية فى مجال التعليم والبحث العلمى.

ويتحدد نموذج التقييم المطبق فى دولة ما من خلال تفاعل بعدين رئيسيين للتقييم هما: بعد نطاقات أو مستويات تطبيق نظم ضمان الجودة والاعتماد، وبعد تركيبة المعايير التى ستركز عليها الهيئة فى تقييم أداء مؤسسات التعليم العالى.

ففى إطار البعد الأول يمكن حصر نطاقات أو مستويات التطبيق على النحو التالى:

١ - جودة منظومة التعليم العالى ككل من حيث تأمينها لسبل التحاق المواطنين الراغبين والقادرين على متابعة الدراسة، ونجاحها فى المواءمة بين المخرجات التعليمية واحتياجات سوق العمل وتحقيقها لمتطلبات التنمية الشاملة، ومدى مساهمتها فى تقدم المعرفة وتوسيع نطاقها ودعمها للبحث العلمى والتجديد والابتكار.

٢ - جودة المؤسسات التعليمية التى تختص بمعايير جودة الإطار المؤسسى للجامعات من حيث وضوح الرسالة والأهداف وجودة التخطيط وحسن تخصيص الموارد وملاءمة الهيكل القيادى ونظم الإدارة والخدمات المساندة، ومعايير الفعالية الأكاديمية المتمثلة فى كفاءة سياسات قبول الطلاب ووضوح أهداف برامج التعليم والتطوير والبحث العلمى والتأهيل والتدريب.

٣ - جودة برامج التعليم والبحث والتطوير وخدمة المجتمع وتنمية البيئة. وهى تختص بتقييم مدى حاجة المجتمع للبرنامج، ومواءمة البرنامج مع رسالة المؤسسة وأهدافها.

٤ - جودة عمليات التعليم والبحث والتطوير. وهى تختص بكفاءة إدارة العمليات وتنفيذ الأنشطة من خلال استخدام الموارد المتاحة لتعظيم مخرجات التعليم، وتقييم جودة المنهجيات العلمية المتبعة فى إجراء البحوث، وأسلوب إدارة المشروعات البحثية وأساليب التدريس وتكنولوجيات التعليم.

٥ - جودة المخرجات. وهى تختص بمدى تحقيق الطلبة للأهداف التعليمية المعتمدة، وجودة مخرجات البحث العلمى من حيث تأثيرها المجتمعى وإضافتها العلمية، وقدرة برامج خدمة المجتمع على الإسهام فى تطوير البيئة المحيطة بالجامعة.

أما البعد الثانى لنموذج تقييم الجودة والاعتماد فإنه يختص بالأسس والمعايير الحاكمة للجودة والتى عرفها أستاذ علم النفس واختصاصى التعليم العالى د. رمزى سلامة «بالمقاربات المتعددة لمفهوم الجودة». وهنا يمكن تحديد ما لا يقل عن أربعة معايير أو مقاربات عامة لمفهوم الجودة:

١ - معيار التميز والتمايز العلمى. وهو معيار مقارن يعكس مدى تميز المؤسسة التعليمية بالمقارنة بأقرانها فى مجال التعليم والبحث العلمى.

٢ - معيار تحقيق الغايات والأهداف العامة. وهو معيار يعطى لمفهوم الجودة بعداً داخلياً مستقلاً عن البيئة التعليمية المحيطة.

٣ - معيار تأمين رضى المستفيدين. وهو معيار يرتكز على أن التعليم يمثل خدمة مجتمعية تقدمها الجامعات والمؤسسات التعليمية الأخرى. ومن ثم فإن معايير الجودة يتعين أن تأخذ فى اعتبارها وجهة نظر المستفيدين طلاباً وأولياء أمور وأصحاب مؤسسات تشغيل وحكومات وسائر أصحاب الشأن المعنيين.

٤ - معيار تأمين الحد الأدنى للأداء. وهو معيار تتمثل فلسفته فى أن الاعتماد - فى تقييم الأداء وتطويره - على المواءمة مع الغايات أو رضى المستفيدين قد يغض النظر عن جانب هام من المعادلة يتعلق بالمواصفات والخصائص والمعايير الدنيا التى يتعين توافرها فى المؤسسة التعليمية لتأمين المستوى المرغوب من الجودة. ويتميز هذا المعيار عن المعايير الأخرى بكونه يعتمد على مجموعة من المعايير المحددة المتفق عليها دون أن يكون هناك مجال للمرونة أو التعديل وفق الحاجة أو بناء على رأى المستفيدين أو بالأخذ فى الاعتبار واقع المؤسسة وما إلى ذلك من اعتبارات أخرى.

ثالثاً: النموذج الأمثل لتقييم الأداء

تأسيساً على ما سبق، وفى ظل النطاقات المتعددة للجودة ومعاييرها التى تتباين فى الفلسفة وسبل التطبيق والقياس، فإن الأمر يتطلب تحديداً واضحاً لسمات وخصائص نموذج تقييم الأداء الحاكم لنشاط الهيئة وتوجهات لتحقيق الأهداف التعليمية والبحثية والتنموية. ونقصد بذلك تحديد الوزن أو الأهمية النسبية التى ستعطيها الهيئة لدرجة شمول نطاقات تطبيق الجودة واختيار التركيبة المثلى لمعايير تقييم الأداء فى ظل السمات الخاصة لنظام التعليم العالى والمناخ الاقتصادى والاجتماعى المصرى. وحيث إنه يصعب - فى هذا المجال - اقتراح نموذج بعينه للتطبيق على نظام التعليم بمصر فسأكتفى ببعض النقاط التحليلية التى من الممكن أن تدعم عملية اتخاذ القرار المناسب بهذا الشأن.

١ - برغم ما يوضحه القانون من توجه الهيئة أساساً إلى صياغة المعايير القياسية اللازمة لتأمين الحد الأدنى المقبول لجودة الخدمة التعليمية بمؤسسة ما، فإنها يجب أن تأخذ فى اعتبارها أيضاً المعايير (أو المقاربات) البديلة للجودة فى ظل ما تشهده الساحة التعليمية - فى الألفية الثالثة - من تعددية وتباين فى نظم التعليم وهياكلها المؤسسية وتوجهاتها التنموية.

٢ - إن التعامل مع الخدمة التعليمية من منطلق اقتصادى - وهو ما أكده مقترح التشريع الموحد لمنظومة التعليم العالى - يتطلب بالضرورة أخذ معيار تأمين رضى المستفيدين وسائر أصحاب الشأن المعنيين بالعملية التعليمية فى الحسبان عند تقييم الأداء. فهل من الممكن - على سبيل المثال - التعامل مع الجامعات الحكومية - المحدودة الموارد المالية والتى تحتضن الحجم الأكبر من الكوادر البشرية المدربة والكثافة الطلابية العالية - والجامعات الخاصة - التى تتميز بوفرة مواردها المالية ونقص أعضاء هيئتها العلمية واعتمادها على الجامعات الحكومية - بنفس المنطق الاقتصادى؟

٣ - على الرغم من التأكيد على البعد القومى للهيئة ودورها الهام فى نشر ثقافة الجودة ودعمها لمؤسسات التعليم فى هذا المجال، فإنه يتضح من مهام القانون الجديد أنها ستركز فى عملها على تقييم مؤسسات التعليم وبرامجها الأكاديمية والبحثية أكثر من متابعتها لجودة منظومة التعليم ككل. كذلك فإنه يتعين على الهيئة تحديد الأهمية أو الوزن النسبى لنطاقات تطبيق الجودة للوصول إلى نموذجها المعتمد. فهل ستغطى المعايير القياسية للهيئة - على سبيل المثال - نطاق جودة العمليات التعليمية والأنشطة البحثية أم ستكتفى بنطاق جودة المؤسسات التعليمية وبرامجها ومخرجاتها؟. وكيف يمكن صياغة مؤشرات تقييم مركبة تأخذ فى اعتبارها المهام المتنوعة للجامعات من تعليم وتدريب وبحث وتطوير وخدمة مجتمع وتنمية بيئة ونشر الوعى الثقافى والعلمى؟

٤ - إن متخذ القرار بالهيئة سيواجه مشكلة الربط بين المقاييس المعترف بها دولياً والمعايير التى تعكس السمات

الخاصة لمنظومة التعليم العالى المصرية ومناخها الاقتصادى والاجتماعى. فقد يتعذر فى بعض الأحيان تطبيق المعايير والمواصفات المتعارف عليها دولياً نظراً لعدم ملاءمتها لخصائص نظم التعليم بمصر ومناخها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى. وفى حالة انضمام مصر لاتفاقية الجات للخدمات ومن ثم السماح لمؤسسات أجنبية بإنشاء وحدات تعليمية وبحثية بها، فإن مشكلة المواءمة بين المواصفات الدولية والمعايير الوطنية ستصبح أكثر تعقيداً.

٥ - إن اكتساب الهيئة لمستوى ملائم من الفعالية ومرونة التنفيذ يعتبر أمراً ضرورياً فى ظل تعدد نطاقات التطبيق والمقاربات البديلة للجودة. إذ يمكن أن تقدم جامعة ما أوراقها لاعتماد برنامج دراسى محدد، فى حين تسعى جامعة أخرى إلى اعتماد مجموعة متكاملة من البرامج تخص أحد الأقسام العلمية أو الكليات، كما يمكن أن تطلب جامعة ما اعتماد أحد برامجها البحثية بما تتضمنه من موارد بشرية وبنية أساسية ومعامل وأجهزة علمية ونتائج بحثية متنوعة.

٦ - بما أن الهيئة القومية لضمان الجودة والاعتماد يرأس مجلس إدارتها رئيس مجلس الوزراء، كما أنها تخص الوزراء - كل فى مجال اختصاصه - بمتابعة تطبيق مواد القانون وتحديد آجال استيفاء المؤسسات التعليمية لمعايير الجودة ومن ثم التقدم للاعتماد، فإن مسئولية تقييم جودة نظام التعليم العالى والتعليم ما قبل الجامعى ككل يتعين أن تتم من خلال جهة محايدة ومستقلة. وحيث إن مراجعة أداء نظام التعليم ككل يعتبر أمراً ضرورياً لاستكمال جهود تقييم الأداء وضمان الجودة على المستوى القومى وتحقيق الأهداف التنموية والمعرفية، فإنه يقترح تشكيل لجنة مشتركة من مجلسى الشعب والشورى وخبراء التعليم والبحث العلمى للحكم على قدرة الدولة - ممثلة فى وزارتى التعليم العالى ووزارة التربية والتعليم - على تحقيق الجودة الشاملة للمنظومة التعليمية.

نخلص مما سبق إلى أن الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد يتعين أن توجه كافة جهودها - خلال المرحلة الأولى من بدء نشاطها - لإنهاء المهمة الصعبة والعاجلة المرتبطة بوضع الأطر والقواعد والأسس التى تسمح بصياغة النموذج الأكثر ملاءمة لتقييم جودة الأداء وتطويره.

رابعاً: مجانية التعليم واقتصاديات تمويلها

طرحت وزارة التعليم العالى رؤيتها لتطوير القوانين والتشريعات الحاكمة لمؤسسات التعليم الجامعى على الرأى العام ومجتمع المهتمين بقضايا التعليم والبحث العلمى فى ورقة تضمنت مجموعة من المفاهيم الحديثة التى من الممكن أن تساهم - عند الأخذ بها - فى إعادة هيكلة النظام التعليمى تجاه تحقيق مزيد من ضمان جودة الأداء والاستقلال الذاتى وحرية الإدارة الأكاديمية والاقتصادية للمؤسسات التعليمية. ويعتبر الجزء الخاص بالإدارة الاقتصادية لمؤسسات التعليم العالى من اهم ما طُرح فى هذه الرؤية التعليمية. إذ حددت الوزارة عدداً من المفاهيم الجديدة يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

• تقدم المؤسسة خدماتها التعليمية المقننة الجودة على أساس التكلفة الفعلية للعملية التعليمية والبحثية والخدمات الأكاديمية الأخرى.

• تحدد مؤسسة التعليم العالى التكلفة الفعلية لإعداد الطالب بالتنسيق مع الوزارة وفق كل قطاع أكاديمى/مجال تعليمى/تخصص علمى.

• تنفذ الدولة نظام مجانية التعليم - فى إطار التزامها الدستورى قبل المجتمع - عن طريق آليات للتعاقد بين الدولة والمؤسسة التعليمية، فى ضوء التكلفة الفعلية التى تسمح للطالب بالوصول إلى مستويات ضمان الجودة المرغوبة.

بناءً على ما سبق، تصبح مجانية التعليم علاقة مباشرة بين الطالب والدولة نظير ما تسدده الدولة مقابل تكلفة الطالب إلى المؤسسة التعليمية. وبذلك تكون علاقة الطالب بالمؤسسة التعليمية هى علاقة بين طالب الخدمة ومقدمها، مما يسمح بتفعيل قوى العرض والطلب فى إطار اقتصاديات سوق التعليم العالى.

وأول ما يخطر بذهن المتابع لنظام التعليم المصرى وسماته الخاصة، أن تطبيق هذا المفهوم الاقتصادى الجديد سيؤدى إلى تراجع دور الدولة فى ضمان مجانية التعليم. إذ إن تكلفة إعداد الطالب - وفق مستوى مُقنن للجودة - ستكون بطبيعة الحال أعلى بكثير من نصيب الطالب الواحد من الإنفاق العام على التعليم فى ظل العجز الحالى فى الموارد المالية الحكومية. وبناءً على ذلك فإن الدولة ستقوم بدعم نسبة محدودة من الطلاب - فى شكل منح دراسية - فى حين يضطر الجزء المتبقى منهم إلى البحث عن بدائل تعليمية أخرى مثل القطاع الخاص أو القطاع الأهلى أو المعاهد الفنية المتخصصة. وحيث إن معظم الجامعات الحكومية تساهم - فى الوقت الراهن - فى تمويل العملية التعليمية والبحثية بها من خلال مواردها الذاتية. فإن تمويل الجامعات الحكومية - ومن ثم مجانية التعليم - يتم فى واقع الأمر بالمشاركة بين الدعم الحكومى المخصص للجامعات - والذى يتحدد على مستوى مركزى من خلال السياسات المالية للحكومة - وبين ما توفره الجامعات من موارد ذاتية لتمويل استثماراتها وخدماتها التعليمية والبحثية. ومن الملاحظ أن الوزن النسبى للتمويل الذاتى للجامعات - من خلال صناديقها الخاصة - قد تزايد تدريجياً خلال السنوات الأخيرة.

مســـــئوليـــة تقييــــم
جـــــودة نظـــــام التعـــليم العــــالى
والتعليم ما قبـل الجامعى ككـل يتعـيـن
أن تتـــم مـــن خـــــلال جهـــــــة
محـــــايـدة ومســـــتقـلة

خامساً: الخبرات الدولية فى مجال اقتصاديات التعليم

بمراجعة التجارب الدولية فى مجال اقتصاديات التعليم العالى فى ظل توجه الدولة الاستراتيجى لإتاحة التعليم لقاعدة عريضة من السكان، وهو ما يتم الأخذ به - على سبيل المثال - فى كل من فنلندا وألمانيا وفرنسا، نجد أن توجه الدولة فى مجال ديمقراطية التعليم يتحقق بالارتكاز على الأسس التالية:

١ - تتحدد سياسة الدولة وتوجهها الاستراتيجى نحو ضمان مجانية التعليم وإتاحته بمستوى جودة يخدم متطلبات سوق العمل، فى إطار صياغتها لمشروعها القومى أو لخطتها الشاملة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية التى تسعى إلى الارتقاء بمستوى المواطن، وتحقيق النقلة النوعية المرغوبة فى العلم والتكنولوجيا سعياً إلى الانتقال إلى مجتمع المعرفة. فقد أقر البرلمان الفنلندى فى نهاية التسعينيات من القرن الماضى - على سبيل المثال - توجها استراتيجيا قوميا يحدد خطوات الوصول إلى مجتمع المعرفة من خلال الأخذ بالمبادئ التالية:

• اعتبار التعليم قيمة مجتمعية تتمتع بقدر عالٍ من الأولوية وخدمة يتعين توفيرها لقاعدة عريضة من السكان بمستوى جودة تنافسى متميز.

• تبنى استراتيجية قومية فى مجال التعلم مدى الحياة Lifelong Learning بُغية الارتقاء بالمكون المعرفى لأفراد المجتمع طول حياتهم.

• زيادة حجم الاستثمار فى مجال البحث والتطوير والتنمية التكنولوجية.

• التوسع فى تطبيق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى إدارة القطاعات الاقتصادية والخدمية الحكومية والخاصة على حد سواء.

٢ - أى أن الدولة تبدأ - فى مرحلة أولى - بتحديد نموذجها التنموى وموقع منظومة التعليم العالى به بما فى ذلك الدور المتوقع لكل من القطاع العام والمؤسسات الخاصة والأهلية فى توفير الخدمة التعليمية. وبناءً على ذلك يتم وضع الخطوط العريضة الخاصة بأسس إتاحة التعليم ومستويات تطبيق المجانية.

٣ - أكدت معظم الدراسات فى مجال التعليم العالى - التى تمت من خلال منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة والبنك

الدولى ومؤسسات التعليم الإقليمية والوطنية الأخرى. أن الدول التى نجحت فى تحقيق أهداف التنمية البشرية يتمتع نظامها التعليمى بتنوع فى الهياكل الأكاديمية للمؤسسات التعليمية وبرامجها العلمية وخدماتها المجتمعية. وان مستويات التنوع فى مؤسسات التعليم العالى وبرامجها تتجه إلى التزايد مع ارتفاع معدلات النمو الاقتصادى والرفاهية الاجتماعية للمواطنين.

سادساً: بديل التمويل الملائم

يتضح مما سبق، أن سياسات إتاحة التعليم العالى وأسلوب تمويلها - فى ظل تقنين الجودة - تتم فى معظم الدول على مستويين متتاليين:

• مستوى الأهداف القومية والتوجهات التنموية للدولة فيما يخص معدلات إتاحة التعليم العالى وديمقراطيته فى ظل متطلبات الانتقال إلى مجتمع المعرفة بما يتضمنه من تنمية بشرية وابتكار بحثى وتطوير تكنولوجى.

• مستوى السياسات والبرامج الرامية إلى اختيار النموذج الأمثل لتمويل أنشطة التعليم والبحث العلمى وخدمة المجتمع بمؤسسات التعليم العالى وتحديد أسس وآليات دعم الدولة لهذه المؤسسات بما يضمن معدلات الإتاحة ومستويات الجودة المرغوبة.

فى ضوء المعطيات السابقة، فإنه يتعين إعادة النظر فى الجزء الخاص بالإدارة الاقتصادية لمؤسسات التعليم العالى - كما وردت فى مقترح وزارة التعليم العالى - لتكون على النحو التالى:

١ - تضمن الدولة حرية الجامعات واستقلال مؤسسات التعليم العالى اقتصادياً ومالياً، شريطة أن تضمن هذه المؤسسات جودة خدماتها التعليمية وفق المعايير والمواصفات القياسية التى تعتمدها الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد.

٢ - تحدد كل جامعة - بناءً على ما يتوافر لديها من بنية مؤسسية وما تملكه من موارد بشرية ومادية وبحثية وخدمية - أعداد الطلاب الممكن قبولهم فى ظل معايير الجودة المعتمدة.

٣ - تقوم كل جامعة بتقدير تكلفة تعليم الطالب وإكسابه المهارات العلمية والثقافية المطلوبة وتحقيقه لمستويات جودة الأداء المعتمدة وزيادة قدراته التنافسية فى سوق العمل.

٤ - تشارك وزارة التعليم العالى الجامعة الحكومية فى إعداد ميزانيتها المالية أخذاً فى الاعتبار بالإمكانات الذاتية للجامعة وموارد التمويل المتاحة لديها وما يمكن أن توفره الدولة من دعم مالى، حتى يمكن تحقيق معدلات الإتاحة المطلوبة وضمان مجانية التعليم لغير القادر مالياً.

٥ - تُحصل الجامعات الخاصة والأهلية رسومها الدراسية بما يتناسب مع ما تقدمه من خدمات تعليمية وبحثية متميزة، وفى إطار ما توفره الدولة من دعم عينى أو مالى للجامعات الأهلية وذلك بالتنسيق والتكامل مع وزارة التعليم العالى فى ظل الخطة الاستراتيجية الشاملة لمنظومة التعليم العالى ككل.

٦ - بما أن متطلبات ضمان الجودة يصعب تحقيقها فى ظل الزيادة المتوقعة فى أعداد الطلاب وما يتم فى الوقت الراهن من آليات لتوزيع خريجى الثانوية العامة على الجامعات الحكومية (من خلال مكتب التنسيق)، فإنه يتعين على الدولة أن تقوم بمراجعة استراتيجيتها الخاصة بزيادة الطاقة الاستيعابية لمؤسسات التعليم العالى العامة والخاصة بمصر بهدف توفير بدائل تعليمية تسمح باستيعاب الطلاب الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالجامعات الحكومية ولا يملكون القدرة المالية التى تسمح لهم بالالتحاق بالجامعات الخاصة والأهلية.

تأسيساً على ما سبق، فإن نجاح الدولة فى الارتقاء بمستويات جودة التعليم العالى مع عدم التضحية بالمكتسبات التى تحققت فى مجال إتاحة التعليم لقاعدة عريضة من السكان يتوقف على ما يمكن تحقيقه على ثلاث جبهات رئيسية:

١ - قدرة الحكومة على توفير الاستثمارات اللازمة للتوسع فى عرض الخدمات التعليمية وتوفير متطلبات الجودة الشاملة.

٢ - قدرة الجامعات الحكومية على تنويع مصادر تمويل أنشطتها التعليمية والبحثية والخدمية المجتمعية.

٣ - قدرة المجتمع على إيجاد بدائل حقيقية لاستكمال الطاقة الاستيعابية لمؤسسات التعليم العالى من خلال إنشاء جامعات عامة وخاصة وأهلية ومعاهد عليا فى شتى مجالات العلم والمعرفة.

سابعاً: ازدواجية التعليم العـــام والخـــاص

تُقدم خدمات التعليم العالى بمصر من خلال الجامعات الحكومية والخاصة والأهلية والمعاهد العليا والأكاديميات التى تمنح درجات علمية متخصصة. وبرغم إنشاء جامعة القاهرة كجامعة أهلية فى بداية القرن السابق - قبل تحولها إلى جامعة حكومية - فإن تجربة الجامعات الخاصة والأهلية فى مصر تعتبر حديثة إلى حد كبير، حيث بدأت بأربع جامعات فى بداية التسعينيات ثم تزايدت تدريجياً لتصل إلى تسع جامعات فى بداية الألفية الثالثة، ثم إلى نحو ١٥ جامعة فى عام ٢٠٠٦. وحيث إن التجارب الناجحة فى نظم التعليم العالى بالدول النامية تؤكد الاتجاه نحو أنساق تعليمية يشارك بها كلٌ من القطاعين الخاص والعام على حد سواء، فإن المرحلة التعليمية المقبلة بمصر ستتطلب - بالضرورة - دوراً أكثر فعالية للجامعات الخاصة والأهلية بُغية استكمال الطاقة الاستيعابية للتعليم العالى وتحقيق معدلات الإتاحة المطلوبة.

بيد أن تجربة النظام التعليمى المشترك - الذى يتكون من جامعات حكومية ومؤسسات تعليمية خاصة وأهلية - قد أفرزت عدداً من الاختلالات الهيكلية والازدواجية فى نظم التعليم يتعين على متخذ القرار التقليل من آثارها السلبية حتى يمكن صياغة الخطط الاستراتيجية الملائمة لتطوير التعليم العالى ومقابلة متطلبات أسواق العمل فى الألفية الثالثة:

١ - إن الجامعات الحكومية مازالت - بحكم إمكاناتها البشرية وأعداد طلابها وخريجيها - تقوم بالدور الرئيسى فى منح الدرجات العلمية وتوفير الكفاءات المهنية التى يتطلبها سوق العمل المصرى والإقليمى العربى ومازال دور الجامعات الخاصة محدوداً فى هذا الشأن.

٢ - تُقدم الجامعات الحكومية خدماتها التعليمية والبحثية للطلاب برسوم رمزية لا تتناسب - بأى حال من الأحوال - مع التكلفة الحقيقية لإعداد الطالب وإكسابه المهارات العلمية والمهنية وفق مستوى مقنن للجودة. غير أنها - برغم ذلك - قد نجحت فى الحفاظ على معدلات إتاحة للخدمة التعليمية بالشكل الذى يدعم التوجه السياسى المصرى والعالمى - نحو تحقيق «ديمقراطية التعليم» وتوفيره للراغبين فيه من أفراد المجتمع بغض النظر عن إمكاناتهم المادية.

٣ - فى ظل الزيادة المطردة فى أعداد الطلاب، وارتفاع تكلفة إعداد الطالب وفق مستويات الجودة المرغوبة، وقصور الموارد المالية بالجامعات الحكومية - بفعل تراجع معدلات الدعم الحكومى والقصور فى توفير متطلبات التمويل الذاتى - فقد تراجعت مستويات الأداء بالجامعات الحكومية، ومن ثم مستوى جودة خريجيها.

٤ - ستظل الجامعات الحكومية - ولفترة زمنية ممتدة - تمتلك الكوادر البشرية التعليمية والبحثية الأكثر عدداً وكفاءةً وقدرةً علمية على تحقيق متطلبات جودة الأداء ومازالت تمثل المصدر الرئيسى لاستكمال الموارد البشرية بالجامعات والمعاهد الخاصة.

٥ - تتسم الجامعات الخاصة بوفرة الموارد المالية والمادية ولكنها تعانى من قصور فى عدد أعضاء هيئتها العلمية مما يساهم فى استمرار اعتمادها على الجامعات الحكومية لاستكمال مواردها البشرية.

٦ - فى ظل استمرار الأوضاع الراهنة لمناخ التعليم العالى بمصر، من تعاظم دور الجامعات الحكومية فى مواجهة الطلب المجتمعى المتزايد على خدمات التعليم والبحث العلمى على حساب مستويات الجودة المستهدفة، مع

تصبح مجانية التعليم علاقة مباشرة بين الطالب والدولة نظير ما تسدده الدولة مقابل تكلفة الطالب إلى المؤسسة التعليمية. وبذلك تكون علاقة الطالب بالمؤسسة التعليمية هى علاقة بين طالب الخدمة ومقدمها

استمرار الدور المحدود للقطاع الخاص في هذا الشأن، وبالأخذ في الاعتبار عدم كفاية الإنفاق الاستثماري العام على قطاع التعليم والبحث العلمي، فإنه سيكون من الصعوبة بمكان تحقيق «الزيادة المخططة في «القدرة الاستيعابية» لمنظومة التعليم العالي مع ضمان مستوى مقنن للجودة.

نخلص مما سبق إلى أن السياسات التعليمية - خلال المرحلة المقبلة - يتعين أن تسعى إلى تكامل واتساق منظومة التعليم العالي وتحقيق مستوى ملائم من التناغم بين كل من الجامعات الحكومية والخاصة والأهلية من خلال التركيز على التوجهات التالية:

١ - مراجعة التشريعات المنظمة لمنظومة التعليم العالي وتحديثها بهدف الوصول إلى إطار متكامل لتطوير الأداء يعتمد على تفعيل دور الهيئة القومية لضمان الجودة والاعتماد، وتطبيق المنطق الاقتصادي السليم في تحديد تكلفة العملية التعليمية والعائد المتوقع منها.

٢ - الحد من الازدواجية بين قطاعي التعليم الخاص والعام من خلال تشجيع الجامعات الخاصة على استكمال مواردها البشرية - الأكاديمية والإدارية - وإتباع سياسات من شأنها ربط ما تحصله الجامعة من رسوم دراسية بما تحققه من جودة في معدلات الأداء وتنوع في الخدمات التعليمية والبحثية التي تقدمها، وتعظيم سبل تعاونها العلمي والثقافي مع الجامعات الحكومية، وتوجه الجامعات الحكومية إلى تنويع مصادر تمويل أنشطتها التعليمية والبحثية من خلال تفعيل وسائل اتصالها بقطاعات الإنتاج والخدمات على المستويين المحلي والعالمي.

٣ - قيام الدولة - ممثلة في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - باتخاذ السياسات والتدابير التي من شأنها تحقيق تكامل منظومة التعليم العالي واستقلالية مؤسساتها وضمان جودة مخرجاتها من خلال تشجيع مشاركة مؤسسات المجتمع المدني لإنشاء جامعات ومعاهد عليا مع دعم توجهها إلى تحقيق معدلات استيعاب شرائح طلابية أكثر اتساعاً.

ثامناً: إشكالية أعضاء هيئة التدريس

١ - إن تطوير أداء المعلم الجامعي يمثل أحد العناصر الرئيسية المؤثرة في منظومة الجودة الشاملة لمؤسسات التعليم العالي. ومن هنا فإن الارتقاء بقدرات أعضاء هيئة التدريس وإكسابهم التنوع العلمي والثقافي المرغوب لتحقيق أهداف ورسالة الجامعات يعتبر أمراً ضرورياً خلال المرحلة التعليمية المقبلة.

٢ - إن تحسين أداء الجامعات بشكل عام، والأستاذ الجامعي بشكل خاص - يتطلب تفرغه للعملية التعليمية والبحثية بالجامعة من ناحية، وتحسين أوضاعه المالية والاجتماعية بما يتناسب مع جودة الأداء المرغوبة من ناحية أخرى.

٣ - إن التطبيق السليم لمفهوم اقتصاديات التعليم لا يرتكز فقط على تحديد التكلفة الحقيقية لإعداد الطلاب أكاديمياً ومهنياً، ولكنه يتطلب أيضاً تصحيح هيكل المرتبات والمكافآت المالية التي يتقاضاها أعضاء الهيئة العلمية والإدارية بالجامعة.

٤ - إن نجاح الخطة المقترحة لتطوير منظومة التعليم العالي في تحقيق استقلالية الجامعات اقتصادياً وأكاديمياً - بما يسمح بتعظيم مواردها المالية مقابل التكلفة الحقيقية لتقديم الخدمات التعليمية والبحثية - سينعكس بالضرورة على مستوى الدخل المالي لأعضاء هيئة التدريس.

٥ - إن حصول المعلم الجامعي على حقوقه المالية والرعاية الصحية والاجتماعية المناسبة له ولأسرته لابد أن يقابلها تحديد واضح ودقيق لمهامه ومسئولياته للارتقاء بجودة العملية التعليمية والبحثية والتزامه بأخلاق وآداب الممارسة المهنية.

نخلص مما سبق إلى أن تحسين أوضاع هيئة التدريس والهيئة المعاونة بالجامعات الحكومية والخاصة على حد سواء يعتمد - بشكل كبير - على ما يمكن اتخاذه من سياسات تنظيمية وأكاديمية ترتكز على المحاور التالية:

١ - قدرة الحكومة على تصحيح هيكل المرتبات للأستاذ الجامعي في ظل ما يحققه من معدلات أداء أكاديمي وبحثي في ظل منظومة الجودة الشاملة.

٢ - قدرة الجامعات الحكومية - المتمثلة في مواردها البشرية والتنظيمية والبحثية والمعلوماتية - على تنويع مصادر تمويل أنشطتها المتعددة من خلال تعظيم العائد الذي يمكن تحقيقه من المشروعات البحثية التعاقدية والخدمات التعليمية والتدريبية التي تقدمها للمجتمع.

٣ - قدرة الخطة الاستراتيجية للتعليم العالي المقترحة لتحقيق الإدارة الاقتصادية المثلى للجامعات واستقلالها الإداري والمالي والأكاديمي بما يسمح بحصولها على المقابل المادي الذي يتواءم مع ما تقدمه من خدمات تعليمية وبحثية مرتفعة الجودة.

٤ - توجه الجامعات الخاصة إلى بناء كوادرها البشرية وتحقيق الارتباط المرغوب بين مستوى جودة أداء الأستاذ الجامعي وما يتقاضاه من مقابل مادي.

٥ - توجه الجامعات إلى تنمية قدرات أعضاء هيئتها العلمية والإدارية بما يمكنها من تحقيق الانفتاح المرغوب على القطاعات الاقتصادية والخدمية المحلية والأجنبية.

ناقش هذا المقال السياسات والبدائل المتاحة لتطوير منظومة التعليم العالي بمصر وإعادة هيكلة مؤسساتها في ظل ما نشهده - في الوقت الراهن - من رؤى لتعديل التشريعات والقوانين المنظمة لعملها وضمان جودة مخرجاتها التعليمية والبحثية، وفي إطار إقرار مجلس الشعب لقانون بإنشاء «هيئة قومية لضمان جودة التعليم والاعتماد».

وقد خلصت إلى أن مقترح وزارة التعليم العالي الخاص بصياغة تشريع موحد لمنظومة التعليم العالي، وما صاحبه من رؤية مستقبلية - تمثلت في ورقة لجنة التعليم بالحزب الوطني - يعتبر توجهاً أولياً مرغوباً يتعين مراجعته وإعادة صياغة عناصره ومكوناته، ودراسة تأثيره المباشر - وغير المباشر - على المسار المستقبلي للعملية التعليمية والبحثية بالجامعات بشكل أكثر عمقاً وشمولاً واتساقاً.

وقد سعيت إلى التأكيد على أن السياسات التعليمية - خلال المرحلة المقبلة - يجب أن تتوجه نحو ضمان عناصر الجودة الشاملة لمنظومة التعليم العالي مع الاستمرار في توفير التعليم وإتاحته لقاعدة مجتمعية عريضة. وأن تحقيق هذا الهدف الهام يتطلب صياغة خطة استراتيجية متكاملة تراعي التنوع - غير المسبوق - في هياكل مؤسسات التعليم العالي وبرامجها الأكاديمية وأنشطتها البحثية والثقافية، وتتناغم مع المناخ العالمي الجديد للتعليم العالي والبحث العلمي، وتتواءم مع البيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المصرية.

بيد أن المشكلة لا تكمن في طرح أفكار ورؤى للتطوير - قد نتفق أو نختلف حولها - ولكنها تكمن أساساً في تحديد بدائل التطبيق وآليات التنفيذ والسياسات الممكن اتباعها في هذا الشأن، ومن هنا فقد ركزت الورقة على تحليل السياسات والتوجهات البديلة للتعامل مع القضايا التعليمية التالية:

• الإدارة الاقتصادية المثلى لموارد الجامعات التعليمية والبحثية والمالية في ظل ضمان الجودة واستمرار الإتاحة.

• عناصر نموذج تقييم الأداء التعليمي والبحثي للجامعات ومدى ملاءمته للمناخ التعليمي الوطني السائد والخصائص الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع المصري والتطورات الدولية في مجال التعليم والبحث العلمي.

• البدائل المقترحة لإعادة هيكلة منظومة التعليم العالي والحد من اختلالاتها الهيكلية وتحقيق سبل التكامل بين الجامعات الخاصة والعامة في ظل التوجه نحو صياغة تشريع موحد. ■

ستظل الجامعات الحكومية - ولفترة زمنية ممتدة - تمتلك الكوادر البشرية التعليمية والبحثية الأكثر عدداً وكفاءة وقدرة علمية على تحقيق متطلبات جودة الأداء

حلمي محمد القاعود

حسين مجيب المصري

عالم نسيناه وشاعر جهلناه!



ذات يوم طُرح اسم «حسين مجيب المصري» للفوز بإحدى جوائز الدولة، فقال مسئول ثقافي رسمي: ومن هو حسين مجيب المصري؟ إن أحداً لا يعرفه!

من المفترض أن هذا المسئول الثقافي، قارئ جيد، ولديه احتكاكات بالواقع الثقافي المصري والعربي، يجعله يعرف الرجل، ويدرك قيمته، خاصة أن الرجل من الندرة التي تمتلك وعياً لغوياً ومعرفياً بعدد من اللغات الشرقية والغربية، أهله ليكون من أبرز الدارسين لآدابها وثقافاتها، وكان أستاذاً جامعياً معروفًا له نشاطه وإنتاجه في الوسط الثقافي والأدبي، وعرفته المجلات الأدبية على مدى نصف قرن (النصف الثاني من القرن العشرين)، مؤلفاً ودارساً ومترجماً وشاعراً..

المسئول الثقافي معذور وإن كان لا يعذر، فالحياة الثقافية، والمعرفية بصفة عامة، صارت تخضع للإلحاح الإعلامي الذي يقوم على العلاقات العامة، والانتماء الفكري لتيارات بعينها، ولذا نجد كاتباً أو مفكراً معيناً، يكاد «يموت» من الاهتمام الإعلامي «القاسي» به، وآخر، ربما كان أفضل منه «يموت» من التجاهل الإعلامي «القاسي» أيضاً. وقد رحل كثير من الأعلام الممتازين على مدى القرن العشرين، ولم يهتم بهم أحد، ولم يذكرهم أحد، مع أن جهودهم الأدبية والفكرية والعلمية تصل إلى مرتبة عالية من الجودة والرقي والتميز غير مسبوقة.

وإذا عرفنا أن قضية المعرفة، قد تراجعت في النصف الثاني من القرن العشرين بصفة عامة لصالح أنشطة هامشية أخرى، وقضايا ثانوية أو فرعية، في ظل مناخ طارد للعلم والثقافة والأدب؛ أدركنا أن الاهتمام بأدبائنا ومفكرينا ومثقفينا الحقيقيين بات ضرباً من تضييع الوقت فيما لا يفيد ولا يجدي.. مع أن قضية المعرفة والاهتمام بها تعد من القضايا الأساسية أو الرئيسية أو الاستراتيجية التي يفترض أن يقوم عليها البناء الحضاري للأمة، بل هي أساس التنمية في المجتمعات المختلفة.

هل كان الاهتمام بالعلم والمعرفة والثقافة في العالمين: الرأسمالي والشيوعي على مدى القرن العشرين ضرباً من العبث وتضييع الوقت؟ كلا.. فالفريقان على تباين معتقداتهما وتوجهاتهما أدركا القيمة الحقة للبناء العلمي المعرفي الثقافي، ولم يكن غريباً في المجتمع الشيوعي وهو الذي كان يوزع الطعام على المواطنين بالجرام، أن يستثني العلماء من هذا النظام، ويقيم لهم مدناً علمية تتوفر لهم فيها كل مستلزمات الحياة والرفاهية من أجل الإنتاج العلمي والبحثي، بل وصل الأمر إلى حد تخصيص حسابات مفتوحة للعلماء كي ينفقوا منها كما يشاءون.. وهو ما رأينا نتائجه في التفوق الواضح الذي صبغ المجالات العسكرية والصناعية والتجارية وغيرها..

وللأسف، فإن الواقع العلمي والمعرفي والثقافي في بلادنا العربية تحول إلى صورة مشوهة تمس الواقع العربي جميعه، وتشير إلى تخلفه المزري، وبؤسه المخزي، مع أنه يملك من الإمكانات والطاقات، ما يجعله يتفوق ويشارك في صنع الحضارة الإنسانية، كأحسن ما يكون التفوق وأفضل ما تكون المشاركة..

إن الاهتمام الحقيقي والجاد بأهل العلم والمعرفة والثقافة، على اختلاف مناهجهم وتوجهاتهم وتياراتهم، أساس من أسس التطور والانطلاق.. وهذا الاهتمام لا ينحصر أو يقتصر على المجال الدعائي أو المعنوي، ولكنه ينبغي أن يكون اهتماماً مادياً أيضاً، فالحياة الراهنة صارت تفرض على العلماء والمفكرين والأدباء التزامات مادية، لا يصبر عليها إلا أولو العزم من الناس، ومعنى ذلك أن تهيئة المناخ المادي والمعنوي الملائم يحول دون تسرب الطاقات المعرفية إلى الدول الأجنبية بالهجرة أو التعاقد للعمل خارج الحدود، أو الفرار من الميدان إلى مجالات أفضل عائداً وأكثر استقراراً..

وحين اختارت «وجهات نظر» في عدد (يونيو ٢٠٠٦) كتاب من «أدب الفرس والترك» لحسين مجيب المصري، الذي صدر لأول مرة عام ١٩٥٠، وأعيد نشره عام ١٩٩٩ : فقد نبهت إلى قيمة علمية وفكرية وأدبية في واقعنا الثقافي، وأثارت قضية تجاهل هذه «القيمة» وأمثالها إلى حد «الموت» إلى الحد الذي يقول فيه المسئول الثقافي الرسمي: إن حسين مجيب المصري لا يعرفه أحد!

لقد وصفت «وجهات نظر» حسين مجيب المصري بأنه رائد الأدب الإسلامي المقارن في العالم العربي، وأضيف: بل هو رائده في العالم الإسلامي أيضاً، لتعمقه في آداب الشعوب الإسلامية، ودراستها

حسين مجيب المصري، أيامي بين عهدين: سيرة ذاتية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٢٦٧ صفحة، قطع متوسط.

يا له من رجل ذى عزيمة قوية.. فى مثل هذا العمر ويصر على مواصلة القراءة والكتابة؟ أين هو، بل أين منه أشباه الأميين الذين صاروا أساتذة جامعيين وأدباء ومثقفين، وبعضهم لا يقرأ حتى الجريدة اليومية، فضلاً عن القراءة العامة والقراءة المتخصصة؟



دراسة منهجية، توصلت إلى الخطوط الرئيسية التى تجمع مفكرى الأمة الإسلامية وأدباءها ومثقفيها على اختلاف لغاتهم وتوجهاتهم واهتماماتهم..

وكان من المفارقات أن الأمة العربية لم تترك قيمة الرجل فى حياته، بل إنه يوم رحيله (١١ من ديسمبر ٢٠٠٤م)؛ لم ينشر خبر وفاته إلا فى ثلاثة أسطر باهتة داخل عمود محشور فى عمق صفحة أدبية لا تهتم الصحيفة التى تنشرها بإخراجها وتنسيقها! فى الوقت الذى قامت فيه حكومات إسلامية عديدة بتكريم الرجل وهو حى، ومنحته أوسمتها وشهاداتها، واستقبله رؤساؤها على النحو الذى سيأتى إن شاء الله.

يوم رحل الرجل، فجعنى الواقع الثقافى بتجاهله، فكتبت عنه بعض المقالات القصيرة التى نشرتها فى صحف محدودة التوزيع، لأن الصحف الكبرى مشغولة بما هو أهم فى نظرها، كان الرجل يمثل بالنسبة لى نموذجاً فريداً فى الإخلاص للعلم والمعرفة والأدب. وما بالك برجل قارب التسعين من عمره، وكف بصره، ووهنت صحته، وتكالبت عليه أمراض الشيخوخة، ومع ذلك، مازال مخلصاً لمسألة القراءة والكتابة التى يراها البعض لا تسمن ولا تغنى من جوع، وأنها حرث فى البحر، أمام ركلة كرة من قدم شاب صغير يتقاضى فى مقابلها عشرات الألوف من الجنيهات، أو أغنية سخيفة الكلمات، والمعانى يكسب صاحبها الملايين.. رجل شيخ فى مثل هذه الحال يستأجر من يقرأ له، ويكتب ما يمليه عليه، يستحق منا أن نجله ونبجله ونحترمه ونقدره، ونعرف به فى عصر ماتت فيه قيم العمل الجاد الشاق المضنى..

قبيل رحيله، كتب إلىّ رسالة، أو أملى رسالة إلىّ، يطلب فيها كتابى «محمد صلى الله عليه وسلم فى الشعر العربى الحديث»؛ لأنه يريد الاستفادة منه فى بحث له حول المدائح النبوية فى الآداب الإسلامية. أرسلت له نجلى ومعه الكتاب، وإذا به يرسل إلى رسالة مترعة بما لا أستحقه من الثناء.. ولا أدرى هل أنجز بحثه أم أن الموت منعه من إتمامه!

يا له من رجل ذى عزيمة قوية.. فى مثل هذا العمر ويصر على مواصلة القراءة والكتابة؟ أين هو، بل أين منه أشباه الأميين الذين صاروا أساتذة جامعيين وأدباء ومثقفين، وبعضهم لا يقرأ حتى الجريدة اليومية، فضلاً عن القراءة العامة والقراءة المتخصصة؟

لقد كان الرجل ملاذاً لطلاب العلم، وكان شارع الملك الأفضل فى الزمالك الذى يسكنه يستقبل طلاباً وباحثين وأساتذة من كل دول العالم الإسلامى، يطلبون منه المساعدة فى القضايا العلمية أو ترجمة النصوص الأدبية أو الإمداد بكتب ومراجع فى موضوعات يكتبونها أو يبحثون فيها.

وكان من دأب الرجل أن يعطى بلا مقابل، ولا يضيق بطالب علم، بل كان يسخر كل جهوده العلمية ومعارفه الثقافية لمن يطرق بابه، وأذكر أنه كان يحدثنى عن كتبه التى ينشرها بلا مقابل، اللهم إلا بعض النسخ التى يمنحها الناشر هدية للمؤلف، وحين كانت تنفد، كان يشترى نسخاً أخرى من جيبه ليهديها للطلاب والباحثين..

كان يجد لذة فى تقديم المعرفة، ولكنه كان لا يجيد فن العلاقات العامة، وخاصة مع وسائل الإعلام وأجهزة الثقافة الرسمية، فتجاهله الناس!

حين أنجز تسعة وخمسين كتاباً، وأغلبها من الكتب الضخمة، كان كتابه الستون سيرته الذاتية وجعل عنوانه: «أيامى بين عهدين..» ونشر طبعته الأولى عام ١٤١٩ هـ ١٩٩٩م، وأهداه إلى من بلغه الكبر، وأحس دنوّ الأجل، فشاقه أن يلتفت إلى ماض من عمره، كأنما يخيل إليه أنه عمره الفقيد يستعيد، ومن يمضى على جناح الذكريات إلى ما من الزمان فات، علّه أن يجد فى ذلك من ضيق فرجاً ومن سأم مخرجاً.

لقد وصفه الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى بأنه شخصية جامعية كبيرة، قامت بما يشبه المعجزات فى البحث الأدبى والعلمى والجامعى على امتداد أكثر من ثمانين عاماً.

وبعد أن يتناول مراحل حياته وجهوده يرى أن سيرته الذاتية وثيقة فريدة من وثائق العصر، وتمثل حديثاً مبسوطاً عن التاريخ المصرى قبل ١٩٥٢ وما بعدها، والتفكير العلمى فى جامعاتنا، والشباب ودوره فى تكوين الوعى الوطنى والاجتماعى فى مصر على امتداد القرن العشرين.

ووصف خفاجى لسيرة المصرى صحيح إلى حد كبير، فحياته رحلة من التطور الإنسانى والحضارى لمصر فى العصر الحديث، إذ تكشف الحديد من الجوانب السياسية والفكرية والعلمية والأدبية، وتعالجها من خلال منظور بعيد عن الهوى والغرض، وإن كان يحمل طابعاً ذاتياً، لا يمكن فصله عن صاحبه، ولا عن القضايا التى يناقشها.

يصف «حسين مجيب المصرى» ليلة مولده واستقباله للدنيا، فيقول فى صياغة أدبية راقية: «ليلة من ليالى فبراير عام ١٩١٦، أرسلت السماء فيها مدراراً على غير المعهود، ولانهمار المطر قطرات كأنهن همسات وهمسات، والمطر منذ طويل زمان آية على الخير، وحسن الرزق، فيه الأرض تخضر وتهتز لتؤتى من كل الثمرات، كما أن فى خضرتها بسمة الأمل».

وكما نرى فإنه يربط بين ميلاده وانهمار المطر قطرات دلالة على العطاء والخصب والأمل، مما يعنى أنه يضع حياته فى هذا الإطار مع قسوة الظروف والصعاب والمنغصات التى واجهته على امتداد ثمانين عاماً.

ولد «حسين مجيب المصرى» فى حى شبرا بمنزل جده لأمه «محمد ثاقب باشا» وزير الأشغال فى عهد الخديو إسماعيل، وكانت جدته لأمه - ابنة محمد ثاقب - من كريمات ذلك الزمان، حيث قيل عنها إنها كانت تدعو فقيرات النساء ليطعمن فى بهو من أبهاء قصرها، وتقف لتشاهدهن وهن ينعمن بالطيبات فتطيب نفساً بذلك وتقر عيناً، وبلغت فى التواضع حداً أن كانت تناولهن صحاف الطعام وجرار الماء. لقد أوقفت أربعة وثلاثين فداناً من أجود الأراضى بالقرب من المنصورة على البر والخيرات، كما أوقفت مالاً على مدفن والدها الذى ألحق به مسجد ومكتب لتعليم الصبيان، وسبيل يقف عنده عابر السبيل.

نشأ المصرى مدللاً، وكانت له مربية «نمساوية» علمته الفرنسية، ولا يذكر أباه إلا طيفاً من خيال، كان اسمه «على حسنى المصرى» ناظر دار العلوم العليا، وكانت هى الجامعة المصرية على الحقيقة، وأكبر معهد علمى فى مصر، وخاصة أن الجامعة المصرية لم تكن قد اكتملت تأسيساً.

دخل الطفل مدرسة شبرا الابتدائية، وتفوق فى اللغة العربية واللغة الإنجليزية إلى حد بعيد، ولكنه تخلف فى الرياضيات، ولازمه هذا التخلف إلى انتهاء مرحلة دراسته الثانوية. ومن الطرائف التى يحكيها المصرى عن المرحلة الابتدائية أن مدرس اللغة العربية طلب من التلاميذ أن يأتوا بكلمة «نال» فى جملة مفيدة، فقال حسين: «نال الشرطى ملابسه الصيفية من الحكومة المصرية» فبادر المدرس إلى منحه الدرجة النهائية، لأنه أدرك أن الطفل جاء بسجعة فى كلامه، مما يبشر أنه سيكون شاعراً فى يوم ما. لقد تفوق حسين فى كتابة الإنشاء، وهو ما جعل أحد مدرسيه يقول له: «يا مصرى ستكون أديباً عظيماً»، وكان المدرس يقرأ موضوعاته على الطلاب ويقول لهم: سأقرأ عليكم ما كتب المصرى».

وكان أمام قصره فى شبرا دكان لحلاق لبنانى شيخ، وكان أمر هذا الحلاق عجباً. إنه لم يدرس فى مدرسة، وكان يقول: «لم أدرس نحواً ولا صرفاً» إلا أنه كان يحب الشعر حباً جماً، وفى بيته من الدواوين النادرة مجموعة وفيرة. إنه على الدوام ينشد الشعر القديم والحديث، ويلحن فى الإنشاد، ولكنه يتذوق.

وقد لازم حسين هذا الحلاق فى دكانه، ويسمع منه ما يقول، وكان هذا الحلاق اسمه «نقولا جبرا» يحب شعر عمر بن الفارض لما فيه من صناعة، خاصة الجناس، مع أنه لم يفهم معانيه.

لقد أفاد حسين من هذا الحلاق اللبنانى كثيراً، وعرف منه أسماء الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين، وأسماء كتب الأدب العربى الأمهات، والكتب الحديثة مما أثار دهشة معلمه الشيخ إمام وغيره من معلمى المدرسة الابتدائية.

ومن حينها جعل يطالع كتب الأدب قديمها وحديثها، فقرأ لجبران، وسى زيادة، ومصطفى صادق الرافعى على صعوبة لغته، وحفظ كثيراً من الشعر العربى قديمه وحديثه. وبذلك أدركته حرفة الأدب.

وفى مدرسة السعيدية الثانوية، كان ينال الدرجات



النهائيه فى الإنشاء حتى إن الشيخ الطاهر عبدالله الذى كان يدرس له اللغة العربية فى الصف الأول الثانوى استدعى يوماً وكيل المدرسة ليقرأ على الطلبة موضوعاً قرأه وساوره الشك أن يكون قد كتبه بنفسه، أو أن أحداً فى بيته كتبه له، لأنه كان رفيع المستوى إلى حد بعيد.

وقد تفوق فى اللغة الفرنسية لأنه كان يتكلمها مع مربيته الأجنبية دائماً، كما كان يجيد الإنجليزية أيضاً، ووصل إتقانه للغات الثلاث: العربية والفرنسية والإنجليزية: أنه كان ينظم الشعر بالفرنسية، وكان مدرسها يصحح له ما ينظمه. أيضاً كان يترجم شعراً بالإنجليزية إلى العربية، فضلاً عن كونه وهو فى الصف الخامس الثانوى، نظم أول قصيدة له باللغة العربية فى رثاء قريبة له ماتت فى شبابها، ونشرت القصيدة فى مجلة المدرسة السعيدية، ومنها:

يا ناى أشعلت الأسى بجنانى
وعلى القتاد رميت بالوجدان
وكأن نوحك نوح قلب واله
زينته بسواحر الألحان..

وفى المرحلة الثانوية توفر «حسين مجيب المصرى» على قراءة كتب الأدب العربى والفرنسى والإنجليزى وتأثر كثيراً بالأديب «زكى مبارك»، وكان هذا التأثر سبباً فى شحذ عمته لمواصلة القراءة والاطلاع. وقد تعرف على صاحب مكتبة الجامعة فى شارع محمد على، يشترى منه الكتب الجديدة والقديمة، ودامت صحبته له أعواماً طوالاً حتى وافاه الأجل، ففقد صديقاً حميماً وأخاً كريماً وشعر بفراغ موحش، ولكن الله عوضه بصحبة شقيق الرجل الذى ظل على صداقته أكثر من ستين عاماً.

وفى المرحلة الجامعية، كان زكى مبارك، قدوة لحسين مجيب المصرى، وأراد أن يتشبه به فى الحصول على الدكتوراة ثلاث مرات.. ولكنه تمرس بتجربة خاصة، حيث وجد أن من يدرسون له من الأعلام على غير ما كان يسمع ويعلم. فهم أعلام بلا ريب، ولكن الألفة بينهم وبين الطلبة كانت مفقودة، وهذا ما لم يعجبه منهم، وفى مقدمتهم زكى مبارك نفسه!

كان حسين مجيب المصرى فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية، وأحزنه ما يجرى بين بعض الأساتذة من شحناء وبغضاء، ويفيض فى الكلام عن هذا الأمر المحزن، لأنه يرى أن الجامعة ليست علماً وكفى.. إنها المثل والقيم التى يتلقاها الطالب فى المجتمع الجامعى الذى يصير فيه الأستاذ موجهاً من الطراز الأول.

انفتح المجال أمام المصرى ليتتلمذ على أستاذ سويسرى فى اللغة الألمانية الذى درس له هذه اللغة لفائدته وفائدة العلم جميعاً، كما قال له، وظلت هذه المقولة تؤثر فى عقله الباطن، وتدفعه لمساعدة الباحثين من تلاميذه وغيرهم بترجمة النصوص الألمانية التى يحتاجونها لرسائل الماجستير والدكتوراة وسواها.

وهناك أيضاً فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية الذى انتسب إليه المصرى درس اللغتين الفارسية والتركية، وتفوق فيهما.

تعرف المصرى إلى شخصية «نجيب محفوظ» فى السنة التمهيدية للماجستير، وكان أسن منه، إلا أنه تخلف عن الحضور بعد مدة يسيرة لأنه لم يكن ميالاً لدراسة اللغات، وانصرف إلى كتابة القصة، كما تعرف إلى صاحب مكتبة الأنجلو المصرية الشهيرة عام ١٩٣٥ بحكم أن لديه الكثير من الكتب فى اللغات الشرقية، وصار ناشر كتبه الرئيسى، ويتنازل له عن حقوق التأليف عن طيب خاطر نظير أن تظهر كتبه إلى النور..

بعد عام ١٩٣٩ عقد «حسين مجيب المصرى» العزم على الرحيل إلى أوروبا للحصول على الدكتوراة ففاجأته الحرب العالمية الثانية، ولكن إنشاء معهد الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة مهد له الطريق لمزيد من الدراسة، وأتيح له أن يدرس الإيطالية، ويترجم عنها بحثين فى أثناء دراسته بالمعهد، لأحد أساتذته، وهما: أسباب سقوط الدولة الساسانية، والشعوب المسيحية فى عهد الساسانيين للمستشرق الإيطالى «كانيانى».

وبعد حصوله على دبلوم معهد الدراسات الشرقية، أعلنت جامعة فاروق بالإسكندرية (جامعة الإسكندرية الآن) عن حاجتها إلى من يدرس الفارسية، فكتب الدكتور عبدالوهاب عزام، رسالة إلى عميد الكلية، يقول فيها:

«حسين مجيب المصرى أفندى، أعلم من عرفت فى مصر من تلاميذنا وغيرهم بالفارسية والتركية وأرى أن تطلبوه من جامعة القاهرة لتظفروا به».

ولكن صرخة عبدالوهاب عزام ذهبت فى واد.. وفضلوا عليه زميلاً له لصلة قرابة بينه وبين من بيدهم الأمر.. ولكن المصرى ازداد رغبة فى التحصيل، وجعل يفكر فى رسالة الدكتوراة، ووقع اختياره على شاعر تركى عاش فى العراق فى القرن السادس عشر، كان ينظم وينثر بالتركية والعربية، وضاعت معظم أخباره، واختلف أهل العلم من الأتراك والأوروبيين فيه، كما خفيت معظم المراجع اليسيرة الشحيحة التى أوردت له ذكراً، فرآه أجدر ما يكون بالدراسة. هذا الشاعر اسمه «فضولى البغدادى»، وكان الأوحد الذى نظم الدواوين والأشعار بالعربية والفارسية والتركية..

فى رحلة البحث عن الدكتوراة والحصول عليها مر «حسين مجيب المصرى» بظروف متباينة، كان بعضها قاسياً ومؤلماً، ولكنها فى النهاية تكشف عن رغبته الحميمة فى البحث، وإخلاصه النادر للعلم والمعرفة والثقافة.

ويمكن أن نشير إلى أنه ظل عشر سنوات يجرى هنا وهناك، بحثاً عن مصادر رسالته للدكتوراة دون أن يعثر على ما يشفى الغليل، ودون أن يجد وظيفة تناسب تخصصه فى اللغات الشرقية، حتى قيض الله له فرصة الانتداب لتدريس الفارسية والتركية فى معهد اللغات الشرقية الذى تخرج منه، ثم انتدب لتدريس الفارسية فى معهد الآثار الإسلامية، وقد وجد المصرى غيرة بشعة ممن يدرسون هاتين اللغتين تمثلت فى صور من الحقد والحسد والتضييق، يردها المصرى إلى رقة فى الدين وضعف فى الإيمان..

فى عام ١٩٥١ رحل المصرى إلى استانبول لجمع مادة الدكتوراة، وأحس بانتعاش، وجرت سفينته بريح طيبة، فعكف على المطالعة فى المكتبات العامة والخاصة، واطلع على مخطوطات نادرة لا وجود لها إلا فى قليل منها، ووجد قذى العين من قراءة خطوطها التى لا يقتدر على قراءتها إلا خبراء الخطوط، ولكنه أقدم ولم يحجم.. وواصل حتى أصيب بغتة بالانفصال الشبكى فى عينه بعد أن جمع مادة بحثه أو معظمها، وأمره الطبيب بالرجوع إلى مصر بعد أن دعا له بالشفاء.

لقد عانى بسبب الانفصال الشبكى عناءً كبيراً، حتى أتيح له السفر إلى سويسرا لإجراء جراحة فى عينه، وعاد ليواصل عمله فى المعهدين العاليين، وكتابة رسالته التى كابد من أجلها ما كابد، وأصيب من أجلها بما أصيب، إلا أنه أحس بالسكينة تغمر قلبه، والرضا يملأ نفسه. وكانت رسالة الدكتوراة التى تقدم بها من أوائل - إن لم تكن أول - الرسائل فى الأدب التركى قدمت إلى جامعة القاهرة عام ١٩٥٥، كما كانت الأولى فى مادتها.

وواجه الرجل متاعب فى تعيينه مدرساً بالجامعة الأم، فعمل فى جامعة

ولد فى حى شبرا بمنزل جده لأمه «محمد ثاقب باشا» وزير الأشغال فى عهد الخديو إسماعيل، وكانت جدته لأمه تدعو فقيرات النساء ليطعمن فى بهو من أبهاء قصرها

أحزنه ما يجري بين بعض الأساتذة من شحناء لأنه يرى أن الجامعة ليست علماً وكفى.. إنها المثل والقيم التي يتلقاها الطالب في المجتمع الجامعي

عين شمس، وأسس قسماً للغة التركية.. وكأنه كان على موعد مع المتاعب والمكائد التي دبرها الزملاء الذين لا يعملون ولا يتركون غيرهم يعمل.. وانتهى حديث المتاعب والمكائد في آداب عين شمس إلى تركها مرغماً بعد إلغاء قسم اللغة التركية!!

بيد أنه انتدب للتدريس في كلية البنات بعين شمس بعد أن رد إليه اعتباره، فدرس الفارسية وآدابها، بالإضافة إلى نصوص إنجليزية وفرنسية في قسم الفلسفة، والتصوف لطالبات الدراسات العليا.

يمثل صراع أعضاء هيئة التدريس في الجامعة نقطة ضعف خطيرة في مسيرة التعليم الجامعي، وخاصة في الجامعات التي أنشئت بعد الجامعة الأم، ولم تتوفر لها التقاليد والقيم التي عرفتها الأخيرة، فضلاً عن تدني مستوى الأجور والمكافآت، مما يدفع بعض الأعضاء ممن جعلوا مهنة التدريس «سبوبة»، وليس طريقاً إلى العلم والمعرفة، والتقاليد والقيم، يتهافتون على المال والبحث عنه بأية وسيلة، ولو كان الطريق إلى ذلك تدمير زملائهم المتفوقين الجادين تدميراً معنوياً وإنسانياً، ولعل ما كان يتحدث عنه «حسين مجيب المصري» في زمانه يمثل قطرة في بحر مما يحدث الآن، حيث صار المتسلقون وأشباه الأميين، ممن استوعبتهم بعض الجامعات وخاصة في الأقاليم، يمثلون سرطاناً خطيراً ينخر في الجسد الجامعي، ويحطم هيكله المعرفي والخلقي جميعاً. وهو ما يفرض على من يعنيهم الأمر من المخلصين أن يتصدوا لهذا المرض الخبيث الذي يفتك بالجامعة والجامعيين، ويؤصل للتخلف البشع الذي جعل جامعاتنا في مؤخرة الجامعات العالمية، بل الأفريقية التي أنشئت على هدى الجامعات المصرية وتأثرت بها في زمن مضى..

لست أريد الوقوف عند أسباب هذا السرطان القاتل، وعناصر علاجه واستئصاله، ولكني أود الإشارة إلى أن رجلاً مثل «حسين مجيب المصري» كان يمكن لو أتيحت له الفرصة كاملة لأثرى الجامعة في تخصصه، وحقق أضعاف ما أنجزه، وهو مجرد ضيف «منتدب» يدرس بعض المقررات وينتهي دوره..

لقد كان إخلاصه للعلم وتفوقه في اللغات وآدابها (تجاوزت عشر لغات شرقية وغربية)، عنصر جذب، دفع إليه مئات الباحثين والأساتذة والطلاب، كي يستفيدوا بعلمه وقدرته على الترجمة الأدبية من العربية وإليها، وهذا في حد ذاته يمثل إنجازاً علمياً لا يتوفر إلا للقلة المخلصة التي تعكف على العلم والمعرفة والقراءة..

وبالإضافة إلى ما سبق، كان يبذل «مكتبته» التي جمعها على مدى سبعين عاماً، لكل من يطلب الإعارة من كتبها - وبعضهم استباحها ولم يرد ما استعاره - وكان يردد بينه وبين نفسه «إن هذا هو صدقة العلم، وإن الله يوم القيامة إذا سأله ماذا عمل من صالح قال: تعلمت العلم وعلمته، وكان ذلك مني قربة واحتساباً».

لم يتوقف نشاط الرجل على العمل الأكاديمي، ولكنه امتد إلى الصحافة الأدبية، فنشر كثيراً من المقالات والأشعار في الصحف والدوريات المصرية والعربية، بدءاً من «اللواء الجديد»، و«منبر الشرق» و«الراديو».. حتى «قافلة الزيت»، و«الأديب اللبنانية»، و«الورود» السورية، ومن خلال ثلاثين جريدة ومجلة أو أكثر، عرف بالآداب الفارسية والتركية والفرنسية والإنجليزية وغيرها.

وقد وصل صيته إلى خارج مصر، فدعي أستاذاً زائراً بجامعة بغداد، وكرمه الأساتذة العراقيون والتركمان هناك، ودعاه الأساتذة الأتراك إلى استانبول، وأقاموا له ندوة حاشدة أنشدوا فيها شعره، وفعلوا ذلك أيضاً في جامعة مرمرة، كما استضافوه في جامعتي أنقرة وقونية للتدريس، وذهب إلى باكستان ثلاث مرات مدعوا للاشتراك في مؤتمرات أدبية، وألقى في أحدهما بحثاً عن «إقبال والقرآن»، وفي المرة الثالثة، أقام له وزير الإعلام الباكستاني حفل عشاء بفندق شيراتون، واحتفى به الباكستانيون حفاوة كبيرة توجت بتقليده «وسام الجدارة» من جانب رئيس الدولة «ضياء الحق» الذي صافحه وعانقه بعد أن وضع الوسام على صدره.

وفي إيران، شارك في حفل بمناسبة تأسيس الدولة القديمة وألقى بحثاً بالفارسية، نشرته السفارة الإيرانية في مصر بعد ترجمته إلى العربية.

ودعي إلى قرطبة بإسبانيا: وكان المشارك المصري أو العربي الوحيد، وألقى ارتجالاً بحثاً بالإنجليزية عن إقبال والتصوف.

لقد أدرجت موسوعة إسلامية في استانبول، مادة عنه وعن مؤلفاته، وفي عام ١٩٩٦ منحته جامعة مرمرة الدكتوراة الفخرية، ودعته لتقدمها إليه، ولكنه اعتذر عن عدم السفر لفقدان نعمة البصر، فسلمت إليه في السفارة التركية بمصر في حفل كبير ألقى فيه قصيدة نظمها بالتركية مع ترجمتها إلى العربية.

كان أول كتاب له بعنوان «فارسيات وتركيات» وظهر عام ١٩٤٨، ويتناول الأغاني الشعبية وموضوعات أخرى متنوعة، منها: الصدق والكذب في إيران القديمة، وحريم السلطان، وغرام شاعرتين: إيرانية وتركية، والشاعر القتيل، وخديجة الشركسية.

وبعده أخرج كتاب «من أدب الفرس والترك»، ويشبهه في مادته وطريقة العرض، ويتضمن فصولاً أطول. وزاد في مجال المقارنة بين الأدبين فتناول المقارنة بين شاعرين سجينين، وشاعرين ضاحكين، وغضبة الأرض.. والكتابان بصفة عامة باكورة المقارنات في الأدب الإسلامي، التي أضاف إليها فيما بعد، الأدب العربي، والأدب الأوروبي.

ومن أهم كتبه في هذا المجال: «بين



الأدب العربي والتركي»، وتناول: الترك والشعر العربي، والغزل في الشعر العربي والتركي، والرثاء عند العرب والترك، والطبيعة في الشعر التركي والعربي، ليلى والمجنون عند العرب والترك، مولد النبي في العربية والتركية، الهجاء في الشعر العربي والتركي، التصوف في شعر العرب والترك، الأدب الشعبي عند العرب والترك، الشعراء الملوك عند الترك والعرب.

أيضاً له كتاب «رمضان في الشعر العربي والفارسي والتركي»، و«سلمان الفارسي بين العرب والفرس والترك»، و«أبو أيوب الأنصاري عند العرب والترك»، و«فن الأدب الشعبي الإسلامي المقارن»، ويعالج الفصل الأول فيه شخصية جحا الأسطورية التي تبين أنها ثلاث شخصيات وليست شخصية واحدة، و«بين الأدب العربي والفارسي والتركي»، و«مصر في الشعر التركي والفارسي والعربي»، و«المرأة في الشعر العربي والفارسي والتركي»، و«الأسطورة بين الأدب العربي والفارسي والتركي»، و«المسجد بين شعراء العربية والفارسية والتركية»، و«الأندلس بين شوقي وإقبال»، و«غزوات الرسول بين شعراء الشعوب الإسلامية»، و«أشجار وأزهار وأطيار في الشعر العربي والفارسي والتركي»، و«الفلاح في الشعر العربي والفارسي والتركي»..

وهذه الكتب كما نرى، تمثل قاعدة قوية وممتدة في مجال الأدب الإسلامي المقارن، أسسها ورسخها «حسين مجيب المصري»، وتكاد تغطي كل الأنشطة والموضوعات التي تناولها الشعر والنثر في الآداب الثلاثة، مما يجعل الرجل بحق رائد الأدب الإسلامي المقارن: وهو مجال لم يقترب منه إلا قلة من الباحثين توفرت لها

كان يعلل انطوائيته وانعزاليته عن المجتمع والناس، وربما مثاليته في القراءة والبحث والاستذكار، بتربيته المنزلية، وارتباطه بالمربيات الأجنبيات اللاتي علمنه اللغات التي يتكلمن بها، وخاصة الفرنسية والإيطالية



أدوات البحث فيه، وهى أدوات صعبة على كل حال.

ويمكن القول إن الرجل امتد بنشاطه إلى اتجاه آخر يخدم مجال المقارنة، وهو التاريخ، فكتب عام ١٩٥١ «تاريخ الأدب التركى» ولعله أول كتاب فى المكتبة العربية يعالج منهجياً هذا الموضوع. وقد ترجم إلى الفارسية دليلاً على أن المكتبة الفارسية تفتقد وجود كتاب فى الموضوع، ولعل هذا ما جعله ينتشر فى جمهوريات آسيا الوسطى التى تعتمد الفارسية، أو تنتمى إلى جذور تركية.

وكتب المصرى كتاباً آخر فى هذا السياق بعنوان: «فى الأدب الإسلامى: فضولى البغدادى أمير الشعر التركى القديم»، «وأثر الفرس فى حضارة الإسلام» وهو فصل من كتاب مشترك بعنوان «دراسات فى الحضارة الإسلامية». ولقد اهتم المصرى بشاعر تركيا الأشهر «محمد عاكف» الذى وفد على مصر وعشقها وكتب عن نيلها وآثارها ووصفها وصفاً رائعاً. كما اهتم بشاعر الإسلام العظيم «محمد إقبال» فكتب عنه «إقبال والعالم العربى» وترجم كثيراً من أشعاره. ولاحظ أنه لا يكاد يعرف داعية إسلامياً من غير العرب بلغ مبلغ إقبال فى فرط تعلقه بالعرب والعالم العربى. كما كتب عنه «إقبال والقرآن»..

ويعد حسين مجيب المصرى نفسه لغوياً بسليقته واستعداده وميله، بحكم أنه درس إحدى عشرة لغة يجيد منها ثمانى لغات، كما أنه كان عضواً خبيراً بالمجمع اللغوى على مدى يزيد على ثلاثين عاماً حتى رحيله، ولهذا استطاع أن ينشئ خمسة معاجم هى:

- «المعجم الأوسط» (أوردو - عربى) بالمشاركة مع أستاذ باكستانى.
- «المعجم الفارسى العربى الجامع»، ويشمل مفردات لغة الأدب والعلم والصحافة والمعرب والأمثال والعبارات المجازية والمصطلحات الصوفية، وما دخل الفارسية من العربية وتغير مدلوله فيها..
- «معجم الدولة العثمانية»، ويحتوى من الأسماء ما تنعقد صلته بالأتراك العثمانيين على امتداد تاريخهم، مع الشرح والتأصيل بحيث تبدو صورة لحياتهم فى شتى جوانبها، وحضارتهم الإسلامية فى أخص مظاهرها. وفيه تراجم لرجالاتهم من الأعلام فى تاريخ الإسلام.
- «أثر المعجم العربى فى لغات الشعوب الإسلامية»، وفيه ثبت بالألفاظ العربية التى دخلت الفارسية والتركية والأردية، وتغير مدلولها كلية.
- «معجم السلطان قابوس للأسماء العربية»، وفيه يتقصى المصنف الأسماء غير العربية فى المشارق والمغارب، ويؤصلها وهى فى مدن الخليج فارسية وأردية، وفى مصر والشمال الأفريقى تركية وفارسية..

ويتصل بهذا الجانب اللغوى لدى حسين مجيب المصرى، ما قام به من ترجمات لكتب وأبحاث وموضوعات مهمة، ومنها على سبيل المثال، ما ترجمه عن الألمانية بعنوان «الأدب الفارسى القديم» لباول هورن، وما ترجمه عن الفرنسية لمحمد إقبال بعنوان «ما وراء الطبيعة فى إيران» وهو رسالة الدكتوراة التى تقدم بها إقبال إلى جامعة ميونيخ عام ١٩٠٨، وما ترجمه عن الإنجليزية لبيلى بعنوان «الأدب الإسلامى فى شبه القارة الهندية».. بالإضافة إلى ترجمات أخرى كثيرة عن التركية والإيطالية والروسية والأردية، ظهر بعضها مطبوعاً، وظل بعضها مكتوباً بالآلة الكاتبة حتى اليوم.

وفى السياق اللغوى أيضاً تجدر الإشارة إلى أن المصرى نظم شعراً بالفارسية والتركية وترجمه إلى العربية، وله ديوان فارسى بعنوان «صبح»، وآخر تركى بعنوان «صولغون بركل»، وقد ترجمهما شعراً منظوماً أيضاً إلى العربية.

ويبدو أنه حريص على صفة «الشاعر»، حيث خصص معظم سيرته الذاتية التى سرد فيها حياته للحديث عن دواوينه، وشرح قصائده، وتوضيح مناسباتها، والإشارة إلى من تأثر بهم من الشعراء، والصور التى استخدمها فى أبياته، والحالات النفسية والشعورية التى غلبت عليه، والظواهر التى تشيع فى شعره..

لقد أصدر المصرى ستة دواوين باللغة العربية لها عناوين ثنائية هى: شمعة وفراشة، وردة وبلبل، حسن وعشق، همسة ونسمة، شوق وذكرى، موج وصخرة، بالإضافة إلى ديوانين أحدهما بالفارسية والآخر بالتركية، سبقت الإشارة إليهما. ونلاحظ أن أسماء دواوينه تنتسب إلى الطبيعة وما فيها من كائنات ونباتات وجمال ومشاعر، وأحاسيس وظواهر، بالإضافة إلى استخدامه للألفاظ «المنكرة» بدلاً من المعرفة فى عناوين دواوينه، بل فى عناوين قصائده جميعاً، ويفسر ذلك بتأثره بالفارسية والتركية، لأن أداة التعريف «ال» لا تدخل على الأسماء فى الفارسية والتركية والأوردية، ولا ريب أن قارئ شعر المصرى يجد توافقاً بين نزعته الرومانتيكية، - وقد نشأ فى عصر ازدهار الرومانتيكية فى مصر والعالم العربى - مع نزعة الشعر فى الآداب الشرقية، وخاصة الفارسية، فامتلأ شعره بالحزن الشفيف، وذكر الطبيعة ومفرداتها، والميل إلى التصوف بمعناه الإيجابى، وبروز التعبير الذاتى العاطفى، وجيشان الشعور والإحساس، ولعل فى مقدمة ديوانه «همسة ونسمة» ما يكشف لنا عن بعض هذه المعالم، يقول:

للفجر طال انتظارى
وعز حتى اصطبارى
فى وحشتى لست أدرى
ما ليلتى من نهارى
فى حيرتى ضاع عمرى
والعمر كالسيل جارى
يا فجر بدد ظلامى
وفكنى من إسارى
الليل سجن أمامى
يمتد جدران قار
واهوانى يحامى
عن جحره باعتصارى
يا فجر واكشف غمامى
عن لمحة للدرارى

وقصائده بصفة عامة تميل إلى الطول. ولديه قدرة واضحة على النظم وفق جميع البحور، خاصة البحور المهجورة، أو التى لا ينظم عليها إلا القلة من الشعراء الموهوبين، فضلاً عن تمكنه من القافية تمكناً يكشف عن استيعاب عميق للغة ومفرداتها..

ومن المؤكد أن شعره يحتاج إلى دراسات طويلة ومتشعبة، تكشف عن معالمه الفنية والإنسانية، والمؤثرات التى تظهر من خلاله، وخاصة ما استوعبه من شعر فارسى وتركى وأوردى، سواء فى المضامين أو الصور أو الهياكل.

لقد لاحظت أن الحركة النقدية بصفة عامة، لم تلتفت إلى شعر المصرى، حتى من يعرفونه ربطوه بدراسة الآداب الشرقية أو لغاتها فحسب. ولكن أحداً فى المجال الأدبى - حسب علمى - لم يتناول شعره بشىء من التعليق أو التقويم، أو الدراسة، كذلك فإن الجامعات، لم تتوجه إلى هذا الشعر فى رسالة ماجستير أو دكتوراة، مع أنه شعر غنى، يستحق الدرس والقراءة، والبحث النقدى، والتناول المقارن.

فى سيرة حسين مجيب المصرى الذاتية يمكن أن نلاحظ ما يلى:

❖ أنه لم يشر إلى أسرته الصغيرة إشارة وافية، لقد أشار إليها إشارة سريعة فى سياق عام من قبيل أنه سافر مع زوجته إلى بلد (كذا)، أو دعى مع زوجته إلى احتفال (كذا)، فلم نتعرف كيف بنى

لقد كان إخلاصه للعلم وتفوقه فى اللغات وآدابها (تجاوزت عشر لغات شرقية وغربية)، عنصر جذب، دفع إليه مئات الباحثين كى يستفيدوا بعلمه وقدرته على الترجمة الأدبية من العربية وإليها

أسرته، أو كيف تزوج. ولم ندر شيئًا عن ذريته أو أولاده، ولم يتكلم عن طبيعة حياته الأسرية فى ظل ظروفه الصعبة التى عانى فيها من الانفصال الشبكى، ثم ضياع الإبصار تمامًا فى أواخر حياته، ولعل ذلك يرجع إلى تأثره بالتقاليد التى ترفض الحديث عن الحياة الخاصة.

* فى مقابل ذلك فقد تحدث عن جدته لأمه، وعن أمه حديثًا مستفيضًا، وسبقت الإشارة إلى ما ذكره عن جدته وكرمها وإحسانها إلى الفقراء، وتدينها، وحجها إلى بيت الله الحرام، كما أشار إلى أمه واتباعها نهج جدته فى الكرم والإحسان، وتعامل الاثنتين مع الخدم الذين كانوا ينتسبون إلى جنسيات مختلفة (النمسا، الحبشة، السودان)، تعاملاً طيبًا بوصفهم أفرادًا من الأسرة.

بيد أنه لم يشر إلى أبيه، إلا إشارة سريعة بوصفه ناظر دار العلوم العليا، الذى أثر فى عدد من خريجيها، فأشادوا به عندما عرفوا أن «حسينا» ابنه يدرس فى المدرسة التى يعملون بها.

كذلك لم نتعرف على جدته لأبيه، أو أى من أفراد أسرة أبيه، فهل كان ذلك يرجع إلى تواضع أسرة أبيه أمام أسرة أمه التى كان ربها وزيرًا للأشغال فى عهد الخديو إسماعيل؟ ربما..

* كان يعلل انطوائيته وانعزاليته عن المجتمع والناس، وربما مثاليته فى القراءة والبحث والاستذكار، بتربيته المنزلية، وارتباطه بالمربيات الأجنبيات اللاتى علمنه اللغات التى يتكلمن بها، وخاصة الفرنسية والإيطالية..

كما يشير إلى طبيعته الحزينة المتشائمة التى تتبدى فى أشعاره خاصة، وإلى مثاليته التى جعلته يصطدم بسلوكيات الناس وشراستهم، فى الوقت الذى تربى فيه مدللاً ملتزمًا بقيم عليا ومثل وأخلاق تربى عليها ولا يحيد عنها.

* استخدم فى سرد سيرته الفعل الماضى وضمير الغائب، وكأنه يتحدث عن شخص آخر: فيقول: ذهب حسين، وفعل حسين. ولكن حسينًا، و... وراح، وعاد، وانتدب، و... ولم يستخدم ضمير المتكلم أبدًا، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعته التى تؤثر التواضع على النرجسية أو الإحساس بتضخم الذات.

ولعل تعمق المفاهيم الإسلامية فى وجدانه هو الذى جعله ميالاً إلى التواضع، كارهًا للتكبر والاستعلاء، وكثيرًا ما نلمح وراء تصرفاته وسلوكه إيمانًا دينيًا عميقًا، يفسر الأحداث ويواجه الأقدار.. وهذا التفسير ينطوى على الرضا بالقضاء والقدر، والنظر إلى الجانب المشرق من الحياة، والاعتراف بنعم الله التى تظهر فى الجوانب الأخرى.

* ثمة مشكلة لازمته، وخاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين، وهى ما جرى له ولأسرته من تحديد للملكية الزراعية، بوصف عائلته من الإقطاعيين. فقد كان شديد الألم لما يسمعه حين يصفه البعض بأنه «إقطاعى»، وقد ازداد ألمه حين اتخذت هذه الصفة مدخلاً لتدبير بعض المكائد والدسائس من جانب بعض زملائه الذين نفسوا عليه تفوقه وامتيازه فى الجانب العلمى، وكان ما كان من إيذائه وإبعاده عن الجامعة ردحًا من الزمان.

لا ريب أن إحساسه بأنه شخص عادى متواضع، يحب العلم والمعرفة والناس، ويجد فى الحلاق اللبنانى الذى لا يحمل شهادة صديقًا له يتعلم منه الشعر والأدب، قد جعل وصفه بالإقطاعى جرحًا غائرًا فى أعماقه لازمه إلى يوم وفاته.

والمفارقة، أنه عاش - كما أعلم - بقية عمره، منذ إحالته إلى التقاعد، على معاش هزيل، بعد أن فقدت عائلته ثروتها، ويبدد ما تبقى لديه على المعرفة ومستلزماتها!

* ومن المؤكد أن التراث الذى خلفه «حسين مجيب المصرى»، فى مجال الأدب الإسلامى المقارن أو التاريخ الأدبى للآداب الشرقية أو الترجمات التى قام بها عن اللغات الكثيرة التى يتقنها، أو المعاجم التى ألفها فى هذه اللغات، أو الشعر الذى نظمه بالعربية والفارسية والتركية أو الجهود التى بذلها مع طلابه، أو الكتابات التى نشرها فى الصحف والدوريات، أو الأبحاث التى ألقاها فى المؤتمرات والمنتديات أو غير ذلك من نشاطات بذلها وهو فى غاية الرضا والإخلاص، تجعله واحدًا من الأعلام الأفذاذ فى اللغة العربية، بل فى اللغات الشرقية جميعًا، وتضعه فى مقدمة الذين يجب أن تحتفى بهم الأمة، وتقدرهم حق قدرهم فى حياتهم وبعد مماتهم.

ولعل هذا يفرض على كل صوت مخلص أن يقدمه وأمثاله إلى الأجيال الجديدة، لترى فيهم مثالاً بارزًا للدأب والإخلاص والإصرار على استقبال العلم والمعرفة والثقافة، مهما كانت الصعوبات والمعوقات. ■

كتاب الزاوية



حياة الرافعى

فى الوظيفة

فى أبريل سنة ١٨٩٩ عين الرافعى كاتبًا بمحكمة طلخا الشرعية، بمرتب شهرى أربعة جنيهات، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه فى المحاكم الشرعية، وما كان الرافعى ليجهل جاه أبيه وأسرته فى هذه المحاكم، وما كان منكورًا لديه أن لهم يدًا على كل قاض فى القضاء الشرعى، فنشأ بذلك نشأة الدلال فى وظيفته، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عمل أو لم يعمل، لمكانة أسرته من النفوذ والرأى، ولمكانته هو أيضًا.. ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة؟.. هكذا كان يرى نفسه من أول يوم، وظل كذلك يرى نفسه آخر يوم..

وكانت إقامته بطنطا فى هذه الحقبة، فمنها مغداه وإليها مراحه فى كل يوم، يتأبط حقيبة فيها غداؤه وفيها كتابه، وما كان أحد يستطيع أن يلفته إلى ضرورة التبكير إن جاء فى الضحى، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله.

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئًا يعينه على العيش، ليفرغ لنفسه ويعدها لما تهيأت له، فما انقطع عن المطالعة والدرس يومًا واحدًا، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته.

وقضى الرافعى فى طلخا زمنًا ما، ثم نقل إلى محكمة إيتاى البارود الشرعية، ثم إلى طنطا، وفى طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنتين، لأنه رأى المجال فى المحاكم الأهلية أوسع وأرحب، والعمل فيها أيسر جهدًا وأكثر أجرًا، وظل فى محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير.

عندما تكون اللاسامية سلاحًا وعقابًا

** كان قد آن الأوان ليظهر كتاب يتناول التعسف فى استغلال اللاسامية كسلاح سياسى. اليوم، وجد هذا الكتاب كاتبه: نورمان فنكلشتاين. لم يخف هذا الكاتب من التحديات الخطيرة التى تنتظره وبرهن، كما يبدو جلياً فى كتابه، أنه على مستوى التحدى. فالدقة والاحتراف فى أبحاثه وتحليلاته مبهرة.

يفرد السيد فنكلشتاين الجزء الأول من دراسته لموضوع استغلال اللاسامية من قبل اللوبى الأمريكى والأوروبى المؤيد لإسرائيل بهدف دعم سياسة الدولة الإسرائيلية. ففى كل مرة يظهر فيها خطر حقيقى من ارتفاع حدة ضغوط المجتمع الدولى على إسرائيل لتنسحب من الأراضى التى تحتلها وفق القانون الدولى، تنهد، للمرة الألف، كما لو كان بالصدفة، إطلاق حملة ترتكز على اللاسامية: «وما هو هوس إعلامى منظم بدقة يظهر للمرة الألف مدعياً أن العالم محاصر باللاسامية».

تحاول النخبة اليهودية الأمريكية من خلال هذه الادعاءات إقناع الجميع أن كل من يحتقرون إسرائيل هم فى الحقيقة لاساميون متحفون. وتبقى كل معلومة حول ما تعنيه الحياة تحت الاحتلال بالنسبة للفلسطينيين، وكل معلومة حول الاضطهاد الذى يخضعون له والمعاناة التى يعيشونها فى عداد التابوهات. إسرائيل، وإسرائيل وحدها، تملك حق الظهور بمظهر الضحية. وهكذا، تعكس الحقيقة بطريقة تؤمن لإسرائيل دوام التمتع بالإفلات من العقاب.

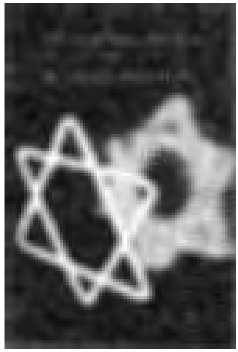
الهستيريا فيما يخص تلك «اللاسامية الجديدة» تؤدى ليس فقط لفرض الصمت على أى نقد مشروع لإسرائيل، بل أيضاً إلى تحويل نظر الجمهور العريض عن خرق القانون الدولى والحقوق الإنسانية الأساسية. هكذا يتحول مثلاً رفض المشاركة فى حرب عدائية ضد العراق إلى كره لليهود!

فى يوم السابع عشر من فبراير عام ٢٠٠٣، قال الكاتب «إيلى فيزل»، الناجى من معتقل أوشفيتس والحائز على جائزة نوبل للسلام لجورج بوش إن العراق دولة إرهابية وأن ذلك يستدعى واجباً معنوياً للتدخل. فلو كان الغرب قد تدخل فى أوروبا عام ١٩٣٨، حسب تحليل فيزل، لكان من الممكن تجنب الحرب العالمية الثانية والمحرقة اليهودية.

«كانت لحظة بالغة الأهمية بالنسبة لى»، صرح بوش بعد فترة: «لأنها كانت بمثابة تأكيد على ما كنت أفكر فيه».

وقد أدان رئيس المجمع اليهودى المركزى الألمانى «بول شبيجل» بشدة الموقف الألمانى المعارض للحرب على العراق مستنداً إلى حجج من نفس نوعية حجج فيزل. ولسوء حظه، جاء صدى حججه معاكساً، حيث تظاهر الملايين ومن بينهم الكثير من اليهود، فى ألمانيا وفى العالم أجمع ضد الحرب.

إن معاينة نوعية الحلفاء الذين توجه هذا اللوبى لاستمالتهم من اليمين المتطرف فى ألوان الطيف السياسية تبدو مرعبة: سيلفيو برلسكونى وجيانفرانكو فينى من التحالف الوطنى الذى يمثل الفاشية الجديدة فى إيطاليا، جان-مارى لو بن من بين آخرين فى فرنسا. أما بالنسبة للأصوليين المسيحيين فى الولايات المتحدة، فقد لجأ اللوبى المذكور للحجة القائلة بأن عدم تسامح الأصوليين الذى طالما ضرب به المثل لم يعد بذات الخطورة التى كان عليها سابقاً وبأن ما يحسب لهم قبل كل شىء موقفهم المؤيد لإسرائيل...



يهمنى أن أشارك القارئ تجربتى الشخصية فى ألمانيا كيهودية إسرائيلية وكناجية من الهولوكوست. زوجى، ماسيو، اختبر فى حياته المرور بخمسة معسكرات اعتقال نازية، وهو الناجى الوحيد فى عائلته من الهولوكوست، وقد نجا بمعجزة. أنا ووالدتى عشنا فى الاتحاد السوفيتى بعد أن أعدم كل أفراد عائلتنا. نعيش أنا وزوجى فى ألمانيا منذ خمسة عشر عاماً وقد أصبح هذا البلد بالنسبة لنا اليوم وطناً محبوباً. لم نواجه طوال السنوات الماضية أى نوع من معاداة السامية. هذا يستحق الذكر، فزوجى قضى سنوات حياته يحاضر فى مدارس ألمانيا عن معاناته خلال الحقبة النازية ومن استمعوا لمحاضراته يعدون بالآلاف. إلا أننى لا أنكر تماماً وجود اللاسامية وكره الأجانب فى ألمانيا.

ففى هذا الصدد، كانت تجربتنا الأولى عام ١٩٩٠: لاحظنا يومها وجود «سفاستيكا» (الصليب المعقوف) مرسومة بالأسود على حائط مركز تجارى فى «توبنجن».

ولم يستطع جمال المكان نفسه والمحيط الممتع لذلك المركز التجارى أن يطغى على تلك اللطخة السوداء ويمحوها. فقررنا أنا وزوجى أن نذهب ونمحو الرسم وعدنا للموقع مساء لنكتشف أن أحداً ما قد سبقنا بعدة دقائق ومحاها. أحد استفزه ذلك الرمز النازى مثلما استفزنا.

كان هذا أول لقاء لى مع معارض مجهول فى ألمانيا. هؤلاء المعارضون المتحفظون هم حلفاؤنا فى ألمانيا فى حربنا ضد اللاسامية الحقيقية وكره الأجانب وأيضاً ضد نضالنا ضد الحرب وضد سياسة إسرائيل المدمرة تجاه الشعب الفلسطينى. تلك السياسة المدمرة التى يتطرق هذا الكتاب إليها.

نورمان فنكلشتاين يفضح استغلال اللاسامية من قبل بعض الناس كسلاح سياسى. ما يشغله هو استرداد الضحايا لكرامتهم وما يقوم به هو ما يفرضه إرثهم علينا للقيام به. أنا وزوجى ماسيو نتفق مع السيد فنكلشتاين على هذه الثوابت، وأصر هنا على تكرار ما كنت قد نشرته فى مطبوعات أخرى حول هذا الإرث: على مر السنين، تشربنا أنا وزوجى إرث من قتلوا، وهذا الإرث فى نظرنا يعنى ما يلى: عدم السكوت بتاتاً على أى جريمة أو ظلم بل النضال المستمر ضد كل وأى شكل من أشكال العنصرية واللاسامية، والدفاع عن كرامة وحقوق البشر، مهما كانوا. هذا هو واجب الألمان الأبدى، ولكنه ليس واجب الألمان وحدهم.

وفى إطار تكريم ذكرى هؤلاء الضحايا وروح إرثهم الأوحد - الذى ليس سوى الإنسانية - أنا أرفض منذ عقود الاضطهاد الذى يتعرض له الفلسطينيون على يد إسرائيل والظلم الذى ألحقته إسرائيل ولا تزال تلحقه بهم حتى اليوم.

يقول نورمان فنكلشتاين، وهو على حق فى ذلك، أنه على اليهودى الراغب فى محاربة اللاسامية الحقيقية أن يدين قبل أى شىء اللاسامية المزعومة اليوم لبطلانها: قولوا الحقيقة، وناضلوا من أجل العدالة: هذه هى الإستراتيجية الفعالة التى تم اختبارها على مدى السنوات، فى محاربة اللاسامية كما فى محاربة كل أشكال التطرف الأخرى.

الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى التى احتلت عام ١٩٦٧ سيحرم اللاساميين الأصليين الذين يستغلون التعنت الإسرائيلى كحجة لإدانة كل اليهود - ومن يشك فى وجود هذه الفئة من اللاساميين الأصليين - من سلاح فتاك وسيكشف للعالم حقيقة نواياهم.

ومن ناحية أخرى، كلما توصلت المعارضة اليهودية للاحتلال الإسرائيلى إلى إثبات وجودها، كلما قل عدد غير اليهود الذين يخلطون ما بين السياسات الإجرامية لإسرائيل والدعم غير المشروط (عملياً، التشجيع الحقيقى) الذى تقدمه لهم الجمعيات اليهودية التوافقية وبين الرأى العام الذى يعتنقه اليهود فعلياً. ليس لدى ما أضيفه على هذا التصريح الواضح والصريح.

فى الجزء الثانى من الكتاب نتعرف على وضع حقوق الإنسان فى إسرائيل/ فلسطين. إن ملف إسرائيل، فيما يخص حقوق الإنسان، يبدو، بشكل عام، مثالياً، كما يؤكد «آلان ديرشوفيتس»، المحاضر فى كلية الحقوق فى جامعة هارفرد، فى كتابه «الدفاع عن إسرائيل».

هدف هذا الكتاب، كما يقول الكاتب «هو المساهمة فى تنقية الأجواء عبر

نورمان فنكلشتاين كاتب أمريكى من أصول يهودية: أستاذ مساعد فى جامعة «دو بول» كلية العلوم السياسية. معروف بكتاباته حول الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى، وبنقده للطريقة التى تستغل بها بعض المجموعات اليهودية الهولوكوست.

صدر له خمسة كتب أهمها:

- الصورة والواقع فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى
- صناعة الهولوكوست: تأملات حول استغلال المعاناة اليهودية
- ما بعد الوقاحة: استغلال اللاسامية واستباحة التاريخ.

The Holocaust Industry
صناعة الهولوكوست
Norman G. Finkelstein
Verso

ترجمة: رنا حايك

فيليسيا لانجر

إعطاء براهين مباشرة وحقيقية، دفاعًا عن الاتهامات الباطلة».

سجل كتاب ديرشوفيتس أعلى أرقام المبيعات في الولايات المتحدة، وزعته الجمعيات اليهودية الأمريكية بكثرة في الجامعات واشترى وزير الخارجية الإسرائيلي آلاف النسخ منه بغية توزيعها.

بصفتي كرست ثلاثًا وعشرين سنة(١٩٦٧-١٩٩٠) في الدفاع عن الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وبصفتي أول محامية قامت بذلك، لدى الكثير لأدلي به بخصوص الحقوق الإنسانية للفلسطينيين الذين يعيشون في الأراضي المحتلة والانتهاكات الصارخة لهذه الحقوق من قبل إسرائيل.

أشكر نورمان فنكلشتاين لإدانته أكاذيب ديرشوفيتس في كتابه ولتقديمه للقارئ معلومة أساسية مصدرها مختلف جمعيات حقوق الإنسان الإسرائيلية والفلسطينية والدولية تفضح بالإجماع وبقوة - الشيء الذي اختار ديرشوفيتس تجاهله- انتهاكات الحقوق الإنسانية من قبل إسرائيل، تلك الانتهاكات التي تشكل معظمها جرائم حرب فعلية.

أنا أيضًا أفضحها، وأفضحها بصفتي شاهدة على عصر وبصفتي شاهد عيان. أفضح كل الحكومات الإسرائيلية، من أي طيف سياسي كانت.

إن الصفحات التي خصصت في هذا الكتاب للجرائم التي ارتكبها الإسرائيليون خلال انتفاضة الأقصى الجرائم التي ينفي ديرشوفيتس وجودها- منهكة نفسيًا. وتظهر كيف أن تحفظ الإعلام الألماني في عرض الجرائم الإسرائيلية، وتعتيمه على الحجم الحقيقي للقمع الإسرائيلي في الأراضي المحتلة يجعلانه مضللاً.

أحد فصول الكتاب مكرس لما يسمى بـ «التصفيات» (وعلى سبيل الذكر، هذا مصطلح اخترعه النازيون) أي اغتيال الإسرائيليين «المشتبه بهم» فلسطينيين. «تصفيات» يوافق عليها ديرشوفيتس. لكن أعلينا إعلان ذلك؟

سابقًا، خلال الانتفاضة الأولى(١٩٨٧-١٩٩٣) قامت كتائب الموت المبتذلة باستعمال حقها في القتل بكثرة. وخلال الانتفاضة الثانية، هذه الاغتيالات كانت قد أصبحت السياسة الرسمية لإسرائيل. إلا أن الإعدام غير القضائي ليس عملاً إرهابيًا فحسب، بل إنه يعد أيضًا، بحسب اتفاقية جنيف الرابعة (عام ١٩٤٩)، جرمًا من جرائم الحرب الفعلية.

خلال محاضرة كنت قد ألقيتها في ٢١ أغسطس ٢٠٠٢ في فيينا، ذكرت اجتياح إسرائيل الإجرامي لأراضي ٦٧ التي يتكلم عنها نورمان فنكلشتاين أيضًا في كتابه، والتي يسميها على سبيل التورية «ترس الحماية». تكلمت عن الإعدام وعن الجرائم التي ارتكبت في جنين. لكنني أيضًا أثرت إمكانية إيجاد حل سلمي للصراع. وسرعان ما حشد المجتمع اليهودي في فيينا أعضاءه لنشر الفوضى خلال المحاضرة، ولشتمي ونعتي باللاسامية وبالخائنة ولتنظيم مظاهرات صاخبة تنادي بـ: «النازيون إلى الخارج!» وعندما بدأت الأمور بالخروج عن السيطرة، قطعت المحاضرة. لم يطق الفرع النمساوي من اللوبي اليهودي سماع الحقيقة، فلجأ لسلاح اللاسامية المزعومة.

الفصل المخصص للتعذيب، وعنوانه «أبو غريب الإسرائيلي» أثار بشكل خاص اهتمامي. عندما رأيت الصور المأخوذة في سجن أبو غريب في العراق على شاشات التلفزة، تذكرت موكلي الفلسطينيين الذين تعرضا للتعذيب، وأعلنت على الملأ: «إنها الأساليب الإسرائيلية لإذلال السجناء. الفرق الوحيد هو أنه في السجون الإسرائيلية ليس هناك من صور وللأسف ينعم المعذبون هناك بالإفلات من العقاب».

فكرت في سامي إسماعيل ونورمان فنكلشتاين يثير قضيته- وفي ديرشوفيتس، الذي كان قد كذب منذ عام ١٩٧٨ لتبرئة إسرائيل من أساليبها العنيفة ومن تعذيبها. رأيت جروح موكلي بعيني. وأرسلت التماسًا للمحكمة العليا: ولم أتوصل لشيء. في بعض الحالات، تسبب التعذيب لدى الضحايا باضطرابات نفسية حادة، بعض موكلي، مثل عوض حمدان، من الضفة الغربية، الذي توفي عام ١٩٨٧، ومحمود المصري، الذي توفي في قسم الأمن العام في سجن غزة في مارس ١٩٨٩، فقدوا حياتهم. أوصي بقراءة هذا الفصل عن كثب، لأن إسرائيل استأنفت التعذيب المعتاد مع معتقليها. وفي السجون الإسرائيلية، هذه الفظاعات المذكورة في الكتاب تشكل الحقيقة المريعة.

يبحث نورمان فنكلشتاين أيضًا هدم المنازل كعقاب جماعي. خلال الانتفاضة الثانية، لجأت إسرائيل بكثرة لهذا الإجراء القاسي. تشرد آلاف الفلسطينيين، ومعظمهم كان يتشرد للمرة الثانية أو الثالثة في حياته.

هذه السياسة تنتهك القانون الدولي وقد سبق وأدانها المجتمع الدولي. ومع ذلك، ديرشوفيتس يبررها. يوضح السيد فنكلشتاين في كتابه، مستندًا إلى تقارير خاصة بحقوق الإنسان، أن فلسطينيين دفنوا أحياء تحت أنقاض منازلهم. ومهما حاولت، لن أستطيع نقل صورة كاملة عن محاولاتي المستمرة والمجهضة خلال كل تلك السنوات لدفع المحكمة العليا الإسرائيلية إلى إلغاء أو على الأقل إلى تعليق هذا النوع من العقاب الجماعي غير الشرعي من وجهة نظر القانون الدولي.

يصف السيد فنكلشتاين أيضًا هدم البيوت المبنية بشكل غير «قانوني» من قبل فلسطينيين. أعلن هنا أيضًا، أنني حاولت، على مدى سنوات، وفي معظم الأحيان دون جدوى، استخراج رخص بناء للفلسطينيين. فإسرائيل تعتمد سياسة حصار ونورمان فنكلشتاين توصل لنفس الاستنتاج الذي توصلت إليه: هدف هذه السياسة هو الحصول على أقصى مساحة من الأراضي الصالحة لبناء مستوطنات يهودية، ومنع القرى والمدن الفلسطينية من التوسع.

«تعد المحكمة العليا الإسرائيلية من أشهر المحاكم عالميًا، حيث إنها عاقبت عدة مرات الجيش والحكومة وفرضت عليهما التصرف وفقًا للقانون». يتغنى ديرشوفيتس، مستندًا إلى تقارير عن حقوق الإنسان وإلى خبرات إسرائيلية، نورمان فنكلشتاين يبين الطابع المضلل لهذه المقولة العبثية.

وأنا أشارك السيد فنكلشتاين رأيه: فبدلاً من أن تبحث عن الحق، لطالما لجأت المحكمة العليا الإسرائيلية إلى شرعنة الظلم، وإكليل الورد الذي يجدله ديرشوفيتس لها يبدو في غاية الوقاحة.

أشهد على ذلك بصفتي أول محامية رائدة، تملك ثلاثة وعشرين عامًا من الخبرة فيما يخص الالتماسات الموجهة للمحكمة العليا، باسم الفلسطينيين وضد قوات الاحتلال. والكثير من زملائي الإسرائيليين يستطيعون أن يشهدوا مثلي على ذلك. فمهما كان الموضوع- هدم منازل، مستعمرات ومصادرة أراض، ترحيل، تعذيب، رفض تجمع عائلي، حجز إداري- كانت المحكمة تلجأ لرفض التماساتي بروتينية منهكة، خارقة في معظم الأحيان بنودًا تخلو من أي غموض في القانون الدولي.

وقد اتخذت قراري بإغلاق مكتبي للمحاماة في القدس بعد نشاط دام ثلاثة وعشرين عامًا احتجاجا مني على كل هذه السنوات من جمود المحكمة في اتخاذ أي قرار من شأنه إدانة ظلم وشراسة النظام العسكري في الأراضي المحتلة. وأود التأكيد على أن هذا لا يعني أبدًا أنني اعترفت بهزيمتي، بل بالعكس تمامًا: فأنا مستمرة في اقتناص أية فرصة تتيح لي كشف الحقيقة.

نورمان فنكلشتاين يسعى جاهدًا على المستويين التاريخي والسياسي لكشف التشابك البياني المصطنع المحاك حول الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ويبرهن أن هذا الصراع ممكن أن يحل وفقًا للقانون الدولي. فهو يصف «الحل في الدولتين». لقد سبق وأعلن الفلسطينيون منذ زمن بعيد أنهم قد يقبلون بالاكتفاء بالحصول على عشرين بالمائة من فلسطين التاريخية، لكن يظل السؤال مطروحًا حول الأسلوب الذي سيعتمد لحل مشكلة اللاجئين وفقًا للقانون الدولي؟ إسرائيل، من جهتها، تستمر في الاستيطان وفي احتلال الأراضي بشكل غير قانوني، وتبني حائط الفصل العنصري الذي يوغل في أعماق الضفة الغربية وترفض الاعتراف بأية مسئولية في خلق المأساة التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون.

السيد فنكلشتاين يجسد صوتًا له وقعه: صوت يملك الضمير والإنسانية، صوت يهودي مغاير، يمثل البركة للفلسطينيين ولليهود على حد سواء.

بالنسبة لي، شكل يوم ١٠ مايو ١٩٧٦ يومًا تاريخيًا. ألقيت يومها محاضرة في المركز العلمي في جامعة هارفرد، كامبريدج، في الولاية الأمريكية ماساتشوستس. وبسبب تهديدات غاية في الخطورة، خضعت المحاضرة وشخصي المتواضع لحراسة بوليسية. المقاطعات والصراخ والتنديدات كانت لا تحتمل.

فـ «الراوديز» هؤلاء الطلبة الصهاينة «الصاخبون» (هكذا يسمون أنفسهم)، كانوا يصرخون: «لن ندعها تتكلم هنا!» بعد المحاضرة، جاءت امرأة تكلمني وأهدتني بورتريه عني رسمته بيدها. كان عنوان البورتريه: «تبارك صناع السلام».

بالنسبة لي، كان هذا دليلاً على أن «الراوديز» لم ينجحوا.

اسمحوا لي أن أقول لكاتب هذا الكتاب: «تبارك صناع السلام».

فنكلشتاين يجسد صوتًا له وقعه: صوت يملك الضمير والإنسانية، صوت يهودي مغاير يمثل البركة للفلسطينيين ولليهود على حد سواء

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

نجيب محفوظ.. المحطة الأخيرة

محمد سلماوى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١١١ صفحة



لا يقدم هذا الكتاب تأريخاً للفترة التى أمضاها نجيب محفوظ داخل المستشفى حتى رحيله (من الأحد ١٦ يوليو حتى الخميس ٣١ أغسطس ٢٠٠٦) فحسب، وإنما يقدم من خلال هذه المحطة الأخيرة للأديب الكبير صورة صادقة لعلاقة ممتدة مع المؤلف بدأت قبل ثلاثين عاماً وتوطدت فى الاثنى عشر عاماً الأخيرة، حين وقعت محاولة اغتيال محفوظ فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٤، والتى تركت أثراً فى يده أعاقه عن الكتابة بنفسه، وهو ما استدعى - حسب طلبه - أن يتحول مقاله الأسبوعى بالأهرام إلى جلسة حوارية يجريها المؤلف معه ويلخصها فى مقال.

والكتاب الذى يبدأ منذ إصابة محفوظ فى رأسه إثر سقوطه بمنزله وتعرضه لنزيف استدعى نقله إلى المستشفى، يكشف كيف أن الأمور تدهورت بسرعة غير متوقعة، إثر سقوطه مرة ثانية من فوق سرير المستشفى، وهى السقطة التى عجلت بالنهاية على النحو الذى كان مفاجئاً حتى بالنسبة لفريق الأطباء المعالجين، وبين ما يكشفه المؤلف عبر تسجيله ليوميات محفوظ بالمستشفى، هذا التقدير الكبير الذى حظى به محفوظ على المستوى الرسمى والشعبى والدولى، ينقل لنا المؤلف ما قاله له الكاتب الفرنسى الكبير روبير سوليه.. «أنت الحكاء الأكبر فى العالم، ولقد أثرت ليس فقط فى القراء، وإنما أيضاً على الكتاب»، وإصرار الكاتب البرازيلى السفير باولو كويلهو على تقبيل يده حين التقاه، واشتراط «نادين جورديمير» الكاتبة الجنوب أفريقية الحائزة على جائزة نوبل لقبولها زيارة مصر أن تلتقى محفوظ، والتقدير الكبير الذى حظيت به أحلام فترة النقاهة وهى آخر ما كتب محفوظ فى الغرب، حتى أن مدير النشر فى دار لوروشيه قال إنه لم يقرأ مثيلاً لهذا اللون الأدبى من قبل، ويحكى المؤلف قصة الأحلام، كيف كان يحفظها محفوظ ويمليها على الحاج صبرى الذى اعتاد أن يقرأ له الصحف، وكيف كان الحلم الأخير الذى نشر بمجلة «نصف الدنيا» بمثابة نبوءة بالرحيل.

واحة الغروب

بهاء طاهر

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٦، ٢٩٠ صفحة



يعود بهاء طاهر فى «واحة الغروب» إلى نهايات القرن التاسع عشر، وهى السنوات التى شهدت الاحتلال الإنجليزى لمصر بعد مواجهات عنيفة مع جيش عرابى، وقد ظل النظر إلى عرابى وصحبه متأرجحاً بين كونهم «عصاة» تمردوا على مولانا الخديو وقادوا البلد إلى نكبة الاحتلال (وهى رؤية المستر هارفى الإنجليزى والضابط الشركسى وصفى) أو باعتبارهم وطنيين دافعوا عن بلدهم ضد المستعمر الأجنبى، وهى رؤية محمود عبدالظاهر بطل الرواية، وهو ضابط من البوليس المصرى، وقد استقى المؤلف سماته من شخصية حقيقية تدعى محمود عزمى كان مأموراً لواحة سيوة فى تلك الفترة، وأما محمود عبدالظاهر فيحمل بداخله تناقضات عديدة، إذ لم يكن فى بداية حياته معنياً بالتظاهرات ولا بمواجهة المحتل، كان يعيش حياة لاهية يتردد على الحانات ويصادق الجوارى وبنات الليل، إلا أنه استمع مرة إلى الشيخ جمال الدين الأفغانى يخطب فى الناس فى مقهى متاتيا، ويبصرهم بوحشية الاحتلال وبضرورة المقاومة لطرد المستعمر الذى يستغل خيرات البلاد ويستنزفها، فتنقلب حياته رأساً على عقب، لكنه يبقى دائماً عاجزاً عن اتخاذ موقف واضح وصريح فى مواجهة المحتل وأعوانه من رجال السلطة المحلية الذين ينظرون إليه باعتباره متواطئاً مع «العصاة»، فيقرروا إرساله إلى واحة سيوة وهم يدركون أنها مهمة قد لا يعود منها أبداً، يسافر محمود إلى سيوه بصحبة زوجته الأيرلندية «كاثرين» المشغوفة بالآثار والتى تبحث بدأب عن مقبرة الإسكندر، وتتواصل أحداث الرواية بين صراعات ناس الواحة من جهة، والمأمور بوصفه ممثل السلطة من جهة ثانية، أو بين أهل الواحة أنفسهم المقسمين بين شرقيين وغربيين، وتقاليدهم البدائية التى تنهى حياة «مليكة» زينة فتيات الواحة بعد أن أجبروها على الزواج من شيخ فى سن جدها.

تعتمد الرواية على أصوات متعددة لعدد من الرواة يتناولون الحدث ذاته بأكثر من رؤية، كما أن ظل الإسكندر بما ينطوى عليه من جموح وطموح ويأس وغرور وقسوة ورغبة فى تشييد المجد، يبقى حاضراً ومتماساً مع عديد من شخوص الرواية وخصوصاً محمود وكاثرين.

رواية بديعة تدور فى عالم شديد الثراء والخصوصية، وفى زمن اختلطت فيه معانى الغدر والخيانة بآيات الحب والبطولة.

السوبر أصولية

حسن عجمى

بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٦، ٢٠٠ صفحة



الفكرة الأساسية التى يسعى المؤلف إلى تأكيدها هى أن فلسفة اللغة هى العامل الأساسى فى تحديد الآراء فى علم الكلام وفى التفسير الدينى والفلسفى، وهو قول لا يصدق على الإسلام فحسب، وإنما على كافة الأديان، وهو ما يعنى أن المذاهب المختلفة فى اللاهوت والتفسير الدينى تعتمد أساساً على فلسفة اللغة، وهو ما يعنى أيضاً أن المذاهب تعبر عن فلسفة اللغة لا عن الدين الإسلامى نفسه.

والنتيجة المباشرة لهذه الفرضية هى أنه لا يوجد مذهب إسلامى أو فكرى يمكن القول إنه هو المذهب الصحيح فى الإسلام، فكل المذاهب مقبولة ومتساوية.

أما السوبر أصولية التى يدعو إليها المؤلف، فإنها تعتبر أن الأصول المعرفية والدينية قائمة فى المستقبل فقط، وبذلك فإن السوبر أصولية هى الأساس فى بناء السوبر مستقبلية والسوبر حداثة.

ومن أهم فضائل السوبر أصولية - حسبما يشير المؤلف، هو أنها تنجح فى تفسير، لماذا البحث المعرفى هو عملية تصحيح مستمرة.

يسعى المؤلف إلى إثبات فكرته تلك عبر فصول الكتاب الأربعة، والتى تتضمن دراسة وتحليلا لآراء عدد من الفلاسفة والعلماء والمتكلمين الإسلاميين منهم الزمخشرى والسيوطى والإسنوى والسيرافى والفارابى وابن سينا والغزالى والمعرى وابن رشد وابن عربى وابن خلدون والشيرازى، وغيرهم.

ثلاث رسائل فى نظرية الجنس

سيجمند فرويد

ترجمة: محمد عثمان نجاتى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٠٩ صفحات



الرسائل الثلاث التى يشير إليها العنوان هى «الانحرافات الجنسية» و«الجنس عند الأطفال» و«تحولات البلوغ»، ومنذ البداية يشير المترجم وهو أستاذ أكاديمى متخصص فى علم النفس إلى الاعتراضات والانتقادات الكثيرة التى واجهتها نظرية فرويد وآراؤه فى الجنس عموماً، وبالأخص آراؤه فى الجنس عند الأطفال وتوسيعه لمفهوم الجنس، إذ لم يعد مقصوراً على المعنى الشائع وهو النشاط الجنسى الذى يحدث أثناء المراهقة وبعدها، بل إنه أدخل تحت مفهوم الجنس كثيراً من أنواع السلوك الطفلى.

وتعالج الرسالة الأولى من الكتاب موضوع الانحرافات الجنسية، وتحاول تفسيرها وشرح العوامل المختلفة التى تساعد على حدوثها، إذ تبين لفرويد أن للعوامل التى تؤثر فى السلوك الجنسى أثناء مرحلة الطفولة أهمية فى تكوين هذه الانحرافات، وفى الرسالة الثانية يدرس السلوك الجنسى عند الأطفال والعوامل التى تؤثر فيه، وفى الرسالة الثالثة يتابع تحولات البلوغ.

وقد حاول فرويد من خلال هذه الدراسات الثلاث أن يبين اتجاه النمو السوى، والعوامل المؤثرة فيه، وأن يشرح العوامل المختلفة التى تؤثر فى هذا النمو والتى يمكن أن تعطله وتقود إلى الانحرافات الجنسية، ويشير المترجم إلى ما انتهى إليه فرويد من عدم وجود علاقة وثيقة بين الغريزة الجنسية وموضوعها، كما أن الغريزة الجنسية مركبة من عدة غرائز جزئية متحدة فى الوظيفة التناسلية السوية، وأن الانحرافات هى كبت للنمو الجنسى السوى من جهة، ولتفكك الغريزة الجنسية إلى أجزائها من جهة ثانية، كما أنها - الغريزة الجنسية - مرتبطة بمناطق شبقية معينة، وهى المناطق التى تسهم فى إحداث اللذة التمهيدية الضرورية لحدوث اللذة النهائية الناتجة عن العملية الجنسية.

الدولة والمجتمع المدنى فى ليبيا

محمد زاهى المغيربى

ليبيا: عراجين، ٢٠٠٦، ١٨٢ صفحة



يتضمن الكتاب عدداً من الدراسات التى تحلل الواقع السياسى والاجتماعى فى ليبيا وتبدأ بدراسة عن التأثيرات المختلفة للتغيرات العلمية والتقنية كما برزت فى أدبيات التحديث والتنمية السياسية، حيث تحلل مدى انطباق ذلك على التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال العهد الملكى فى ليبيا (١٩٥١ - ١٩٦٩)، وخصوصاً التحديث على مستوى المشاركة السياسية والدرجة التى تطورت بها المؤسسات السياسية. وانعكاس ذلك على شرعية واستقرار النظام الملكى فى ليبيا، وما سببته من تغيرات فى البنى الاجتماعية خلال الخمسينيات والستينيات، ودورها فى أزمة الشرعية وعدم الاستقرار التى ميزت النظام الملكى الليبى بالذات فى أواخر الستينيات.

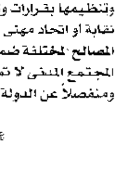
أما الدراسة التى يشير إليها عنوان الكتاب والتى تختص بالمجتمع المدنى، فينتهى المؤلف منها بعدة استخلاصات، أن الأحزاب السياسية محظورة منذ السنوات الأولى لثورة الفاتح من سبتمبر، وقد اعتبر القانون تكوين الأحزاب السياسية جريمة ضد الثورة وحدد الشعب عقوبتها الإعدام، إن النقابات والاتحادات والروابط المهنية فى ليبيا غير تنافسية، وأنها يتم حلها وخلقها وتنظيمها بقرارات ولوائح رسمية، وأن كل نقابة أو اتحاد مهنى يحتكر عملية تمثيل المصالح المختلفة ضمن فئته، وأن منظمات المجتمع المدنى لا تمثل مجالاً مستقلاً ومنفصلاً عن الدولة.

*

حامد ندا.. رائد السريالية الشعبية

إيناس حسنى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ١٨٦ صفحة



عرف الفنان الكبير حامد ندا (١٩٢٤ - ١٩٩٠) بوصفه فنان السريالية الشعبية. وربما كانت نشأته فى بيئة دينية، حيث كان أبوه مشرفاً على أحد المساجد بحى السيدة زينب، وكذلك مولده بحى القلعة أعرق أحياء القاهرة، وقضائه سنوات الصبا والشباب بقصر جده بحى البغالة، واستماعه إلى حواديت العجائز اللائى كن يتوافدن إلى المنزل ليحكين لأمه حكايات حمام السعد والديك والخمس فرخات، وغيرها مما أثرى خياله، كان لذلك كله أثر كبير فى تكوينه الأولى وتشكيل خياله الذى استلهم هذه الحكايات فى لوحات ذات طبيعة سريالية مميزة فيما بعد، طبعت أسلوبه الفنى حتى النهاية بين رفقائه من جماعة الفن المعاصر، التى ضمت أيضاً حسين يوسف أمين وعبدالهادى الجزار، ويلاحظ النقاد أن أهم الموتيفات التى استخدمها ندا كانت هى أفراد الفرقة الشعبية: الطبال، الزمار، النحاسيات، البيانولا، قلة السبوع، الزير، المقاهى الشعبية الخشبية، المجاذيب، وغيرها. وهو لم ينقل عالم الاحتفالات الشعبية بما ينطوى عليه من هذه الموتيفات نقلاً حرفياً، لكنه صنع منه نسيجاً خاصاً كيفما قادته حريته فى التعبير، وبدت لوحاته فى النهاية مثل جدار قديم رسمت عليه الموتيفات متناثرة ومتآكلة بفعل الزمن. تتابع المؤلفة مسيرة حياة ندا الأكاديمية والعملية، وسفره إلى إسبانيا فى عام ١٩٦٠ لدراسة التصوير الجدارى والتصميمات، وتأثره بفنون البدائيين، واقترابه من خصائص الفن الفرعونى بعد سنة أمضاها فى الأقصر زار خلالها المعابد وعاش بين ملوك الفراعنة وجدارياتهم فى المعابد، ثم التأثيرات الأدبية التى ساهمت فى تشكيل وعيه الثقافى، خصوصاً عبر الجمعية الأدبية المصرية التى ضمت طه حسين وسهير القلماوى وعزالدين إسماعيل وصلاح عبدالصبور.

*

فى حضرة الغياب

محمود درويش

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦



جديد محمود درويش أنه ليس ديوان شعر، وقراء الشاعر الكثر على امتداد الوطن العربى الذين طالما اختلفوا وسألوا: شعراً نقرأ أم نثراً، ربما يجدون الجواب فى هذا الكتاب وربما يزدادون حيرة معه:

النثر جار الشعر ونزهة الشاعر/

الشاعر هو الحائر بين النثر والشعر/

هذا فى الشكل، أما المضمون فلا يحد فى كلمات: غياب وحضور ورحيل ومنفى وموج وأغنية.. وشعر ونثر.. إلخ.

ومن الكتاب نقتطف:

هناك، عرفت من آثار النكبة المدمرة ما سيدفعك إلى كراهية النصف الثانى من الطفولة. فإن كنزة صوف واحدة، منتهية الصلاحية، لا تكفى لعقد صداقة مع الشتاء. ستبحث عن الدفء فى الرواية، وستهرب مما أنت فيه إلى عالم متخيل مكتوب بحبر على ورق. أما الأغانى، فلن تسمعها إلا من راديو الجيران. وأما الأحلام فلن تجد متسعاً لها فى بيت طينى، مبنى على عجل كقن دجاج، يحشر فيه سبعة حالمين: لا أحد منهم ينادى الآخر باسمه منذ صار الاسم رقماً. الكلام إشارات يابسة تتبادلونها فى الضرورات القصوى، كأن يغمى عليك من سوء التغذية، فتداوى بزيت السمك.. هبة العالم المتمدن لمن أخرجوا من ديارهم. تشربه مكرهاً كما تكره الألم على إخفاء صوته فى ادعاء الرضا.

*

تاريخ الجامعات المصرية

عبدالمنعم الجميعى

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦، ٣٢١صفحة



كان أول من اقترح إنشاء جامعة فى مصر هو جورجى زيدان، الذى ولد فى بيروت عام ١٨٦١ واستقر فى مصر ١٨٩٢، حيث أصدر مجلة الهلال، وتوفى فى يوليو ١٩١٤، إذ كتب فى مجلته مقترحاً إنشاء كلية لتثقيف الشبان المصريين بدلاً من إرسالهم للتعليم فى أوروبا، وبين الحاجة إلى تعليم الشعب المصرى معنى الحرية والاستقلال، كما طالب بتشكيل لجنة لجمع الأموال لهذا الغرض. غير أن الدعوة إلى إنشاء جامعة مصرية لم يكتب لها الذيوع إلا حين تلقفها الزعيم المصرى مصطفى كامل وبدأ يدعو لها على صفحات جريدة اللواء بدءاً من أكتوبر ١٩٠٤، وسعى إلى استنهاض همم الأمراء والأغنياء للاكتتاب لهذا الغرض، غير أن المشروع توقف بسبب معارضة الخديو له، إلا أن الدعوة لإنشاء الجامعة تجددت بعد ذلك وصارت مطلباً قومياً، وتبناها عدد من المصلحين الكبار وعلى رأسهم الإمام محمد عبده وآزرها تلاميذه وعلى رأسهم سعد زغلول، حيث قرروا تشكيل لجنة لجمع التبرعات بدأت أعمالها فى أكتوبر ١٩٠٦، وكانت هذه هى البداية التى تولدت عنها الجامعة المصرية.

المؤرخ الدكتور عبدالمنعم الجميعى يتابع إنشاء الجامعات المصرية من خلال عدد كبير من الوثائق أهمها وثائق الجامعة المصرية القديمة ثم الجامعة المصرية الحكومية ثم جامعة فؤاد الأول، فوثائق جامعة القاهرة وجامعات الإسكندرية وأسيوط وعين شمس والجامعات الإقليمية.

*

زكريا الحجاوى.. موال الشجن فى عشق الوطن

يوسف الشريف

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٨٥صفحة



رحل زكريا الحجاوى عن دنيانا فى ١٩٧٥، وهو وإن كان أديباً وناقداً وواحداً من ظرفاء وكتاب عصره المرموقين، إلا أن جهده الرئيسى الذى تميز به عن رفقائه، كان سعيه إلى جمع المأثور الشعبى من حكايات وقصص وأساطير ومواويل من جميع أنحاء مصر، فجاب قراها ونجوعها ومدنها من أقصاها إلى أقصاها، كى يجمع هذا المأثور، واعتبر أن هذه هى رسالته الكبرى: حفظ الذاكرة الشعبية.

كان الحجاوى مثقفاً موسوعياً على دراية واسعة بجماليات اللغة العربية، وقد لفت النظر إليه حين قدم أوبريت «يا ليل يا عين»، بأصوات جديدة قوية باهرة وبأزياء شعبية تميز المناطق التى استقى منها مادة الأوبريت، ويشير المؤلف إلى تأثير النشأة على مسار الحجاوى، فقد ولد فى «المطرية» ببحيرة المنزلة التى اشتهر أهلها بالصيد والغناوى المصاحبة لهذه المهنة ذات المواصفات الخاصة، ثم تأثير فنان الشعب سيد درويش على عشق الحجاوى للموسيقى والفنون عموماً، وانجذابه بشكل خاص إلى الموسيقى ذات الينابيع الشعبية، وكذلك التأثير الكبير للمداحين بما يشيعونه من جو صوفى وما يطرحونه على أسماع جمهور مستمعيهم من تواشيح وأدعية، وسرد منغم لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومعاشرته لهم ومعرفته الدقيقة بتفاصيل حياتهم. ثم كان تلقيه لدروس العلم الأولى فى مدينة بورسعيد بما تحمله من سمات فريدة، ثم التحاقه أثناء الدراسة بمدرسة إيطالية حرة لتعليم الموسيقى، وفيها تعلم العزف على البيانو وكتابة النوتة الموسيقية، وانتقاله بعد ذلك إلى القاهرة، حيث درس فى مدرسة الفنون والصناعات الملكية، وفى العاصمة تفتح وعيه على ثقافات وشواغل سياسية وفنية شتى، وبدأ تردده على المسارح وصالات المنوعات ليضيف روافد جديدة إلى ثقافته الفنية والموسيقية.

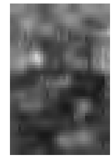
الكتاب إلى ما يضمه من سيرة زكريا

الحجاوي، يتضمن عشرات المواقف والرؤى والحكايات التي تشير إلى شخوص آخرين من علامات ذلك الزمان، ممن كان لهم تأثير كبير على مسيرة الثقافة المصرية والعربية، ومازالت آثارهم باقية إلى اليوم، فضلاً عن عشرات المواقف الفكاهية التي امتاز بها ظرفاء ذلك الزمان.

❊

اليابان في المستنقع العراقي

محمد إبراهيم الدسوقي
القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٦، ١٦١صفحة



اختارت اليابان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥ أن تعيش في سلام، وارتضت نزع أنيابها العسكرية، وأدرك قادتها العسكريون أن القوة العسكرية لبلدهم يمكن أن تتحقق بتقوية الاقتصاد وبتحقيق طفرات متلاحقة في التقدم التكنولوجي والعلمي وليس بما يمتلكه من أسلحة دمار شامل، خصوصاً أنها كانت الدولة الوحيدة التي جربت القنبلة النووية حيث ألقيت عليها قنبلتان دمرتا مدينتي هيروشيما ونجازاكي في نهاية الحرب العالمية الثانية لإجبارها على التسليم.

وقد فوجئت الشعوب العربية قبل السلطات، بانضمام اليابان إلى قوات التحالف الغربية التي غزت العراق لخلع صدام حسين.

يبدأ المؤلف في كشف التغيرات والتحولات الجوهرية في السياسة الخارجية اليابانية على مدى الخمسة عشر عاماً الماضية، وكيف كانت حاسمة في تجاوزها لعقود طويلة من التردد الذي ميز أداءها وأبقاها دائماً ممسكة بالعصا من المنتصف، والدور الذي لعبته هجمات الحادي عشر من سبتمبر في التسريع بهذه التحولات، ثم كيف أفصحت عن نفسها كقوة عسكرية عملاقة في عالمنا المعاصر، ثم يعرض في الفصل الثاني للعلاقات بين اليابان ودول الشرق الأوسط، ثم تنامي علاقاتها بإسرائيل اقتصادياً وسياسياً، خصوصاً بعد توقيع اتفاقات سلام بين إسرائيل وبعض الدول العربية.

وفي الفصل الثالث يبحث المؤلف في جذور العلاقة بين اليابان والعراق، ويكشف كيف كان البترول عاملاً حاسماً في القرار الياباني بالمشاركة في قوة التحالف التي غزت العراق، ليحرسوا نصيب طوكيو من كعكة البترول العراقية.

❊

تيسير علم المعاني

حلمي محمد القاعود
الرياض: دار النشر الدولي، ٢٠٠٦، ٢٨٦صفحة



دراسة تقترب من الغايات البلاغية بوصفها جوهر علم المعاني، يقدم من خلالها المؤلف أمثلة عديدة من الدراسات القديمة والحديثة، وهو يبدأ بالحديث عن الفصاحة والبلاغة، والأولى تطلق على معان كثيرة أبرزها البيان والظهور، يقول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء وبان النور، وأفصح الغلام في منطقه إذا بان وظهر كلامه، وأما الفصاحة في المصطلح فتعني الكلام الذي تتوفر فيه شروط الفصاحة ويخلو من العيوب التي أشار إليها علماء البلاغة الذين يعرفون علم البلاغة بأنه مطابقة الكلام لمقتضى الحال، إلا أن علم المعاني يختص بما يميزه عن علمي البيان والبديع.

وفي هذا الإطار يقدم المؤلف تعريفات لعلم البلاغة لعديد من النقاد وعلماء اللغة القدماء، أبرزها تعريفان للخطيب القزويني الذي يرى أن علم المعاني هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.

وتعريف السكاكي الذي يرى أن علم المعاني هو: تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليتحرز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره.

على هذا المنوال يدرس المؤلف وهو أكاديمي متخصص - علم المعاني، ويقدم أحد عشر فصلاً في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والقصر والتخصيص والإنشاء والفصل والوصل والمساواة والإيجاز والإطناب وغيرها.

❊

أساسيات الجيولوجيا التاريخية

عبدالحليم هويدي - محمد أحمد هيكل
القاهرة: مكتبة الدار العربية، نهضة مصر، ٢٠٠٦، ٥٨٠ صفحة



يدرس الكتاب قصة كوكب الأرض منذ أن خلقها الله قبل ٤٦٠٠ مليون سنة حتى الآن، ويشتمل على التغيرات التي تحدث في القشرة الأرضية وعلى سطحها الخارجي وفي غلافها الجوي، وكذلك الحياة التي عاشت عليها.

ويرى المؤلفان أنه إذا كان التسجيل البشري هو السبيل لمعرفة تاريخ الإنسانية خلال الحقبة التاريخية تعني بحقبة ما قبل التاريخ، والتي تشمل بقية تاريخ الأرض. وتعتمد تلك الحقبة الطويلة في قراءتها ليس على المدونات المكتوبة، وإنما على ما سجل على وجه صخور وطبقات القشرة الأرضية من أحداث متتالية. ويتوجب على دارس تاريخ الأرض أن يضع الترتيب الزمني للأحداث الجيولوجية المختلفة، قبل أن يفكر في الأسباب الحقيقية لتلك الأحداث.

ويتكون الكتاب من سبعة عشر فصلاً، تتناول ديناميكية عمل الأرض وتصنيف الكائنات الحية، وتطور الحياة على الأرض، وعمر الصخور والزمن المطلق وطرق قياسه، وأصل الأرض والحياة، وتاريخ الثدييات حتى ظهور الإنسان.

❊

الأمن القومي الفلسطيني

حسين آغا - أحمد سامح الخالدي
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٦، ١٢٩ صفحة



يواجه الفلسطينيون مع مطلع كل شمس اختباراً جديداً للحياة ومعناها، فهم لم يتمكنوا من تأسيس دولة مستقلة، كما أنهم ليسوا حركة تحرر وطني بالمعنى الحقيقي للكلمة. ومن هنا تبرز أهمية بلورة هيكل عام للأمن القومي الفلسطيني كأداة لترتيب الأولويات الاستراتيجية والسياسية الفلسطينية، ومعبراً في الوقت نفسه عن حاجات الفلسطينيين إلى الأمن ومساعدتهم إلى بلوغ أهدافهم. وعقيدة الأمن الفلسطيني على هذا النحو ينبغي أن تكون مرتبطة بالواقع الذي يواجهه الفلسطينيون حاضراً ومستقبلاً، ولا يخفي الباحثان وجود بعض المشاكل المنهجية التي تؤثر في مسار بحثهم عن الأمن القومي الفلسطيني، ومنها غياب صفة الدولة والذي يمكنها من وضع أولويات لأمنها القومي وفقاً لرؤى واضحة محددة.

يتضمن الكتاب أربعة فصول وعدداً من الملاحق والوثائق والخرائط.

❊

في حضرة محمد عودة

محمد بدراندين (المحرر)
القاهرة: منتدى محمد عودة، ٢٠٠٧، ٢٣٥صفحة



يمثل محمد عودة واحداً من جيل الآباء في الصحافة المصرية، خصوصاً في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو نموذج للمهنة الرفيعة والارتباط الشديد بالآمال الوطنية للمصريين.

كان عودة الذي رحل عن عمر يناهز التسعين محباً مؤمناً بحق أمته في حياة كريمة، كان مفتوناً بثورة يوليو ١٩٥٢، مدركاً مع ذلك لأخطائها وعثراتها، لكنه بمحبة صادقة سعى إلى التقويم.

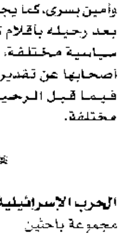
وحين اشتد الهجوم من قبل البعض على الثورة وتوجهاتها، كان عودة هو أول المدافعين عن هذه المبادئ والتوجهات، وهكذا رد على كتاب توفيق الحكيم «عودة الوعي» بكتابه «الوعي المفقود» كما كتب «ميلاد ثورة»، وهذا الافتراء على الناصرية».

الكتاب يضم شهادات كُتبت خصيصاً ليتضمنها كتاب تذكاري عن الكاتب الراحل بأقلام جلال أمين وطارق البشري وأمين يسري، كما يجمع ما كُتب عن عودة بعد رحيله بأقلام كتاب من اتجاهات سياسية مختلفة، وكتابات عبر فيها أصحابها عن تقديرهم لكتاباته وكتبه فيما قبل الرحيل وفي مناسبات مختلفة.

❊

الحرب الإسرائيلية على لبنان

مجموعة باحثين
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٤٥٦ صفحة



لم يكن حدث العدوان الإسرائيلي على لبنان في ١٤ أغسطس ٢٠٠٦ حدثاً عسكرياً وسياسياً عادياً في مجرى يوميات الصراع في المنطقة، كان حرباً مدمرة، ولكن ليس كالحروب السابقة في النتائج وإن شابهتها في الأهوال.. ففي النتائج، بدت حرباً عالية الكلفة بالنسبة إلى إسرائيل، كلفتها خسائر بشرية في جندها

والمستوطنين لم تكن قد ألفتها في حروبها السابقة مع العرب أجمعين. وكلفتها هيبة عسكريتها التي مرغها أبطال المقاومة.. وكلفتها «أمنها القومي» الذي استباحته صواريخ المقاومة وهزته بعمق.

أما لبنان فقد فقد قرابة الألف وثلاثمائة شهيد، وأصابه دمار المساكن والبنى والمقدرات، وتهجر قسرياً حوالي مليون لبناني من أبناء الجنوب والبقاع والضاحية، وفرض عليه قرار دولي مجحف (القرار ١٧٠١) لم يترجم ما حققته المقاومة من نصر في الميدان، بل أعطى إسرائيل سياسياً بعض ما لم تقو على انتزاعه عسكرياً.

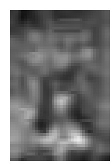
أمام هذا الحدث أعد مركز دراسات الوحدة العربية ندوة دراسية بعنوان: «الحرب الإسرائيلية على لبنان: التداعيات اللبنانية والإسرائيلية وتأثيراتها العربية والإقليمية والدولية»، عقدها في بيروت في نهاية أغسطس الماضي، شارك فيها ستون من الباحثين والمعقبين والمناقشين، وكانت حتى صدور هذا الكتاب الذي يضم كل وقائعها هي الندوة الوحيدة في الوطن العربي التي تناولت هذا الحدث بالبحث العلمي.

❊

من سيرة الهر المنزلي

لقمان ديركي

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦



مجموعة قصص قصيرة، تمثل مشاهد واقعية حضرها الكاتب وعاينها وشارك في أحداث معظمها. القصص فيها الكثير من الواقعية وأسماء الأشخاص والأحياء والمدن، نقلها إلينا بأسلوب ساخر ولسان لاذع، عبر مشاهد كاريكاتورية كثيراً ما تنتزع الضحكة من القارئ وإن كان يضيع أحياناً بين الجد والهزل والقسوة والفكاهة والنقد والدعابة.. والواقعية والخيال.

نقرأ:

وكان الأستاذ يختبئ مع الأنسة ربما بين الأشجار، وعندما كانا يظهران كان فم الأنسة ربما يصبح أحمر مثل جمر أركيلة الشيخ خضر.

ثم قال لنا الأستاذ: «لا تسبحوا في النهر لأن فيه برامات، وسبح هو والأنسات واصدقاؤه.

❊

إميل حبيبي: الوهم والحقيقة (دراسة في النقد الثقافي)

خضر محجز

دمشق، بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٤٤٢صفحة



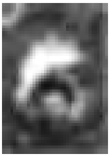
يتعامل هذا المؤلف المهم مع مسألة حساسة للغاية في الساحة الفلسطينية ألا وهي موضوع الأديب الفلسطيني الراحل إميل حبيبي الذي حاز على (جائزة الإبداع الإسرائيلية) في عام (١٩٩٥م) وتسلمها من رئيس وزراء الكيان الصهيوني حينئذ اسحق شامير. وهو إذ يبحث في كل جوانب شخصية الأديب ومواقفه السياسية، يحاول الوصول إلى إجابة عن بعض الأسئلة المهمة المرتبطة به وبمؤلفاته الأدبية، وعلى نحو خاص، ثلاثية المتشائل، وسبب تأثيرها الإيجابي في الساحة الأدبية العربية مع ما تحمله من رسائل خطرة إلى المتلقي. وقد خلص الكاتب إلى:

لماذا أحببنا «المتشائل» بعد كل ما علمناه عنه؟. لقد قرأنا الرواية وتعاطفنا مع البطل المهشم ومنحنا لإميل حبيبي جوائزنا وإعجابنا. فلماذا الآن نقول فيه ما نقول؟. وقد أجاب البحث على هذا السؤال الأهم، بأننا أحببنا الصنعة، ولكننا لم نحب المصنوع. وعندما التبس الأمر على الصانع، وتماهى في المصنوع، كرهناه. لقد أحببنا الجمال في لوحة ترسم كيف يسيطر القبح على أرواح بعض الناس، ويحولهم إلى أعداء لأنفسهم، ولم نحب أبداً هؤلاء البعض، ولم نتمن أن نكون مثلهم، مهما تقلبت بنا الأيام. وقد أرجع الباحث سبب ذلك إلى فعل النسق المتجذر في تاريخ التلقي العربي للأدب، ذلك النسق الذي ظل محكوماً بالنزعة الجمالية، التي صرفته عن قراءة الأدب، باعتباره درساً إنسانياً عظيماً، وألهته من ثم عن فضح تأثيراته السلبية، على مجمل الوعي العربي، حيث تكرس الفصل المبكر بين المحتوى الفلسفي الأخلاقي للشعر والأدب، والبلاغة اللغوية، التي سُمح لها بأن تقول ما تشاء، ما دام قولها محروساً بالجمال التصويري.

ويعرف الكاتب بنفسه على النحو الآتي: ولدت في خيمة من خيام الأمم المتحدة في (مخيم الشوا) بمدينة غزة، لأبوين مهاجرين من جنوبي فلسطين. ناشط سياسي سابق، وغير مؤمن بالعولمة، ولا بالحداثة، ولا بالماركسية، ولا بالليبرالية، ولا بالإسلام السياسي، ولا بالشورى على طريقة حماس.

❊

يوميات العدوان الإسرائيلي على لبنان



الوعد الصادق

يوميات الحرب السادسة

محمد حسين بزي

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٨١٦صفحة

إن للحرب قوانينها الخاصة ووقتها الخاص وعيش هذا الوقت يختلف عن عيش سواه من الأوقات بطريقة جذرية، وذلك على كافة مستويات المعاش، ولعل الشاعر العربي أفصح عن هذه الحقيقة في عيش زمن الحرب قبل غيره من علماء السياسة والاجتماع والنفس وكذلك المؤرخين بقوله المأثور:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم　　وليست هي بالحديث المرجم

الحرب في هذا العلم والذوق بالمعنى الذي يعطي للذوق كحاسة بعيدة الأثر، إن الذوق ملكة حسية وملكة عقلية وقلبية والذاق بالحس كما في النظر والسمع والعقل والقلب وسوى ذلك من أنواع الأحاسيس.

لقد ألحق الشاعر علم الحرب بذوق الحرب وهو أصاب في ذلك إلى درجة كبيرة لا يفقهها إلا الذين علموا الحرب وذاقوا ويلاتها على الحقيقة..

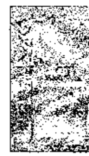
ما الذي تقصده يوميات الحرب، وما هو المنهج الذي اتبعه المحرر في جمع مادتها وتبويبها، وهل هي قادرة على إيصال رسالتها الإعلامية، إلى الناس؟

لم يخلُ يوم واحد من أيام الحرب من العمليات العسكرية في ساحة الميدان المباشر على ثغور الجنوب، الأرض المقدسة عند أهلها والتي بارك الله من حولها، وجارة فلسطين وثغر من ثغور المسلمين والخاصرة العلمية الثقافية الأدبية الاجتماعية، الاقتصادية أرض جبل عامل، موطن أبي ذر الغفاري، والشهيد الأول والشهيد الثاني، والتي مشى في جنازة واحد من علمائها سبعون عالماً ومجتهداً يعلمون الأصول والآداب والأخلاق إلى جانب علوم القرآن والحديث والتصوف والزهد والعرفان والجهاد الأكبر والأصغر، والإيثار والشجاعة والتضحية يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، أرض الصلاة والدرس، جبل عامل حاضرة الإسلام على مذهب أهل الحق، وكل المذاهب، كانت هي الميدان المباشر لهذه الحرب بالعدوانية التي شنها الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين والقدس، والمؤيد من الولايات المتحدة الأمريكية، بالمال والسلاح والسياسة، والإشراق والتوجيه، وربما المباشرة في بعض عمليات القصف الاستراتيجي، عبر الصواريخ الذكية من البوارج الحربية التي تجوب مياه البحر المتوسط، قبالة لبنان، وداخل مياهه الإقليمية.

اليوميات تتضمن الأعمال الحربية، في ثغور الجنوب، في عيتا الشعب وبنت جبيل وعيترون ومارون الراس والطيبة والخيام وصور، ومرجعيون إلى تخوم صيدا وأعالي مرتفعات إقليم التفاح، في هذه المعارك المباشرة للاشتباك بين قوات المشاة والمدرعات وقوات النخبة الخاصة كانت الحرب ذات طابع خاص، في منطقة وسطى بين حرب الغوار، والحرب التقليدية كانت حرباً حقيقية، كما وصفها سماحة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله حرب بين رجال النخبة استطاع فيها مجاهدو المقاومة الإسلامية في لبنان، كسر وحدات نخبة جيش الغزاة الصهاينة، وفي ذلك تنبيه لأمر في غاية الأهمية وهو قدرة الإنسان المؤمن المسلح بالعقيدة، وحب الله والوطن والشعب، والذي أعد نفسه بإتقان وهمة عالية لهذه المواجهات للانتصار والشهادة. إنه ينال في كليهما غايته في الوصول إلى معشوقه الأبدي. إن المجاهد في المقاومة الإسلامية، ومنهم من طلاب الثانويات والجامعات والدراسات العليا ومن العمال والمزارعين والتجار والصناعيين، وطلاب الحوزات العلمية، والمقاتلين في سبيل الله وسبيل الإنسان والحرية والعدالة كانوا قد حصلوا مراتب عالية في تزكية النفس وتحقق لهم النصر المؤزر على العدو، بفضل وعد الله - سبحانه وتعالى - لعبادة العارفين بالنص وصدق وعده - سبحانه وتعالى - كان بالفعل نصيراً إلهياً، بهذا المعنى ومفاده أن الإنسان الذي صنعه، كان مؤمناً بالله، عابداً، عاشقاً، زاهداً يزكي نفسه بالتخلية والتحلية والتجلية، فرسان النهار وعباد الليل، الجامعون لقيم الصلاة والدرس والجهاد شد في عزيمتهم هذا العشق الإلهي، الإنسان يقاتل من أجل من يحب هذه القاعدة، إنسانية عامة، وإذا كان مجاهدو المقاومة، من العاشقين الإلهيين، فإن نصرهم بهذا المعنى هو نصر إلهي، وعليه يستطيع من يفهم من أهل الذوق حقق مجاهدو المقاومة انتصارات تاريخية واستراتيجية : وكان انتصارهم يسجل في صفحات التاريخ يوماً بعد أخر، وفي هذه اليوميات، يجد القارئ المتلقي، ومصادقو هذا الانتصار كما أرخته الصحافة، ورجال الفكر والمؤرخون ووسائل الإعلام الأخرى مجموعة من كتاب، فتكون بدورها، إثباتاً للحقيقة، وتحفيزاً للذاكرة ومحلاً للتبصر والتأمل والدرس والاعتبار.

طراد حمادة

القدس فى العصر الحديدى (١٣٠٠ - ٧٠٠ ق م)
مارجريت شتاينر
ترجمة: رزق الله بطرس، زياد منى
دمشق، بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦



يحوى هذا الكتاب محصلة اكتشافات عالمة الآثار الهولندية، مارجريت شتاينر التى كلفت بإتمام التنقيبات فى منطقة القدس وتقويم النتائج التى وصلت اليها رائدة التنقيب هناك عالمة الآثار الإنجليزية كاثلين كنين فى ستينيات القرن الماضى قبيل سقوط بقية فلسطين «الانتداب» فى قبضة الاحتلال الصهيونى.

وبخصوص النتائج العلمية التى وصلت اليها عالمة الآثار مؤلفة الكتاب، فإنها كتبت: «فى أثناء الحفريات الكثيرة التى جرت فى القدس وحولها، لم يعثر على أى أثر لمدينة محصنة: لا أسوار كبيرة ولا بيوت ولا حتى أى قطع من أوان فخارية سائبة . . يبدو أنه لا يمكننى إلا الاستنتاج أنه لم تقم أى «مدينة» فى القدس فى أثناء فترة (رسائل العمارنة). ومن الناحية الأثرية، لم تكن القدس، ببساطة، مأهولة فى أثناء العصر البرونزى المتأخر. يبدو لى هذا واحداً من الأمثلة الكثيرة التى يبدو فيها أن النصوص (التوراتية، ز م) وعلم الآثار يناقض أحدهما الآخر.

المصادر التاريخية لبداية العصر الحديدى (العصر الحديدى الأول) غير موجودة تقريباً. باستثناء المراجع التوراتية التى لم يكتب معظمها إلا فى وقت لاحق، لكنها غالباً ما تستخدم دليلاً تاريخياً. لذلك تكون الصورة التقليدية للقدس فى هذه الفترة، والتى تقدمها معظم الكتب، هى أنها كانت مدينة صغيرة محصنة جيداً يسكنها اليبوسيون، ومركزاً لدولة مدينة مستقلة . . لكن ما عثر عليه بالواقع يحكى حكاية مختلفة.

وكان وضع القدس فى بداية العصر الحديدى الثانى موضوعاً لكثير من الكتب والمقالات، ومعظمها يصور المستقرة مدينة كبيرة، وغيرها يصورها عكس ذلك . . لكن على أساس تحليل المادة الأثرية . . لم تكن القدس مدينة كبيرة ولا مدينة إقليمية صغيرة . .

واستناداً إلى الدلائل الأثرية يمكن وصف القدس فى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد بأنها مدينة صغيرة محصنة لا يزيد حجمها عن (١٢ هكتارا)، ومن الممكن أنها كانت تتسع لسكنى ألفى نسمة . . لكن يبدو من غير المحتمل أن هذه القدس كانت عاصمة لدولة كبيرة مثل عاصمة «المملكة المتحدة» المذكورة فى النصوص التوراتية».

هذا الكتاب ينقض الرواية التوراتية عن مدينة القدس فى العصور القديمة، ولذا فقد أثار حفيظة الدوائر الأصولية العالمية، وفى الولايات المتحدة والكيان الصهيونى على وجه الخصوص، حيث شنوا على العالمة الهولندية هجمات لم تتوقف ما يوضح عدم براءة أبحاثهم من خلفيات دينية أصولية وسياسية وعصبية.

لكن هذا الكتاب يعد أيضاً مرجعاً رزيناً فى التنقيب الأثرى حيث تبين شروحات المؤلفة أصول البحث الأثرية والتاريخى، ما يجعله مرجعاً علمياً بامتياز.

❊

«القاضى والسلطان»: الأزمة القضائية المصرية
محمد سليم العوا
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٦



بمناسبة مقابلة تلفزيونية حول الكتاب شاركت فيها المؤلف على قناة «العالم» الفضائية وجدت نفسى، وأنا القاضى اللبنانى السابق، أبحث عن الأزمة القضائية التى شهدتها مصر فى الصيف الماضى، ومن خلال هذه الأزمة الولوج إلى عمق التركيبة القضائية، لا بل عمق التركيبة السياسية المصرية فى مناسبة أحداث رافقت الانتخابات التشريعية فى هذا البلد العربى الكبير واحتلت الصفحات البارزة ليس فى الصحافة المصرية فحسب، بل وخصوصا فى الصحافة العربية والدولية، لأنها، أى الأزمة، أبرزت مرة جديدة جدلية السياسة والقضاء، جدلية السلطة وحدودها.

ولعل عنوان الكتاب يشير إلى الصراع التاريخى غير المستجد فى بلدان لم تبلغ أنظمتها بعد حد اعتبارها دولة الحق حيث لا سلطة تعلو على سلطة القاعدة الحقوقية وحيث سلطان القانون من أول تطبيقاته انصياع الدولة إلى القانون لأن سيادة القانون هى أساس الحكم فى الدولة. كما أنه يشير بدقة إلى صراع السلطان مع القاضى بقلم العارف بالسلطان وشئونه وبالقضاء وشجونه.

وبالفعل، يبدو المؤلف فى هذا الكتاب عاكسا بالواقع تعدد المواهب والاختصاصات، فهو، من جهة، المحامى شريك القاضى فى تحقيق العدالة، ونشر الحق، ومن جهة ثانية المثقف ذو البعد العالمى، ولكن، وخصوصا، الفقيه والعالم، وهو من جهة أخيرة الإنسان المحاور الذى يقر بحق الاختلاف ولا يتنازل عن الأساسيات.

أما الكتاب فى ذاته، المقسم إلى تقديم وثلاثة فصول أولها: عرض لأصل القضية المحدد بالإشراف القضائى على الانتخابات، وثانيها: توضيح الواضحات: المحاكمة والحكم، وثالثها: القضاء الى أين: مشروع القانون الجديد، بالإضافة إلى فقرة عما يطرح فيها مشروع القانون المعروض أمام مجلس الشعب والملحق الذى فيه بيان الجمعية العامة لقضاة مصر بتاريخ ٢٠٠٦/٦/٢٣ .

نظرة المؤلف إلى القضاة تستعيد صفات القضاة: الأول فى الدولة الإسلامية، إذ ينظر اليهم بمثابة الأولياء ويتصفون «بهدوء العابدين وزهد أصحاب اليقين وصدق الأبطال المجاهدين».

وهم وفق المؤلف «أغنياء عن الثناء مبرأون من المذمة. فهم، فى تجردهم لإحقاق الحق، لا يجوز تناولهم بالمدح ولا بالقدح». وفيه أيضا دعوة هادئة لإدخال تعديلات على القوانين المتصلة بالسلطة القضائية بما ينسجم وأحكام الدستور ويتيح للقضاء الإشراف على الانتخابات، مع ما يمثل ذلك من ضمانة للناخبين وللديموقراطية والسلام الداخلى. وقد اناط الدستور بالقضاء هذه المهمة.

على أن معنى الإشراف على الانتخابات وفق المؤلف هو إشراف فعلى وليس صوريا باعتبار القضاء «السلطة الأعلى المهيمنة على ما سواها وما دونها»، وهذه السلطة ترتكز على مهمتين اثنتين: ولاية الفصل فى الخصومات، وان أفراد السلطة القضائية محصنون غير قابلين للعزل.

ولعل المواقف التى سرد بعضاً منها تبين حالات تدخل السلطة ومحاولة منع القضاة عن القيام بمهماتهم الاشرافية ومضايقتهم حتى يترددوا فى مواجهة رجال الأمن. ويعتبر المؤلف أن مهمة اصلاح القضاء هى مدخل لما هو أبعد من ذلك، للوصول إلى إصلاح النظام السياسى المصرى. وما نراه وما نسمعه من نقاش عام فى مصر يتصل بهذه الناحية حيث المطالبون باصلاح النظام السياسى يزدادون يوما بعد يوم.

لفتنى فى الكتاب الحس المرهف للمؤلف فى توصيفه للقاضى، وإن كان أحيانا يقسو على تصرفات بعض القضاة. «فالقاضى الذى قضى بالهوى فهو فى النار» وإن كان أحيانا يفرق ما بين هذه الفئة وآخرين «أئمة تجب لهم النصيحة».

فالقاضى الذى يحمل أمانة العدل لا يستطيع أداءها إلا إذا كان مستقلا الاستقلال الحقيقى، المادى والمعنوى، عن سلطات الدولة كافة وعن وسائل الترغيب والترهيب على السواء. القاضى لا يخضع لغير كلمة الحق ولا يسجد لغير الله سبحانه وتعالى ولا يبتغى بعمله كله الا وجهه وحده، كما كتب المستشار زكريا عبد العزيز فى تقديم كتاب القاضى السابق والمستشار المفكر العربى الكبير طارق البشرى أحد مؤسسى الفريق العربى للحوار الاسلامى المسيحى، فى كتابه «القضاء المصرى بين الاستقلال والاحتواء».

نوه العوا باستجابة الحكومة المصرية لبعض مطالب القضاة، وهذه الاستجابة «حسنة تحمد لها».

ظهر المؤلف فى كتابه الغنى بالاحداث والتحليل والعبر، وفيه أيضا استعادة لبعض الاحكام الفقهية ومدى تكييفها مع واقع الحال التشريعية والممارسة القضائية فى مصر. «فالمفسدتان إذا اجتمعتا وجب ارتكاب أهونهما، والشران أو الضرران إن كان لا بد من أحدهما وجب اختيار اهونهما» و«العارف والمعروف لا يعرفان» و«توضيح الواضحات من أصعب المشكلات» و«لا ينسب لساكت قول» و«السكوت لا يفيد حكما» و«ما لا يدرك كله لا يترك جله» كما يقول الإمام الشافعى.

هذا عدا عن تعريفات لمبادئ أساسية فى الدستور كالسلطة «وهى القدرة على التحكم وانفاذ ما يريد صاحبها على الناس» و«الولاية هى إنفاذ القول على الغير» والحرية هى «حق الناس فى الاختيار عن القدرة عليه» وهى حق أصيل وبالفطرة عن الإنسان.

يخلص المؤلف إلى اعتبار الأزمة فى مصر أزمة قضاء وليس أزمة قضاة، وأن هذه الأزمة هى انعكاس للأزمة السياسية التى يدعو إلى معالجتها، وخاصة بالاحتكام مجددا إلى الدستور والغاء القوانين التى تخالف هذا الدستور ووقف عدوان السلطة على القضاء والسعى إلى احتوائها بجعلها وظيفة إدارية وليس سلطة مستقلة.

إنها دعوة صادقة إلى الاصلاح وذلك لمنع الثورة. وعلى كل حال أن انتفاضة القضاة فى مصر وصفت فى أحيان كثيرة بأنها ثورة القضاة. فهلا يتوقف أهل السلطان عند تحرك القضاة؟ ما أحوجنا فى بلادنا العربية إلى مثل هذا التحرك لوقف طغيان السلطة وتحكم السياسة على حساب حقوق المواطنين وحرياتهم.

القاضى عباس الحلبى
رئيس الفريق العربى للحوار الاسلامى - المسيحى

الحرب الإسرائيلية على لبنان

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٤٥٦ صفحة



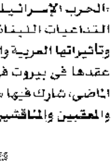
لم يكن حدث العدوان الإسرائيلي على لبنان في ١٤ أغسطس ٢٠٠٦ حدثاً عسكرياً وسياسياً عادياً في مجرى يوميات الصراع في المنطقة، كان حرباً مدمرة، ولكن ليس كالحروب السابقة في النتائج وإن شابهتها في الأهوال.. ففي النتائج، بدت حرباً عالية الكلفة بالنسبة إلى إسرائيل، كلفتها خسائر بشرية في جندها والمستوطنين لم تكن قد ألفتها في حروبها السابقة مع العرب أجمعين، وكلفتها هيبة عسكريتها التي مرغها أبطال المقاومة.. وكلفتها «أمنها القومي» الذي استباحته صواريخ المقاومة وهزته بعمق. أما لبنان فقد قرابة الألف وثلاثمائة شهيد، وأصابه دمار المساكن والبنى والمقدرات، وتهجر قسرياً حوالي مليون لبناني من أبناء الجنوب والبقاع والضاحية، وفرض عليه قرار دولي مجحف (القرار ١٧٠١) لم يترجم ما حققته المقاومة من نصر في الميدان، بل أعطى إسرائيل سياسياً بعض ما لم تقو على انتزاعه عسكرياً.

أمام هذا الحدث أعد مركز دراسات الوحدة العربية ندوة دراسية بعنوان: «الحرب الإسرائيلية على لبنان: التداعيات اللبنانية والإسرائيلية وتأثيراتها العربية والإقليمية والدولية» عقدها في بيروت في نهاية أغسطس الماضي، شارك فيها ستون من الباحثين والمعقبين والمناقشين.

من سيرة الهر المنزلي

لقمان ديركي

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦



مجموعة قصص قصيرة، تمثل مشاهد واقعية حضرها الكاتب وعاينها وشارك في أحداث معظمها. القصص فيها الكثير من الواقعية وأسماء الأشخاص والأحياء والمدن. نقلها إلينا بأسلوب ساخر وبلسان لاذع، عبر مشاهد كاريكاتورية كثيراً ما تنتزع الضحكة من القارئ وإن كان يضيع أحياناً بين الجد والهزل والقسوة والفكاهة والنقد والدعاية.. والواقعية والخيال. نقرأ: وكان الأستاذ يختبئ مع الآنسة ربما بين الأشجار، وعندما كانا يظهران كان فم الآنسة ربما يصبح أحمر مثل جمر أركيلة الشيخ خضر.

لا إكراه في الدين

إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم

د. طه جابر العلواني

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦

١٩٨صفحة



كتاب استغرق إعداده ما يزيد على عقد من الزمان ليجيب عن مجموعة مهمة من التساؤلات الخطيرة!!

منها: هل شرع الله - تعالى - عقوبة دنيوية (والعقوبات في الإسلام مكفرات) هي «القتل حداً» على من يتغير اعتقاده من البشر؟! وهل جاء كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحد أو عقوبة شرعية بقتل من تغير اعتقاده لأي سبب من الأسباب؟! وهل قتل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من ارتد ولم يرتكب شيئاً آخر في مكة أو المدينة طيلة حياته؟! ولم أجاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من اقترح عليه قتل بعض المنافقين الذين تآمروا عليه وآذوه بقوله: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»؟! وهل أجمعت الأمة على وجوب قتل «المرتد أو من تغير اعتقاده» في عصر الإجماع؟! وهل حارب الصديق - رضي الله عنه - «المرتدين» لمجرد كونهم غيروا اعتقاداتهم القلبية، أو لأنهم - إضافة لذلك - قد حملوا السلاح، وحاولوا الخروج على النظام العام، وتدمير وحدة الأمة الناشئة، وتشتيت الجماعة المؤمنة؟! وهل يمكن تحقيق «الاعتقاد القلبي» أي اعتقاداً كان بسيف القهر والإكراه؟!

هذه الأسئلة وكثير غيرها تمثل محاور هذه الدراسة التي هي حلقة من سلسلة دراسات تقوم على مراجعة إشكاليات تراثنا الإسلامي من منطلق الالتزام به والتمسك به، ومراجعته في نور هداية المصدر المنشئ: القرآن المجيد وبيانه الملزم في صحيح السنة النبوية المطهرة باعتبار ذلك أهم مناهج المراجعة والإحياء والبعث والتجديد لتراثنا من داخله.

كتاب الزاوية

حياة الرافعي

أغاني الشعب

لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعي في تأليف الأناشيد، ولم يكتب لنشيد وطني أو طائفي من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعي، فهو بذلك خليق أن نسميه شاعر الأناشيد.

وقد ولع منذ نشأته في الشعر بالأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية، يفتن في نظمها، ويبدع في أوزانها وأساليبها، ففي سنة ١٩٠٣ أخرج من الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة، واشتهر من بينها قطعته (الوطن) التي يقول في مطلعها:

بلادي هواها في لساني وفي دمي
يمجدها قلبي ويدعو لها فمي

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس، يحملهم المعلمون على استظهارها في دروس المحفوظات إلى يومنا هذا، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية. وجاء في هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات: «قد تمت القطع التي نظمت للنشء من تلامذة المدارس، وقال ناظمها: إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرقى، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذي لم يسلكه قبله أحد، فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن يأخذوا بيده في هذا المشروع، حتى لا يغيض ما بقي في ذلك الينبوع».

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغاني، ينشر منها طرفة رائعة في كل جزء من ديوانه، فنشر نشيد الفلاحة المصرية، وأرجوحة سامي، وغيرها، وأشهر أناشيده:

«اسلمي يا مصر» و«إلى العلا إلى العلا بني الوطن» و«حماة الحمى» ولكل نشيد تاريخ.

روايات عربية بالإنجليزية



The AUC Press Book of Modern Arabic Literature

Edited by Denys Johnson- Davies

AUC press, 512PP, 150 LE

من أقصى شمال الوطن العربي إلى أقصى جنوبه، ومن أقصى شرقه إلى أقصى غربه، ثمانون كاتبا لامعا عربيا، من أربع عشرة دولة. تجتمع أعمالهم - التي يتراوح وقت كتابتها من ثلاثينيات القرن العشرين إلى العقد الحالي- بين ضفتي هذا الكتاب الفريد، الذي حرره في أكثر من ٥٠٠ صفحة. وترجم محتواه «دينيس جونسون دافيس» الذي قال عنه ادوارد سعيد «رائد الترجمة إلى العربية في العصر الحالي».

معظم الأعمال بالكتاب كلاسيكية بالدرجة الأولى. وتقريبا نصف كتابه مصريون، مما يعكس خلفية «دافيس» فهو أقام في القاهرة لفترة إبان الأربعينيات. حين كانت بدايته مع ترجمة بعض من القصص القصيرة للكاتب المصري محمود تيمور، ليصل مجموع ما ترجمه إلى أكثر من ٣٠ كتابا في العقود الستة التالية.

كل قصة أو مقتطف من رواية في الكتاب يبدأ بنبذة عن كاتبها والذي يعد في حد ذاته أمرا مثيرا للاهتمام، فكاتب مثل اليمني «محمد عبد الولي» صاحب قصة (يا خبير): ولد بإثيوبيا، وتشرب الماركسية بمصر، ثم درس بروسيا، وعمل كدبلوماسي يمني بموسكو وبرلين، حتى اختلف مع الحكومة اليمنية، مما أدى لسجنه، ثم خرج من السجن ليلقى حتفه في حادث تحطم طائرة، وهو لا يزال في الثالثة والثلاثين من عمره.

يبدأ «ديفيس» الكتاب بمقتطف من رواية الكاتب المصري «إبراهيم عبد المجيد» (لا أحد ينام في الإسكندرية) التي تحكي قصة مدينة الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية عبر سرد للتلامس الحادث بين مصائر مجموعة من الأشخاص العاديين في وقت الحرب، حين تتوحد مخاوفهم وتجاربهم.

ويبحر «ديفيس» في الرواية والقصة العربية، ملتقطا رواية (العلامة) للكاتب المغربي «بن سالم حميش»، ليضع مقتطفات منها توضح الخلفية الإسلامية للرواية التي روج مقتطفها لكون الحب والصلاة توءمين ملتصقين، فالفرد إذا لم يحظ نفسه بواحد منهما، خسر الأخر وخسر الله.

ومن الكتابات المصرية نجد أيضا مقتطفا من رواية (دنجلة) للكاتب المصري «إدريس علي» التي تحكي عن العاصمة النوبية القديمة المفقودة في مياه النيل خلف السد العالي، كما نجد مقتطفا من رواية (عمارة يعقوبيان) لعلاء الأسواني التي جسد فيها المجتمع المصري بطبقاته المتعددة في سكان عمارة بمنطقة وسط البلد، أقدم مناطق القاهرة.

يعود «ديفيس» إلى القصة المغربية مع الكاتبة «ليلى أبو زيد» صاحبة قصة (الساخطون) التي تصور لمحة من موقف يمر بين اثنين عم أحدهما فقير والآخر غني، ثم ينتقل إلى الشرق مع الكاتب السوري «إبراهيم صامويل» وقصته (زميلي المسافر) والكاتبة «غادة السمان» وقصتها (غجرية بلا مرفأ).

كتاب مثل «الطيب صالح» و«بهاء طاهر» و«غسان كنفاني» و«إلياس خوري» و«محمد خضير» و«محمد المخزنجي» و«بثينة الناصري» و«عالية ممدوح» لا يخلو الكتاب من قصص قصيرة لهم ومقتطفات من أعمالهم الروائية.

أيضا هناك مقتطفات من بعض الروائع الأدبية العربية مثل «ليالي ألف ليلة» لنجيب محفوظ، و«يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقي، و«بيت من لحم» ليوسف إدريس، و«الزيني بركات» لجمال الغيطاني، و«ذات» لصنع الله إبراهيم.

※

Life's Wisdom

(حكمة الحياة)



Naguib Mahfouz

Edited by Aleya Serour

AUC Press, 136PP, 75 LE

نجيب محفوظ، الحاصل على جائزة نوبل في الأدب عام (١٩٨٨)، والذي أمضى سبعين ربيعا من عمره متخذا الكتابة عملا له، ليترك ما يقرب من خمسين مؤلفا بين روايات ومجموعات قصصية.

طفولته التي أمضاها في حي الجمالية، وتنقله بين أحياء العباسية والحسين والغورية، وكلها أحياء مصرية شعبية، ودراسته للفلسفة، وعمله النظامي بالحكومة بمجال السينما، كلها أشياء أثرت في بصيرته وبالقطع في أعماله فأضفت عليها طابعا فلسفيا، وجعلتها مليئة بحكم الحياة.

«علية سرور» تجمع مجموعة من الاقتباسات الحكيمة والمعبرة، التي اختارتها من أعمال محفوظ الأدبية، لتبحر بالقارئ في الحياة ناقلة له الحكمة من كلمات نجيب محفوظ المليئة بالحكم الحياتية المختلفة المواضيع والاتجاهات، والتي منها حكم عن (الطفولة والشباب، والحب والزواج، والحياة والموت، والآخرة والروح والخلود).

※



The Lodging House

(وكالة عطية)

Khairy Shalaby

Translated by Farouk Abdel Wahab

AUC Press, 480PP, 90 LE

الرواية الحاصلة على جائزة نجيب محفوظ الممنوحة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة لعام ٢٠٠٣ للكاتب «خيري شلبي»، وهي الرواية التي تجسد الأبعاد الملحمية للعالم السفلي، الذي تسكنه العديد من الشخصيات المهمشة في المجتمع وإن كانت حياتهم تعد بحق نوعا من الغرائب والأساطير.

الرواية تحكي على لسان بطلها - الراوي الذي يظل مجهول الاسم طوال الرواية - الذي يفشل في دراسته بعد طرده من معهد المعلمين نتيجة مهاجمته لأحد أساتذته الذي يمارس التمييز والعنصرية ضده نظرا لفقره، وبعد طرده ولحاجته للمال، يبدأ بطل الرواية في الهبوط تدريجيا إلى عالم الجريمة السفلي، إلى أن يصل في نهاية رحلته إلى وكالة عطية، ذلك المبنى الأثري العتيق الذي تحول إلى مأوى للمشردين والأشقياء الذين يعيشون حياة مهمشة لا تختلف كثيرا عن حياة البطل.

خيري شلبي هو كاتب وروائي مصري، ألف ما يقرب من سبعين كتابا، ويطلق عليه «رائد الفانتازيا التاريخية في الرواية العربية المعاصرة»، حولت بعض أعماله إلى أعمال درامية، كمسلسل الوتد، الذي يعد من أشهر أعماله، بالإضافة إلى ثلاثية الأماني ورواية زهرة الخشخاش.

※



The Loved Ones

(المحبوبات)

Alia Mamdouh

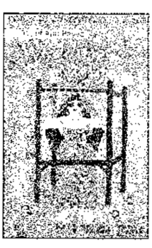
Translated by Marilyn Booth

AUC Press, 288PP, 90 LE

الرواية السابعة لمؤلفتها العراقية «علية ممدوح» الحاصلة على ليسانس علم النفس من بغداد، والمستقرة حاليا بباريس بعد رحلة طويلة قاربت العشرين عاما مع المنافي العربية والأوروبية، وهي الرواية التي حصلت على جائزة نجيب محفوظ الممنوحة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة لعام ٢٠٠٤. انتهت علية من كتابة روايتها عام ٢٠٠٢، وتدور أحداثها بين فرنسا وكندا، عن حكاية امرأة عراقية، ادت ظروف بلدها الصعبة إلى هجرتها هي وابنها الصغير إلى فرنسا، لتصبح في منفى اختياري لها ولابنها، الذي يكبر ويصبح رجلا بمرور أحداث الرواية، ليهاجر بدوره إلى كندا تاركا أمه بباريس. فراق الوطن والابن، لا يعوضهما شيء، ولكن الصديقات يهون من أثر ذلك في نفسها. فالغربة والحنين إلى الوطن يجمعها معهن في تيار واحد.

تدخل «سهيلة» إلى المستشفى في غيبوبة تامة، فيعود على أثرها ابنها إلى باريس، ليجلس بجوار جسد والدته المسجى يتذكر تفاصيل حياتهما، لتدور معظم الأحداث على لسانه.

※



Wedding Night

(ليلة الزفاف)

Yusuf Abu Rayya

Translated by R. Neil Hewison

AUC Press, 144PP, 80 LE

في نقد جريء للحياة المصرية المعاصرة، ونقل متقن لكل جوانب الحياة في إحدى البلدات الصغيرة لدلتا مصر، يقدم لنا «يوسف أبو ريه» روايته ليلة الزفاف، الحائزة على جائزة نجيب محفوظ الممنوحة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة لعام ٢٠٠٥. الكاتب «يوسف أبو ريه»

مصـرى وله سـت مجمـوعات من القصص القصيرة وخمس روايات، وعدة كتب للأطفال.

فى قرية صغيرة بدلتا مصر، يعيش حوده الأصم الأبكم، والذى يعمل كصبى جزار مبتدئ.

وبالرغم من صممه وبكمه، إلا أنه يكتشف العديد من الأسرار فى بلدته الصغيرة، وهو يكشف تلك الأسرار بلغته المتمثلة فى الإشارات.

ويحكى عن المحظور والمخفى فى مدينته، وليزعزع هدوءها الظاهر لكونها مجتمعا ريفيا، ولكن تلك الرغبة العارمة التى تعتريه بفضح مجتمعه، يعدها أهل البلدة خروجا على التقاليد.

حينما يعلم الجزار صاحب المحل الذى يعمل فيه حوده بانتهاكه لحرمة منزلة وفضح أسراره، يستعين بالشيخ سعدون الصوفى المدّعى، ليساعده فى وضع خطة تجعل من حوده موضع سخرية لأهل البلدة جميعا.

*



Muntuha

(منتهى)

Hala El Badry

Translated by Nancy Roberts

AUC Press, 272PP, 90 LE

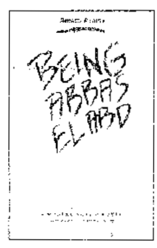
فى أواخر الأربعينيات من القرن الماضى، تلك الفترة المؤثرة فى التاريخ المصرى التى شهدت حرب ١٩٤٨ والسنوات الأخيرة من الوجود الإنجليزى فى مصر، وجد أهالى قرية «منتهى» أنفسهم فى دوامة الأحداث العالمية رغما عنهم، واختفت منهم حياتهم الهادئة التى طالما ألفوها وأحبوها.

الرواية مليئة بالتفاصيل الدقيقة عن الحياة الريفية، والمحيط الطبيعى الذى يحيط بها: من صيد السمك وحصد القطن.

كما أبدعت الكاتبة فى وصف الاحتلال وآثاره على القرية المصرية البسيطة، ومقاومتهم الباسلة للاحتلال.

الكاتبة هالة البدرى مدير تحرير مجلة الإذاعة والتلفزيون، وصاحبة أربع روايات، والحاصلة على جائزة أفضل رواية بمعرض القاهرة للكتاب (٢٠٠١).

*



Being Abbas el Abd

(أن تكون عباس العبد)

Ahmed Alaidy

Translated by Humphrey Davies

AUC Press, 144PP, 70 LE

فى رواية قالت عنها «الديلى ستار» بأنها «بصيص من الأمل لعصر نهضة حقيقى للقصة»، يقدم «أحمد العايدى» الكاتب الساخر، الذى يكتب لصحيفة الدستور المصرية رسوما كاريكاتيرية سياسية، روايته الأولى (أن تكون عباس العبد).

الرواية تُحكى على لسان صديق لعباس العبد بطل الرواية، الذى لا تروق له حياة عباس، فيتهكم عليها، بل ويتمرد عليها فى بعض الأحيان ويحاول الانتقام من طريقة حياة عباس عن طريق الذهاب بدلا منه لملاقاة فتاتين كان يحاول عباس استدراجهما.

نجح العايدى فى تجسيد حالة الشباب المصرى المهمش فى بلده بشكل متقن وبارع، ناقلا حالة الاغتراب أو الفصام التى يعيشها هذا الجيل.

فعباس والراوى، شخصان داسهما قطار البطالة، وعاشا كل مساوئ المجتمع المصرى، وطالهما الفصام والاغتراب، حتى أصبحوا لا يكترثون لشىء، فهم كما قيل على لسان راوى القصة (إحنا جيل ماعندناش حاجة نخسرها).

*

كتاب الزاوية

حياة الرافعى

على السفود

إن الخصومة العنيفة بين الرافعى والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذى بدأت فيه، ومحورها الذى كانت تدور عليه، إلى ميادين أخرى جعلت كلا من الأديبين الكبيرين ينسى مكانه ويغفل أدبه ليلغ فى عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمم أو يرى فى ذلك معابة عليه. وكان البادئ بإعلان هذه الحرب هو الرافعى فى مقالاته على السفود.

وكان بدء هذه المعركة هو ذلك الحديث الذى دار بين الرافعى والعقاد فى دار المقتطف، حول حقيقة إعجاز القرآن، وكتاب إعجاز القرآن. وكان للعقاد فيهما رأى غير رأى الرافعى، فكانت غضبة الرافعى الأولى لكرامة القرآن والعقاد ينكر إعجازه، ولكتابه والعقاد يجحد فضله، ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التى رماه بها العقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونحله منه فى تقريظ إعجاز القرآن، ليروج عند الشعب.

ولكن كتاب «على السفود» مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل فى هذا الخلاف، فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد، ثم عن أشياء خاصة تعترض فى فضول القول وحشو الكلام، فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب الخصام؟ الرافعى يقول: هذا أسلوب من الرد قصدت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه، حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية فى الأدب عند قراء العربية، لا تراهم يستمعون لرأيه عندما يهم بالحديث عن إعجاز القرآن. وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية فى فكره، ولا يستقيم بيانها على لسانه؟.. هكذا يقول الرافعى!

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء.

The Best Life Diet

(أفضل حمية غذائية)

Bob Greene

Simon & Schuster, $26.00, 304PP, 2007



بعد أن ساعد المذيعة الشهيرة «أوبرا» على التخلص من وزنها الزائد، يحاول «بوب جرين» مساعدتك أنت أيضا في تخفيض وزنك والمحافظة عليه مثاليا، بأقل جهد ممكن وأقل قيود ممكنة. فمع هذا الكتاب تستطيع أن تأكل طعامك الشهي كما تحب، وتعيش حياتك كما ترضاها. فباستخدام هذا الكتاب، تستطيع الحصول على خبير تغذية معك دائما، يساعدك أن تعيش حياة أفضل وبصحة جيدة.

يعترف «جرين» أن عملية تخفيف الوزن صعبة للغاية، فكثير ممن حاولوا تخفيض وزنهم نجحوا، ولكن لم يدم نجاحهم طويلا، فسرعان ما زادت أوزانهم ثانية في فترة قصيرة. لذا فيحاول «جرين» أن يكون واقعيا في كتابه واضعا خططا مريحة طويلة المدى تؤدي إلى نتائج باهرة.

من خلال الكتاب تستطيع، بالإضافة إلى معرفة أفضل أساليب الحمية الغذائية، معرفة وصفات مذهلة للعديد من الأطعمة المغذية اللذيذة التي تناسب حميتك الغذائية.

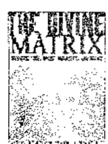
※

The Divine Matrix

(المصفوفة المقدسة)

Gregg Braden

Hay House, $24.95, 240PP, 2007



بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠٠، أفضت سلسلة من التجارب الرائدة إلى اكتشاف شبكة من الطاقة الروحية تربط بين كل شيء في حياتنا وعالمنا. المصفوفة المقدسة تتحكم في كل شيء، من شفاء أجسادنا إلى مستقبلنا الوظيفي وحتى السلام بين الأمم. هذا الاكتشاف يقيم الدليل على امتلاكنا جميعا للقوة التي تتيح لنا التعامل مع القوة الرابطة لكل شيء.

اكتشاف القوة التي تخلق البهجة، وتزيح معاناتك، وتخلق سلامك الداخلي، هو أمر أصبح في متناول يديك وتستطيع التحكم فيه، لتخلق لنفسك حياة مختلفة ومبهجة.

انضم لجريج جاردن في تلك الرحلة الروحانية خلال عالم المصفوفات المقدسة.

※

Born On A Blue Day

(ولد بيوم أزرق)

Daniel Tammet

Free Press, $24.00, 240PP, 2007



أولى الرحلات داخل عقل شخص من خمسين شخصا يعيشون اليوم في العالم يجمعهم الإصابة بمرض يدعى العبقرية الانطوائية. «دانيل تاميت» الشاب البريطاني ذو السبعة والعشرين عاما، الموهوب بالقدرة على التفكير المجرد، والابتكاري، والفاقد للقدرة على التفاعل والتواصل مع الآخرين.

مهارته الأساسية هي قدرته على الحساب، فهو يقوم بالعمليات الحسابية الضخمة بسرعة ودقة الحاسوب، ولديه مهارات لغوية عظيمة فقد تعلم اللغة الأيسلندية في أسبوع واحد فقط، واستطاع أن يسرد ٢٢٥١٤ متوالية من الثابت الرياضي (النسبة التقريبية ط) محطما للرقم القياسي العالمي.

على الرغم من مرضه، إلا أن باري استطاع الاستقلال ماديا وذلك من خلال موقع على الانترنت يمتلكه، كما استطاع بناء علاقة رومانسية طويلة المدى.

※

Power, Faith, and Fantasy

(القوة والإيمان والوهم)

Michael B. Oren

W. W. Norton, $35.00, 672PP, 2007



في كتاب مذهل، وغني بالمعلومات الفريدة، يقدم «مايكل أورين» مسحا للتدخل الأمريكي في الشرق الأوسط لقرنين ونصف تقريبا من الزمان، بدءا من عام ١٧٧٦ وإلى الآن.

المصالح الأمريكية طالما لامست المصالح الشرق أوسطية خلال تلك الفترة، باعتباره مركزا للعالم القديم، فمنذ أوائل القرن التاسع عشر بدأ التدخل الأمريكي بالقوة في الشرق الأوسط حينما أرسل الرئيس جيفيرسون أسطوله البحري ليجابه القراصنة البربريين على مقربة من الساحل الشمالي لأفريقيا، والتي أعقبها العديد من صور التدخل الأخرى التي كانت نتائجها جميعا مزيجاً من النجاح والفشل والهزل.

الجزء الأفضل من الكتاب هو ما يتعرض فيه الكاتب للتدخل الأمريكي في القرن العشرين الذي كان محركه الأول البترول، بدءا من الحربين العالميتين الأولى والثانية وصولا إلى حرب العراق، معتبرا الولايات المتحدة الامريكية قد حلت مكان الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط.

※

Palestine: Peace Not Apartheid

(فلسطين، السلام وليس التفرقة العنصرية)

Jimmy Carter

Simon & Schuster, $27.00, 288PP, 2007



الرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» الذي توج فترته الرئاسية باتفاقية كامب ديفيد بين الجانبين المصري والإسرائيلي، والحاصل على جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٢، يعود ثانية بعد كونه مهندسا لاتفاقية كامب ديفيد، بهذا الكتاب إلى القضية الفلسطينية ومسألة السلام.

كارتر لا يزال يرى أن هناك أملاً في الحل السلمي، وهناك طرق عدة لحل هذا الصراع الدائر، فمن خلال كتابه يستعرض القضايا المختلفة محل النزاع، محاولا إيجاد طرق وسبل عدة لحلها، ملقيا اللوم الأكبر في فشل عملية السلام على الجانب الإسرائيلي، الذي قوضت حكومته عملية السلام على مر السنين بإصرارها على الاحتلال غير الشرعي للأراضي العربية المحتلة من بعد عام ١٩٦٧، وملقيا أيضا اللوم على الحكام العرب الذين لم يستطيعوا أحيانا التعامل بحكمة كافية مع معطيات الموقف.

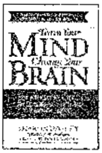
※

Train Your Mind, Change Your Brain

(درب عقلك، غير مخك)

Sharon Begley

Ballantine Books, $24.95, 304PP, 2007



هل من الممكن تغيير بناء ووظيفة المخ؟ الإجابة تأتي من خلال هذا الكتاب بنعم قاطعة، استنتجها العلماء من خلال دراسات عدة قاموا بها في أواخر ٢٠٠٤ عندما زارت مجموعة منهم الدلاي لاما في بيته بالهند، ومكثوا معه بعض الوقت ليدرسوا أدمغة الراهبين البوذيين والآثار العصبية التي تحدث نتيجة للطقوس الروحانية.

لعقود طويلة، كان الاعتقاد السائد لعلم الأعصاب بثبات أجهزة الدماغ وعدم تجددها، ولكن «بيجلي» من خلال هذا الكتاب يستعرض التجارب الأولى الرائدة في علم ليونة الأعصاب. هذا العلم المستحدث الذي يبحث في إمكانية مرور المخ بتغيرات واسعة-كاشفا أن المخ لا يستطيع فقط تعديل تركيبه وإنما أيضا بناء خلايا عصبية جديدة، حتى في سن الشيخوخة، فالمخ دوما يستطيع التكيف والشفاء والتعويض بعد الصدمات العصبية.

في محاولة لفهم العقل الإنساني والتفاعل بينه وبين المخ، وكيفية التحكم فيه، ومن خلال ربط الممارسات البوذية الكلاسيكية بالعلم الحديث، يأتي هذا الكتاب الثوري مقدما معنى جديدا للإنسانية.

※

The Only Three Questions That Count

(الأسئلة الثلاثة المؤثرة)

Kenneth L. Fisher, Jennifer Chou, Lara Hoffmans, James J. Cramer

Wiley, $27.95, 480PP, 2007



الكتاب الوحيد الذي يتيح لك الاستثمار بناء على معرفتك بما لا يعرفه

الآخرون، فهو دليل ذكى يقدم لك مفاتيح الأسئلة التى لابد أن تطرحها قبل أى فرصة استثمار تظهر امامك.

فى الأسئلة الثلاثة المؤثرة، يقدم المؤلفون طرقا غير تقليدية: متحدين النظريات التقليدية للاستثمار، ومفجرين اعتقادات جديدة حول المال والأسواق.

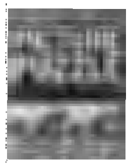
الكتاب ملىء بأكثر من ١٠٠ صورة ورسم توضيحى، والعشرات من الإحصائيات المختلفة لأسواق المال.

※

Life: Picture Puzzle

(الحياة، لغز الصورة)

LIFE MAGAZINE
EDITORS
Life, $7.99, 144PP, 2007



من أكثر ما يميز العدد الأسبوعى من مجلة «الحياة» الصفحة الأكثر شعبية بأمريكا، لغز الصورة، التى تكاد أن تكون نشاطا أساسيا فى حياة ١٣ مليون عائلة من قراء المجلة، وبناء على طلب المئات من القراء، أصدرت المجلة كتابا للغز الصورة.

الكتاب يحتوى على العديد من الصور التى احتلت مكانا من قبل بالمجلة مرفقة بخبر ما، أو تحكى قصة ما، كما يحتوى على ثلاثة مستويات مختلفة من الاختلافات بين الصور وهو ما لم تكن المجلة تقدمه من قبل.

※

The Terror

(السفينة «تيرور»)

Dan Simmons
Little, Brown and Company,
$25.99, 487PP, 2007



«دان سيمونز» الروائى الشهير والغزير الإنتاج، يكتب ولأول مرة قصة تاريخية، والتى تسرد قصة بعثة «فرانكلين» المفقودة فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر.

القصة تدور حول إبحار أكثر من ٢٠٠ رجل على متن السفينتين «تيرور وإريباص» فى رحلة استكشافية فى القطب الشمالى بحثا عن الممر الشمالى الغربى، ولم يعثر لهم على أثر بعد ذلك، حتى عثر فى وقت قريب على بقايا بعض الناجين.

«سيمونز» يتخيل الأحداث التى مرت بطاقم السفينتين فى وقت لم يكن أحد ليعرف أنهم على قيد الحياة، كيف ظلوا على قيد الحياة فى القطب الشمالى، وكيف تساقطوا الواحد تلو الآخر نتيجة انهيارات ثلجية، مجاعات وانخفاض درجات الحرارة.

※

Sacred Games

(اللعبة المقدسة)

Vikram Chandra
HarperCollins, $27.95,
928PP, 2007



رواية عنيفة ومخيفة وحزينة ومضحكة ومركبة ولا تقاوم، كالهند التى تدور فيها أحداث الرواية، فقط اترك نفسك مع الرواية لتكتشف كيف تبقى الهند ذات نسيج واحد على الرغم من تعدد الأديان ومئات اللهجات واتساع البلاد والفساد المنتشر فى كل مكان.

الأحداث الرئيسية للقصة تحدث بين مفتش شرطة مومباى السيخى «سارتاج» وأحد أشهر رجال العصابات «غانيش»، الرواية تدور حول مطاردة الشرطة لرجل العصابات المختبئ فى أحد الملاجئ.

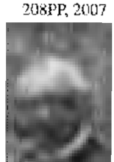
تحتوى رواية «شاندرا» كبيرة الحجم على تصوير للحوار بين الخير والشر وإظهار للفساد المنتشر، وتسير فى جولة حول شوارع الهند، مصورة للمجتمع الهندى الحديث.

※

Too Soon to Say Goodbye

(قريبا من قول الوداع)

Art Buchwald
Random House, $17.95,
208PP, 2007



الكاتب الساخر «أرت بوشوالد» الحائز على جائزة بوليتزر والذى رحل مؤخراً عن عالمنا، واجه متاعب صحية بكليته فى أوائل عام ٢٠٠٦، مما يستدعى إجراء غسيل مستمر للكلية، لذا قرر الانتقال إلى إحدى دور رعاية المسنين بواشنطن، وهناك شرع فى كتابة هذا الكتاب الذى ربما يكون آخر كتبه.

الكتاب يأتى ساخرا، يصف فيه حياته فى دار المسنين ناقلا بين الحين والآخر لمحات من حياته السابقة، متعرضا لمختلف قضايا نهاية العمر، مثل وصيته، وتصوره لجنازته، بل وتخيله لما قد يجده فى الجنة.

الكتاب وبالرغم من أسلوبه الساخر إلا أنه قد يبكى القارئ فى بعض الأحيان بسبب مشاعر «بوشوالد» المرهفة، وأيضا يجعل القارئ مبهورا بشجاعته وقوته أمام الموت.

※

The Proper Care and Feeding of Marriage

(العناية الصحية وإشباع الزواج)

Dr. Laura Schlessinger
Harper Collins, $25.95,
240PP, 2007



الطريق الأفضل لإنجاح الزيجات فى رأى «لورا شليسينجر» - المضيفة لبعض البرامج الحوارية والمعلقة الصحفية - هو تفهم الرجال والنساء لمفهوم الذكورة والأنوثة وتقدير اختلاف الخصائص بين الجنسين.

تقول المؤلفة انه لابد من الاعتراف بين الأزواج بالاختلافات بين الطبيعة الذكورية والأنثوية، ومعرفة أن لكل منهم قوته وتحكمه فى العلاقة، ولكل منه حاجاته المختلفة التى تهدف لإشباع شخصى. وتعطى المؤلفة حلولا واقعية لإنجاح الزيجات مستوحاة من قصص واقعية عايشتها من خلال برنامجها الإذاعى.

ترى أيضا المؤلفة أن إنجاح العلاقة الزوجية بيد الجنس اللطيف أكثر مما هو بيد الرجال، فالنساء بطبيعتهن الأنثوية قادرات على توطيد العلاقة بأزواجهن وترويجها، كما تؤكد المؤلفة على وجوب احترام تقسيم الأعمال بين الطرفين واحترام منزلة المرأة كربة البيت.

※

Breakpoint

(نقطة التوقف)

Richard A. Clarke
Putnam Adult, $25.95,
320PP, 2007



فى كتابه «ضد كل الأعداء» حذر «ريتشارد كلارك»، الخبير الأمريكى فى مكافحة الإرهاب، من الطريقة التى تدور بها الحرب ضد الإرهاب.

وفى روايته الأولى «بوابة العقرب» أوضح ما قد يحدث، والآن فى «نقطة التوقف» يخمن ما قد يحدث بعد ذلك.

القرية العالمية، المجتمع الشبكى الذى يربط كل اقتصاديات وحكومات العالم بعد خمس سنوات من الآن، تسعى مجموعة إرهابية محترفة إلى تدمير العالم، عن طريق تدمير ذلك المجتمع الشبكى والأقمار الصناعية وشركات التقنية الكبرى.

تبذل العديد من محاولات تعقبهم، ويبحث الأمريكيون فى كل اتجاه: جماعات اليمين المتطرف، ومنظمات الجريمة المنظمة، والجهاديين، وجميع الأعداء المحتملين، ولكن لا أمل فى الوصول إليهم.

تتزايد الهجمات الالكترونية أكثر، وتكاد الشبكة أن تصل إلى نقطة التوقف التى بعدها ينهار اقتصاد العالم كله.

※

The Seven Pillars of Health

(سبع دعامات للصحة)

Don Colbert, Mary Colbert
Siloam Press, $19.99, 295PP,
2007



يجب عليك أن تفعل كل ما بوسعك للحفاظ على صحتك، فأكثر الأمراض أسبابها تعود إليك، وإلى أسلوب حياتك، فالغذاء غير الصحى، وقلة التمرينات الرياضية، والإجهاد الناتج عن الضغط العصبى، وعدم انتظام النوم أو نقصه، كلها مسببة للأمراض.

في هذا الكتاب سبع دعامات أساسية ستمكنك من الاستمتاع بالحياة بصحة أفضل، وهم (الماء، النوم والراحة، الغذاء الملائم، التمارين الرياضية، إزالة السموم بالجسم، تحمل الإجهاد، وبعض المكملات).

*

American Islam
(الإسلام الأمريكي)

Paul M. Barrett
Farrar, Straus and Giroux,
$25.00, 320PP, 2007



قرب انتهاء «باريت» من هذا الكتاب، شهد مسجد كاليفورنيا نقاشا داخليا ساخنا حول إمكانية استضافة ألعاب نارية يوم الرابع من يوليو (عيد الاستقلال)، ولكن ما حدث في الرابع من يوليو كان إنارة لمئذنة وقبة المسجد للحظات بألوان العلم الأمريكي الأحمر والأبيض والأزرق. وهذا الموقف يبلور العديد من التوترات التي يتحدث عنها هذا الكتاب.

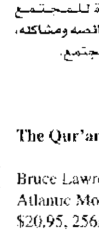
يوضح «باريت» كيف يكافح العديد من المسلمين الأمريكيين من أجل أن يجمعوا بين كونهم مسلمين مخلصين، ووطنيين في نفس الوقت، والمعاناة التي يواجهونها في المجتمع الأمريكي الحديث، ثم يستطرد عن التنوع الأيديولوجي والعرقي بين المسلمين الأمريكيين.

الكتاب دراسة جيدة للمجتمع الإسلامي الأمريكي، خصائصه ومشاكله، ومحاولات الاندماج في المجتمع.

*

The Qur'an
(القرآن)

Bruce Lawrence
Atlantic Monthly Press,
$20.95, 256PP, 2007



في إطار تلك السلسلة من الكتب التي تستعرض الكتب التي غيرت العالم، يكتب «بروس لورانس» أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الدوق، سيرة ذاتية للقرآن. الكتاب السماوي الذي ظهر قبل أكثر من أربعة عشر قرنا.

يحاول «لورانس» أن يستعرض أهم معاني القرآن الكريم وتفسيرا لها، ويعرف القارئ بالقرآن الكريم، موضحا مدى انتشاره، وعدد المؤمنين به، وتوحده في اللغة والشكل ضاربا مثلا بأن الكلام المنقوش على المساجد في كل أنحاء العالم هو كلام واحد بلغة واحدة.

الكاتب يستعرض أهمية القرآن للمسلمين وكيف يتم استخدامه كشفاء للأمراض.

بل وكيف يتم تفسيره على عدة أوجه، محللا في سياق الحديث استخدامات أسامة بن لادن لمقتطفات من القرآن في خطاباته.

*

Letters from Cairo
(خطابات من القاهرة)

Pauline Kaldas
Syracuse University Press,
$19.75, 136PP, 2007



عندما سافر زوجها لتدريس الأدب الأمريكي بجامعة القاهرة، بدأت «بولين» رحلتها في العودة إلى الوطن.

فهي ولدت بمصر، ثم هاجرت إلى الولايات المتحدة في الثامنة من عمرها، والآن تعود إليها مع أطفالها.

«بولين» تكتب هذا الكتاب كعربية أمريكية، يعتمد على مدى هويتين ووطنين مختلفين. تسجل «بولين» في هذا الكتاب مجموعة من الرسائل التي أرسلتها إلى أصدقائها في الولايات المتحدة، وبعض المقالات والمقالات التمهيدية لبعض المجلات، لتسجل صورة مفصلة عن كيفية العيش بالقاهرة.

تعكس الكاتبة في كتابها تأملا جميلا في معنى الوطن والعائلة والجذور.

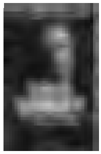
كما تصور المؤلفة تعقيدات الثقافة المصرية وصدامها معها والقضايا المصرية المختلفة السياسية والتعليمية.

أكثر ما في الكتاب سحرا: رسائل أطفالها ورسوماتهم، والصور العديدة التي يضمها الكتاب بين دفتيه.

*

Nicolas Sarkozy. La fringale du pouvoir
(نيكولا ساركوزي.التعطش إلى السلطة)

William Emmanuel
Paris. Flammarion, 2007,
412pp, 22 euros.



في عيني نيكولا ساركوزي، المرشح الأقوى في الانتخابات الرئاسية الفرنسية، بوسعك أن تقرأ سطورا طويلة من كتاب «الأمير» لمكيافيللي. لكن هذه السيرة الشخصية التي يقدمها الكاتب الفرنسي ويليام «يمانويل» الصحفي بوكالة رويترز تطمح الى تقديم صورة متوازنة لمرشح حزب «التجمع من أجل حركة شعبية»، في وقت لم يعد خافيا على أحد قوة الدفع التي يتحرك بها الرجل للوصول إلى سدة الحكم. ويصور هذا الكتاب الجديد بلدا يعاني من فقدان بوصلته، يبدو فيه ساركوزي وكأنه رجل الساعة الذي سيتحقق على يديه «التغيير» وتتخذ معه سياسة البلاد منحى آخر، إذ تبين استطلاعات الرأي استحواذه على ثقة قطاع عريض من كتلة الناخبين، وتبدو وسائل الإعلام وكأنها تكتشفه للمرة الأولى رغم تواجده داخل أروقة السلطة منذ عام ١٩٧٠. لذلك يسعى الكاتب إلى العمل -بغير أحكام مسبقة- على رصد مسار الرجل الطامح إلى الاستقرار في قصر الاليزيه. فمن هو حقا ذلك الرجل الذي عرف عنه إدمانه للعمل وإجادته لفنون الخطابة واللعب بالكلمات، والذي طالما نجح في خداع جاك شيراك وهو يقنع الجميع بأنه يحاول أن يتشبه به، قبل أن يقرر هجره للانضمام إلى فندوار بالادور عام ١٩٩٥، ليناصب الرئيس منذ ذلك الوقت نِدية صريحة وتنمرا صامتا؟ ما هو المحرك النفسي لهذا المرشح العجول المهووس بطلب السلطة، ذلك السياسي الذي درس المحاماة فتعلم ألا يتردد في استخدام كل الحجج وسلك كافة السبل للوصول إلى اهدافه، حتى وإن اضطر لإقحام حياته الشخصية على مسرح الأحداث؟ وبعد، ما هي انجازات الوزير الأكثر بروزا في الإعلام الفرنسي على مدار أعوام الجمهورية الخامسة بأسرها- سواء حين كان وزيرا للاقتصاد أو في توليه لوزارة الداخلية؟ هل من تناقض بين وعوده والوقائع؟ كيف يمكن تقييم مساره؟ ومن هم الأشخاص المحيطون به؟ وهل هو في المحصلة رجل الأقوال لا الفعال؟

تلك هي الأسئلة التي يحاول الكتاب الإجابة عليها بشيء من الحيادية وكثير من المعلومات الموثقة في محاولة لمعرفة المفاتيح الرئيسية لفهم شخصية نيكولا ساركوزي. لكن الكتاب لا يناقش من قريب أو بعيد ما يمكن أن يعنيه الحماس الدائم وغير المشروط الذي يعلنه المرشح الفرنسي الطموح إزاء السياسة الأمريكية، إلى الحد الذي حمله على انتقاد سياسة بلاده أثناء زيارته لواشنطن منذ أشهر، بصورة تمثل أوج التناقض بين أبجديات الهوية الفرنسية وتبعات الهوى الأنجلوساكسوني. هذا ويفضل الكاتب فكرة إعداد قسم خاص لأهم التصريحات التي شنف بها ساركوزي آذان جماهيره، لاسيما تصريحه العنصري التهور إبان أزمة الضواحي الفرنسية عام ٢٠٠٥، حين أعلن رغبته في سحق «الحثالة» المتسببة في إشعال أعمال الشغب وكنسها من البلاد، مفجرا بذلك مشاعر الغضب لدى العرب والمسلمين في العالم، ومثيرا موجة من الاستنكار المحلي وصلت إلى حد مطالبة أحزاب اليسار الفرنسي باستقالته من منصبه كوزير للداخلية. وبعد، لا يشرح الكتاب كيف يمكن أن يكون ساركوزي - وهو في الأصل ابن لعائلة من المهاجرين المجريين - هو نفسه المسئول عن قوانين الهجرة الانتقائية المتعسفة؟ كما يقف الكتاب دون شرح كيفية ورود اسم ساركوزي في قائمة المتورطين في قضية الفساد Clearstream وما من أثر في الكتاب للتعريفات البرجماتية البراقة التي يزخر بها قاموس ساركوزي لتفسير فعل «الخيانة»: خيانة المعلم والصديق والرفيق والمبدأ. لكن الأهم هو إمساك الكتاب عن إبراز الموهبة الكبرى التي يتحلى بها نيكولا ساركوزي في التوليف بين المتناقضات: كان يجتهد طوال عمله الحكومي في زرع الفرقة وإثارة نزعة الفئوية بين الفرنسيين، ليأتي في الرابع عشر من يناير الماضي ليطرح خطته الانتخابية تحت شعار توفيقي «معا كل شيء ممكن»، في احتفالية مسرحية باهظة التكاليف، حضرها أكثر من مائة ألف شخص، تبنى فيها ساركوزي كل الأفكار وأضدادها، ونثر خلالها وعودا برخاء كان قد أخفق في تحقيقه حين كانت له حقيبة الاقتصاد. وتحدث فيها عن ضمانات لحريات مازال يتلاعب بها من موقعه كوزير للداخلية. ولكون «كل شيء ممكن» مع ساركوزي، فقد أدلى المرشح اليميني بتصريحات تقترض من فكر اليسار، وتستعير من برنامج مرشحة الحزب الاشتراكي للرئاسة سيجولان رويال، وتقتبس من عبارات الزعيم الاشتراكي الرمز جان جوريس. كما تراجع عن كثير من مواقفه السالفة (مثلا فيما يتعلق بتعديل الدستور)، بل انه قد ذهب في خطابه إلى تحية غريمه اللدود شيراك. وإمعانا في إخفاء هواه الأمريكي، أيد ساركوزي موقف فرنسا في رفض الإستراتيجية الأمريكية في العراق. واستجابة لمقتضيات الأداء المسرحي، تخلى الخطيب عن صورته المألوفة كآلة سياسية صماء، وانتحل في إطلالته الجديدة ملامح إنسانية طلقة، شفعها بنبرة حميمة جد مؤثرة وعينين تكاد تنمح فيهما التماع الدمع...

وفي قاعة المؤتمر الشاسعة، أطلت «وجوه» ساركوزي على الشاشات العملاقة التي أحاطت تماما بالحاضرين. وتراقصت الأضواء وخفقت الأعلام وعلت موسيقى الحماس، في أجواء استعراضية صاخبة الترف، تنتمي إلى عالم الـ «شوبيزنس» الأمريكي.

السيدات والسادة، الأطفال من جميع الأعمار، لا تقرءوا الكتاب الذي أقدمه لكم اليوم! فقط انصتوا لرياح التغيير...

فقد تهب هذه المرة على الأراضي الفرنسية عبر الأطلسي، في سلسلة من التغيرات المناخية الدراماتيكية، التي تهدد مظاهر الحياة على كوكب الأرض.

داليا توفيق سعودي

كتب عبرية

(رجل فى الظلال)
افرايم هليفى
مطر، ٢٢٢ صفحة، ٢٠٠٦

אדם בצל
אפרים הלוי
מטר
225 עמודים
2006

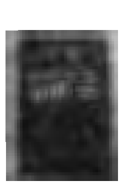


يعتبر إفرايم هليفى، الرئيس السابق لجهاز المخابرات الإسرائيلى للعمليات الخارجية «الموساد»، واحداً من أكثر الشخصيات التى أثرت على عملية صنع القرار فى الدولة العبرية سيما فى كل ما يتعلق بعلاقات هذه الدولة مع العالم الخارجى، وتحديداً مع العالم العربى. هليفى فى كتابه الجديد «رجل فى الظلال: الأزمة فى الشرق الأوسط فى نظر الرجل الذى قاد الموساد» يتحدث عن الكثير من الفرص التى أهدرتها الحكومات الإسرائيلية للتوصل لاتفاقيات وتسويات كان من الممكن أن تدفع باتجاه تحسين الأوضاع الأمنية داخل إسرائيل. ويكشف هليفى فى كتابه النقاب عن أنه قبل أيام معدودة من قيام إسرائيل بمحاولة اغتيال رئيس المكتب السياسى لحركة حماس خالد مشعل فى عمان فى صيف العام ١٩٩٧، نقل الملك حسين إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية فى ذلك الوقت بنيامين نتنياهو اقتراحاً من قيادة حماس بالتوصل إلى هدنة مع إسرائيل تصل إلى ٣٠ عاماً. ويستدرك هليفى أن الاقتراح وصل إلى نتنياهو بعد محاولة اغتيال مشعل الفاشلة، الأمر الذى جعل الاقتراح غير ذى صلة. ويتوسع هليفى فى الحديث عن ظروف محاولة الاغتيال الفاشلة التى تعرض لها مشعل وتداعياتها، وذلك عندما قام أربعة من عناصر الموساد، بوضع السم فى أذن مشعل، والقاء القبض على اثنين منهم من قبل أحد حراس مشعل الذى قام بتسليمهم إلى الأمن الأردنى. ويشير هليفى إلى أن الملك حسين غضب فى حينه غضباً شديداً، واعتبر ما جرى خيانة إسرائيلية له، لا سيما أن هذه العملية جاءت فى ظل العرض الذى نقله إلى إسرائيل من حماس قبل أيام. وأضاف هليفى الذى كان فى ذلك الوقت نائب رئيس الموساد أن نتنياهو طلب منه التوجه لعمان لتهدئة الملك. هليفى يقول إن حسين كان هائجاً لدرجة أنه درس إمكانية اقتحام مقر السفارة الإسرائيلية فى عمان والقاء القبض على بقية عناصر الموساد الذين شاركوا فى تنفيذ محاولة الاغتيال. وفى المداولات التى أجريت فى جهاز «الموساد» حول سبل تهدئة الملك طرح اقتراح أن تقوم إسرائيل بتزويد الأردن بأجهزة للرؤية الليلية وتطوير الطائرات الحربية التابعة لسلاح الجو الأردنى، إلا أن هليفى فكر بطريقة أخرى حيث اقترح اطلاق سراح الشيخ احمد ياسين زعيم ومؤسس حركة حماس ونقله إلى الأردن، وبعد ذلك يطلب الملك حسين من إسرائيل إعادته إلى قطاع غزة. ويكشف هليفى أن إسرائيل حذرت الملك حسين خلال حرب الخليج الأولى فى العام ١٩٩١ من إمكانية أن تشن ضده حملة عسكرية قوية فى حال واصل السماح للطائرات العراقية بالتدريب غرب الأردن، سيما فى المنطقة القريبة من منطقة النقب، وفى موازاة المفاعل الذرى الإسرائيلى بديمونا. ويشير هليفى إلى أنه كان المسؤول عن العلاقات بين إسرائيل والملك حسين فى عهد حكومة رابين الثانية. ويذكر أن الملك حسين كان منزعجاً من الاتصالات السرية التى كان يجريها الرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات وإسرائيل قبيل التوصل لاتفاقية اوسلو. ويضيف هليفى أنه عندما تبين للملك حسين وجود هذه الاتصالات طلب من إسرائيل تفسيرات حول ذلك. ويقول هليفى أن الملك حسين كان يرى فى الاتصالات بين إسرائيل وعرفات خيانة، حيث إنه كان يخشى أن تسمح إسرائيل لعرفات بزيارة القدس.

※

(لمن يقدم المجلس المشورة)
ابيعازر يعارى
مركز يافا للدراسات الاستراتيجية، جامعة تل أبيب، ٢٠٠٦

למי מייעצת המועצה
אביעזר יערי
מרכז יפה למחקרים אסטרטגיים
2006



فى العام ١٩٩٩ أصدر رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق بنيامين نتنياهو قراراً بتشكيل مجلس للأمن القومى فى إسرائيل، بحيث يتبع مباشرة ديوان رئيس الوزراء ويختص فى تقديم المشورة والنصح له فى كل ما يتعلق بمجالات الأمن القومى المختلفة. كتاب «لمن يقدم المجلس المشورة» الصادر حديثاً عن «مركز يافا للدراسات الإستراتيجية»، التابع لجامعة تل أبيب لمؤلفه الجنرال ابيعازر يعارى، يدلل على أن هذا المجلس قد اعتراه الصدأ، لأن أحداً لا يحتاج لخدماته فى الواقع. يعارى الذى شغل فى السابق مناصب مرموقة فى شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية وقاد «كلية الأمن القومى» التابعة لهيئة أركان الجيش الإسرائيلى، يؤكد أن الحرب الأخيرة فى مواجهة حزب الله أثبتت أن هذا المجلس لا قيمة له وأنه مؤسسة لا تؤدى عملاً ذا تأثير. يعارى أجرى لقاءات مع جميع قادة مجلس الأمن القومى منذ تأسيسه وحتى الآن، وقد اجمع هؤلاء وجميعهم جنرالات متقاعدون فى الجيش والمخابرات والموساد، على أن ديوان رئيس الحكومة الإسرائيلية الذى يجرى فيه اتخاذ القرارات بالغة الأهمية والخطورة لا يقوم بعمليات إعداد مناسبة قبل اتخاذ هذه القرارات، ولا يكلف مجلس الأمن القومى الذى يتبعه بدور مناسب فى عملية صنع القرار. وهكذا فإن العناصر الأكثر تأثيراً على اتخاذ القرارات بقيت أساساً منحصرة فى الوزارات والجيش وجهاز الأمن، لأنها الأجهزة الأكثر قوة ونفوذاً فى المنظومة العامة وفى الواقع فإنه منذ إقامة مجلس الأمن القومى، فى العام ١٩٩٩، تجاهلت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة واجبها المنصوص عليه فى القانون المتعلق بهذا المجلس، وهو أن تُشرك مجلس الأمن القومى فى عملية اتخاذ القرارات الأمنية، وأن تراه جهة ذات وزن رئيس فى مجالات الأمن القومى. وليس هذا فحسب وإنما أيضاً قام رؤساء الحكومات بكل شىء من أجل جعل مجلس الأمن القومى قزماً، ومن أجل عدم إشراكه فى مسارات اتخاذ القرارات الرئيسة التى تتصل بأمن الدولة العام.

※

(حساب مفتوح)
اهارون كلاين
يدبعوت أحرونوت، ٢٠٠٦ ٢٢٢صفحة

חשבון פתוח
אהרון קליין
ידיעות אחרונות
222 עמודים
2006



كثير من الكتب صدرت وتتناول الجرائم التى اقترفها جهاز الاستخبارات الإسرائيلية للمهام الخارجية «الموساد» ضد الفلسطينيين والعرب. مؤخراً أنضم كتاب آخر لهذه القائمة من الكتب. فكتاب «حساب مفتوح»، لمؤلفه اهارون كلاين يلقى الضوء للمرة الأولى على عدد من عمليات الاغتيال التى ارتكبها «الموساد» ضد قادة النضال الوطنى الفلسطينى. يفسح الكتاب مجالاً واسعاً للحديث عن قيام «الموساد» باغتيال وديع حداد، القيادى البارز فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى العام ١٩٧٨. الكتاب يشير إلى أنه توجد لدى جهاز الموساد معلومات تؤكد ولع حداد الذى كان مقيماً فى ذلك الوقت فى بغداد بالشيكولاتة، وسيما البلجيكية. فأمر الموساد أحد عملائه من الفلسطينيين من الذين استطاعوا التسلل إلى داخل الجبهة الشعبية بأن يحمل من أوروبا إلى بغداد شيكولاته بلجيكية مسمومة. والسم الذى تم إدخاله إلى الحلوى هو مادة بيولوجية تعمل على انهيار الجهاز المناعى فى الجسم بالتدريج فيموت الشخص الذى يأكلها فى غضون عدة أسابيع، وهذا ما حدث بالفعل لحداد الذى وقع فى الشرك الذى نصبه له رجال الموساد وأكل من الشيكولاتة. ويشير الكتاب لأول مرة إلى مسؤولية الموساد عن تصفية المفكر الفلسطينى وائل زعيتر الذى ترجم «ألف ليلة وليلة» إلى الإيطالية، وذلك بزعم أنه كان قاد منظمة «أيلول الأسود» التى تبنت مسئولية تنفيذ عملية «ميونيخ» التى قتل فيها أحد عشر إسرائيليا. وينوه الكتاب إلى أن رئيسة الوزراء الإسرائيلية غولدا مائير قامت بالتوقيع على أمر تصفية زعيتر على اعتبار أنه زعيم «منظمة أيلول الأسود» مع العلم أن مائير وبناء على مشورة مستشارها الأمنى اهارون ياريف أصدرت قرار عاماً بتصفية كل من له علاقة بهذه المنظمة. ويتطرق الكتاب إلى عدد من عمليات الاغتيال التى قام بها «الموساد» ومنها تصفية عاطف بسيسو مسئول الأمن فى حركة «فتح» الذى تمت تصفيته فى فرنسا. وأشار المؤلف إلى أن معظم عمليات الاغتيال التى نفذها الموساد نفذت بحجة منع عمليات فى المستقبل ضد أهداف إسرائيلية. وضمن العمليات التصفية التى قام بها الموساد كان اغتيال محمد بودية، وهو ممثل وصاحب مسرح فى باريس. ويذكر أن عمليات التصفية التى يقوم بها الموساد تعتمد بشكل أساسى على معلومات استخبارية دقيقة يتم جمعها من قبل عملاء الموساد حول الأشخاص المرشحين للتصفية، وبعد ذلك يتم تكليف فرق الموت التابعة للموساد بتنفيذ العملية.

※

قــراءة

أيمــن الصـيّـاد

هنـاك «حقيقـة» خلـف كل ستـار

الصحافة الحقيقية



** «المختلف»..

الوصف أطلقه «روجر كوهين» في الهيرالد تريبيون قبل سنتين على الصحفي الأمريكي الأكثر احتراما «سيمور هيرش» معتبرا: «أننا.. نحن الصحفيين الغربيين، أو معظمنا على الأقل أصبحنا دون أن ندري عبيدا لـ MSM وهو اختصار بات شائعا لـ Main Stream Media. صحفي واحد ربما - يقول كوهين - وللمرة الثانية خلال ٣٥ عاما يثبت أنك «كصحفي.. يمكن أن تكون مختلفا».

كان كاتب الهيرالد يتحدث عن كيف فضح سيمور هيرش فضائح سجن أبو غريب، في وقت كان الأمريكيون فيه مزهوين بما بدا انتصارا في العراق، ومخدرين بدعاوى ترويج «الديموقراطية وحقوق الإنسان». بالضبط كما فعل أواخر الستينيات حين كشف بالأدلة مذبحة May Lai (حيث قامت مجموعة من الجنود الأمريكان لمدة يوم كامل بإبادة جميع سكان قرية فيتنامية تدعى «صن ماي» عرفت على خرائط الجيش الأمريكي بـ My Lai 4).

في الواقعتين كان الإصرار، والعمل «الحقيقي» الدءوب، والرغبة في الحصول على التفاصيل الدقيقة الصحيحة، والقدرة على الإنصات والاستعداد لسماع كافة الأطراف، والشجاعة في مواجهة أصحاب النفوذ. وراء السبق الصحفي الذي حققه هيرش، وقدرته على كشف ما أراد له البعض أن يظل خافيا. واستطاع هيرش بالحاسة الصحفية والعمل الجاد والعقل المتسائل اجتياز الحواجز والوصول إلى الحقيقة؛ التي هي دائما - للأسف - خلف ألف ستار.

سيمور هيرش..

قبل سنوات كنا قد صدّرنا هذه المجلة بتعريف للرجل. ولكن - لأن البعض بدا أنه لم يقرأ - ربما كان مفيداً اليوم بعض من التذكرة: دخل سيمور هيرش عالم الصحافة من بابه الحقيقي: «الحوادث».. حيث اكتسب خبرة ميدانية ربما كانت ضرورية ليصبح «صحفيا حقيقيا».. وفي أقسام البوليس؛ حيث يحدث أحيانا - كما تعودنا في شرقنا العربي - أن يغتر بالقوة من يملك سطوتها فتأخذه العزة بالإثم، اكتشف الصحفي المبتدئ حقيقة الأفكار الفاسدة الكامنة خلف ستار براق لامع. ذهب هيرش إلى أحد مخافر الشرطة لتغطية حادثة مصرع سجين أسود خلال محاولته الهرب، وهناك سمع أحد ضباط الشرطة يحكي لزميله «متباهيا» كيف أوهم السجين أنه قد أفرج عنه ثم أطلق النار عليه من الخلف وهو يبتعد، مدعيا أنه كان يحاول الهرب. ومع أن هيستريا التفرقة العنصرية السائدة في ذلك الوقت لم تسمح له بنشر كل الحقيقة، إلا أنه بدأ طريقه في تحدي حالات الصمت المتعمد ليكشف - على مدى تاريخه المهني - بعض أخطر قضايا عصره. ولم يأت عام ١٩٦٩ إلا وكان قد كتب أول تقرير عن مذبحة «ماي لاي» في جنوب فيتنام، ليصبح بعد ذلك أهم صحفيي التحقيقات في أمريكا.

وفي عام ١٩٧٠ بعد تسع سنوات فقط من بداية عمله بالصحافة فاز هيرش بجائزة بوليتزر، أهم جائزة على مستوى العالم في مجال الصحافة وإحدى أهم جوائز الكتابة على الإطلاق. عن كتابه: My Lai 4: A report on the massacre and its aftermath. والذي أتبعه بكتاب أخطر كشف فيه تواطؤ الجيش الأمريكي بهدف تغطية مسؤولية ضباطه عما ارتكبوه.

ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي اصطدم فيها هيرش مع مؤسسة الحرب الأمريكية فقد ساهم في كشف قضية المرض الغامض الذي أصاب بعض الجنود الذين خاضوا حرب الخليج الثانية في كتاب حمل عنوانا «إلا عن الحرب بين محاربي أمريكا المرضى وحكومتهم»: Against All Enemies Gulf War Syndrome: The War Between America's Ailing Veterans and Their Government. ثم كان أن نشرت له النيويوركر مقالا في ٢٥ ألف كلمة احتل صفحات عدد بأكمله من المجلة الشهيرة (توزع ٤٥٠ ألف نسخة أسبوعيا) عرض فيه تفاصيل الوقائع التي حققها بنفسه - عبر العديد من المقابلات والرحلات - للمذبحة التي ارتكبها الجنرال ماكافري قائد الفرقة ٢٤ الأمريكية يوم ٢٠ مارس ١٩٩١ «بعد وقف إطلاق النار» في حرب الخليج الأولى، والتي راح ضحيتها مئات من العراقيين: ليس فقط من بين الجنود الذين كانوا قد شرعوا في الانسحاب ولكن أيضا بين الجرحى والأسرى المدنيين الذين كانوا على متن سيارات الإسعاف، وهو الاتهام الذي يعد بكل المقاييس جريمة حرب.(المقال نشرته «وجهات نظر» في عدد يوليو ٢٠٠٠).

وعلى مدى أكثر من أربعين عاماً يستمر هيرش في صدماته للمجتمع الأمريكي وفي اصطياده للجوائز الصحفية (أكثر من ١٢ جائزة من أهم الجوائز الصحفية بما في ذلك جائزة جورج بولك أربع مرات) كما يستمر في نشر كتب هامة مثل: Prince of power عن دور هنري كيسنجر في إدارة نيكسون. وThe Dark Side of Camelot عن كيف أثر الجنس والجريمة والفساد لعائلة كنيدي على السياسة الأمريكية. وكذلك مقالاته عن دور الـ CIA في مساندة انقلاب الجنرال بينوشيه في تشيلي عام١٩٧٣ والذي أطاح بالرئيس المنتخب سلفادور الليندي وقضى على أهم تجربة ديمقراطية في أمريكا الجنوبية.

وعن ترسانة إسرائيل النووية والسياسة الخارجية الأمريكية نشر هيرش كتابه The Samson option والذي أثار عداء اليهود له. ثم كان أن نشر في ٢٠٠٤ آخر كتبه (الأشهر ربما في عالمنا العربي) Chain of Command: The Road from 9/11 to Abu Ghraib

مازالت أمام الصحفيين قصص عظيمة - الكلام لسيمور هيرش - ولكن المشكلة «أن جيل صحفيي ووترجيت الحقيقيين قد ترك المجال لآخرين يحبون حضور الحفلات والكتابة في الغرف المكيفة».

التعليق يذكرني بما وصفته به مجلة SALON فهو «في عُرف مجتمعات العاصمة ليس رجلاً لطيفاً.. لا يحضر حفلات الاستقبال. كما أنه لا يعرف آليات العلاقات العامة ولا كيف يجامل.. إنه فقط أفضل صحفي تحقيقات على وجه الأرض ويتوقع أن تتحدث أعماله عن نفسها».

بعد أيام فقط من إحالة المقدم ستيفن لي جوردان: مدير عمليات الاستجواب في سجن أبو غريب إلى المحاكمة العسكرية (وهو أرفع ضابط أمريكي يُحاكم في هذه الفضيحة) يكون سيمور هيرش الصحفي الشهير الذي كشف الفضيحة، وصاحب التقرير الذي أطاح يوماً بصقر الإدارة الأمريكية ريتشارد بيرل، قد وصل إلى القاهرة في ضيافة «مؤسسة محمد حسنين هيكل للصحافة العربية» ليفتتح مشروعا طموحا لتدريب جيل جديد من الصحفيين العرب على «الصحافة الحقيقية» التي لا تعرف حفلات الاستقبال ولا المجاملة ولا تكترث بالعلاقات العامة.. والتي - بحكم التعريف - ترى ماوراء اللافتات البراقة. ■

الآن مع
خدمة الفاتورة المخفضة للشركات

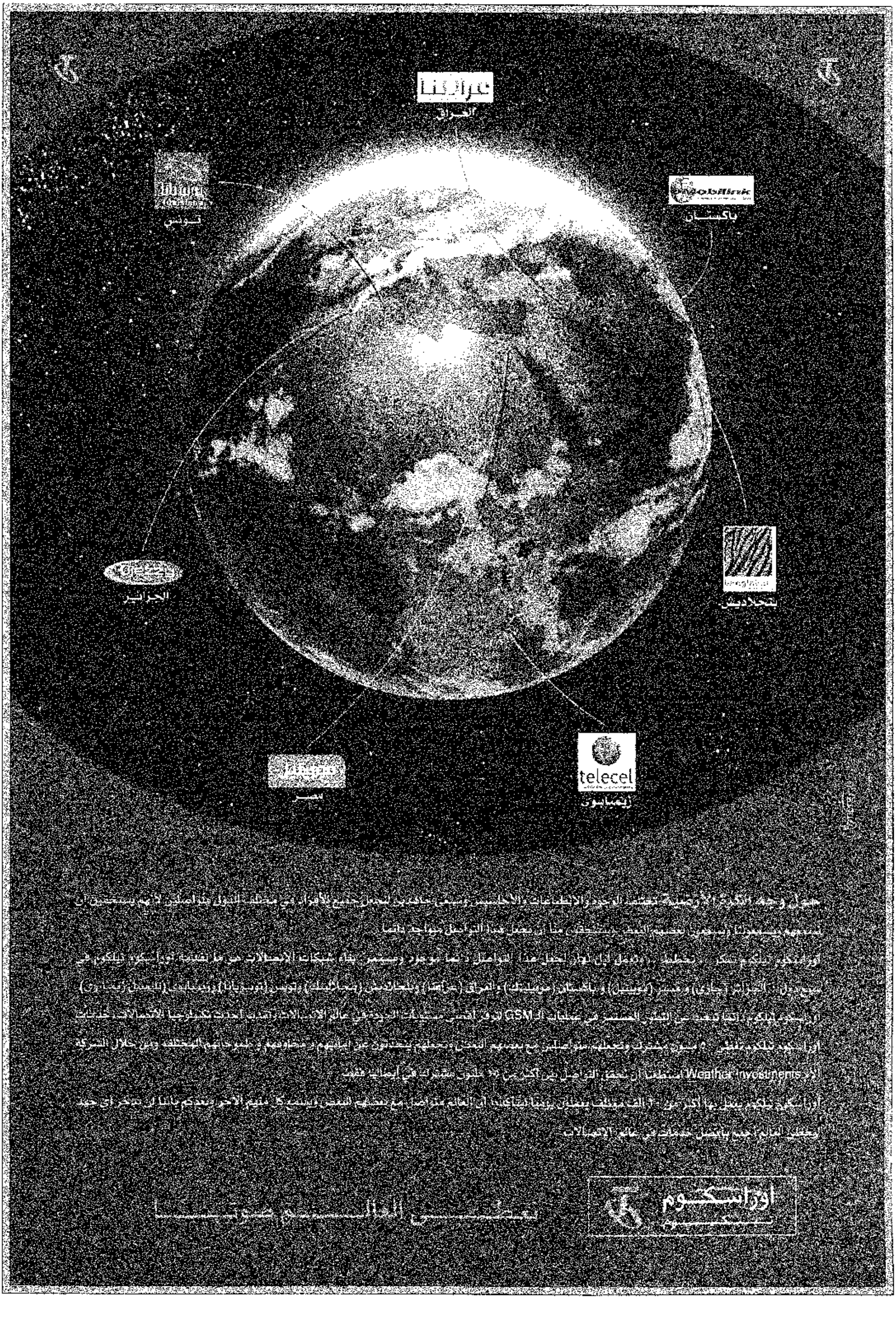


لجميع مشتركى الخطوط التليفونية التجارية...
اشترك الآن فى خدمة الفاتورة المخفضة للشركات و تمتع بخصم يصل إلى ١٢٪ على جميع مكالماتك المحلية و الدولية و مكالمات المحافظات و المحمول .

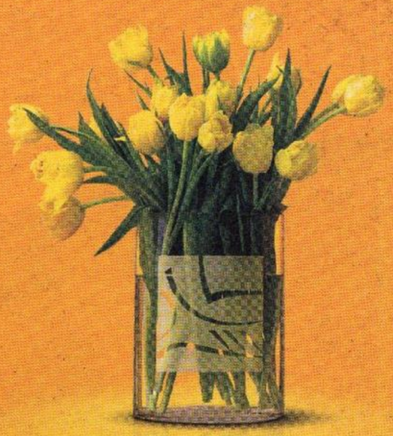
مكالماتك أكثر...
وفاتورتك أقل

المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١
www.telecomegypt.com.eg



عراقنا
العراق
تونس
باكستان
الجزائر
بنجلاديش
telecel
زيمبابوي
مصر
GSM
Weather Investments
أوراسكوم
تيليكوم
نعطـي العالـم صوتـاً



٤٠ فرع
فى خدمتكم

المركز الرئيسى
١٠ شارع طلعت حرب - برج ايفرجرين

١. فرع طلعت حرب
٨ شارع طلعت حرب، وسط المدينة.

٢. فرع القاهرة
١٠٨٧ كورنيش النيل - جاردن سيتى.

٣. فرع عدلى
٩ شارع عدلى - وسط المدينة.

٤. فرع جاردن سيتى
٤ شارع أحمد باشا - الدور ١٢.

٥. فرع مبنى اتحاد الاذاعة و التلفزيون
كورنيش النيل - ماسبيرو.

٦. فرع حلوان
١٠٠ شارع المنصور.

٧. فرع المعادى جراند مول
٢٥٠ ميدان كلية النصر - المعادى الجديدة.

٨. فرع الزمالك
٥ شارع أبو الفدا، برج أم كلثوم.

٩. فرع الدقي
٧ شارع السد العالي.

١٠. فرع المهندسين
٤ شارع سوريا

١١. فرع الجيزة
٣٢ ب شارع مراد

١٢. فرع شبرا
٤٩ شارع شبرا.

١٣. فرع نزيه خليفة
٥٢ شارع نزيه خليفة

١٤. فرع روكسى
٨٠ شارع الخليفة المأمون

١٥. فرع الطاهرة
١٢ ميدان سراى القبة - أمام قصر الطاهرة

١٦. فرع مدينة نصر
١٣ شارع أبو داوود الظاهري.

١٧. فرع جنينة مول
٤٩ شارع البطراوى - مدينة نصر.

١٨. فرع العاشر من رمضان
المركز التجارى - مدخل ١.

١٩. فرع فيصل
٧،٦ مساكن المنصورية - كفر نصار - نهاية فيصل

٢٠. فرع الشيخ زايد
١٠١ منطقة الإدارة - مجمع الكرامة - مدينة الشيخ زايد.

٢١. فرع ٦ أكتوبر
٤٣ ب المنطقة الصناعية الثالثة

٢٢. فرع جامعة ٦ أكتوبر
مدينة الثقافة والعلوم - مجمع معاهد قناة السويس للتكنولوجيا

٢٣. فرع القرية الذكية
الكيلو ٢٨ طريق مصر اسكندرية الصحراوى- مبنى ١١٥ ب

٢٤. فرع باتريس لومومبا (الأسكندرية)
٢ شارع باتريس لومومبا- باب شرق.

٢٥. فرع سموحة (الأسكندرية)
٢٨ شارع توت عنخ أمون-سموحة.

٢٦. فرع العطارين (الأسكندرية)
١٥ شارع محمود عزمى-العطارين.

٢٧. فرع ميناء الأسكندرية
مبنى رجال الأعمال- باب ١٤- هيئة ميناء الأسكندرية

٢٨. فرع قرية بدر (الساحل الشمالى)
الكيلو ٨٢ - الساحل الشمالى.

٢٩. فرع قرية غزالة (الساحل الشمالى)
الكيلو ١٤٢ - الساحل الشمالى - قرية خليج غزالة.

٣٠. فرع السويس
١ شارع البرج - تقاطع ٢٣ يوليو.

٣١. فرع بور سعيد
ناصية شارع جمهورية ودمياط وحافظ إبراهيم.

٣٢. فرع دمياط
منطقة زاهر- كورنيش النيل- طريق دمياط- رأس البر.

٣٣. فرع الغردقة
طريق النصر- مركز الغردقة التجارى - الغردقة

٣٤. فرع الهضبة (شرم الشيخ)
شارع صلاح الدين-فندق هوليداى إن.

٣٥. فرع خليج نعمة١ (شرم الشيخ)
محل رقم ٢ مركز مرجانة التجارى - منطقة الخدمات السياحية -خليج نعمة.

٣٦. فرع نعمة ٢ (شرم الشيخ)
فندق نيوكاتاركت - خليخ نعمة.

٣٧. فرع نبأ (شرم الشيخ)
جنوب نبأ، ساحل خليج العقبة.

٣٨. فرع أسيوط
برج الهدى - شارع التحرير- متفرع من يسرى راغب.

٣٩. فرع أسوان
٨٢ شارع التحرير - بندر أسوان.

٤٠. فرع الأقصر
شارع معبد الكرنك - أمام الإدارة التعليمية.

PIRAEUS BANK
بنك پيريوس - مصر

البنك بنكك

إتصل بـ 19322

Animation Advertising